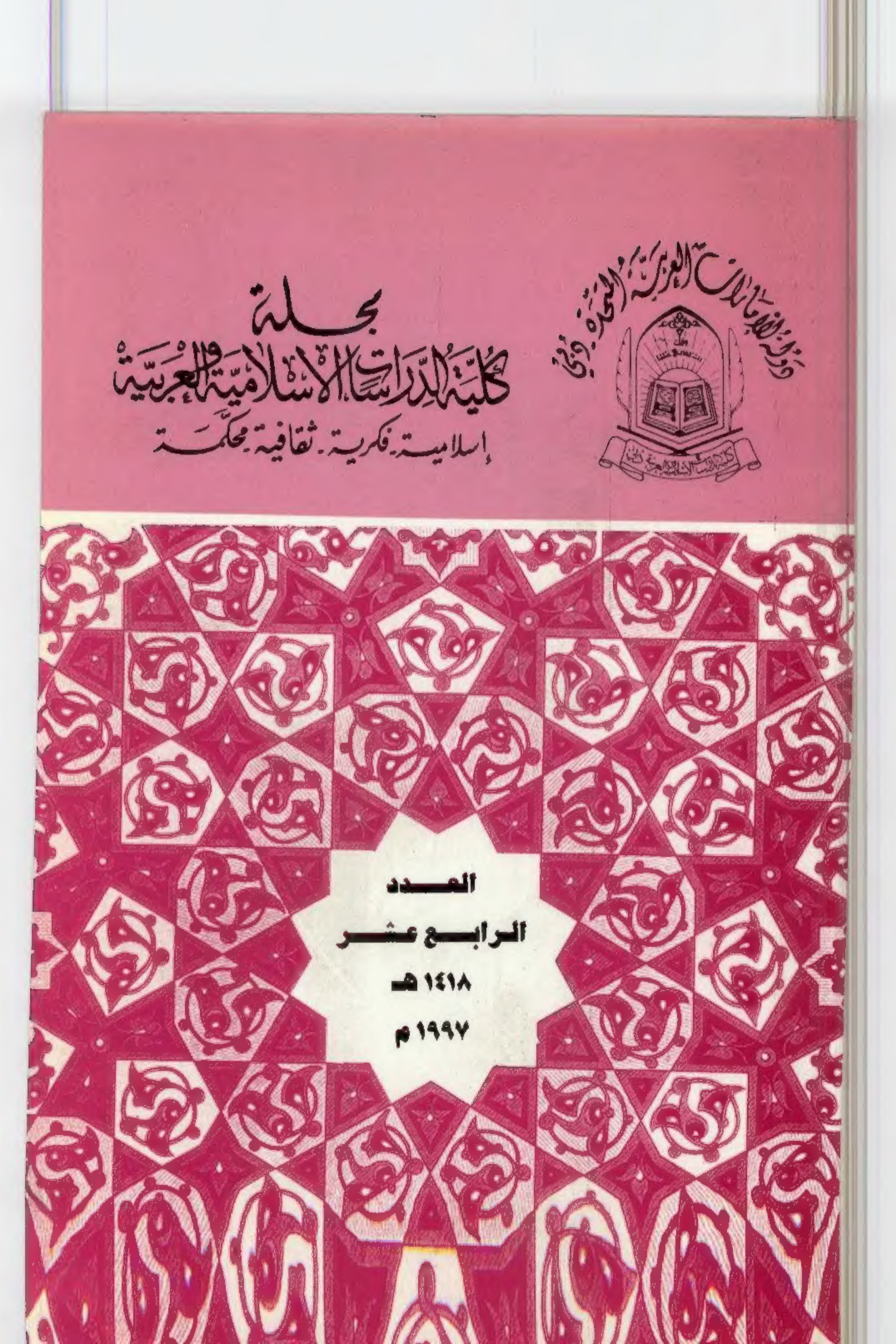

دولة الإمارات العربية المتحدة دبي
مجلة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
إسلامية . فكرية . ثقافية . محكمة
العدد
الرابع عشر
١٤١٨ هـ
١٩٩٧ م



مجلة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية

إسلامية. فكرية. ثقافية. محكمة

العدد

الرابع عشر

١٤١٨ هـ

١٩٩٧ م



طبيعــــة المجـلة وأهــدافها

١ ـ تعنى المجلة بنشر البحـوث العلمية الجادة في حقل الدراسـات الإسلاميـة والعربية بمختلف فروعها وتخصصاتها.

٢ ـ يمكن أن يكون البحث تحقيقـاً لمخطوطـة تراثية أو تأليفاً في مـوضوع من الموضوعات الهامة.

٣ ـ تنشر فيها بعض محاضرات الموسم الثقافي، وبعض أخبار الكلية.

٤ ـ تخضع البحـوث المقدمـة إلى المجلة للتحكيم، وذلك بعـرضها على أسـاتذة متخصـصين من داخل الكلية أو خارجها، ثم ينشر ما يجيزه المحكمون.

قـــــواعد النشـــــر

١ ـ يلتزم الباحث أصول البحث العلمي، من حيث توثيق المعلومات، والإشارة إلى المصادر والمراجع وطبعاتها وغير ذلك مما هو متعارف عليه.

٢ ـ يُشترط في البحث المقدم الجدة والابتكار. وألا يكون منشوراً من قبل.

٣ ـ تكون الكتابة بخط واضح على وجه واحد من الورقة. أو طباعة على الآلة الكاتبة.

٤ ـ يستخدم الكاتب علامات الترقيم المتعارف عليها في الأسلوب العربي. ويضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

٥ ـ تكتب الحواشي والتعليقات في أسفل كل صفحة على حـدَة.

٦ ـ يُصَـدّر كل بحث بنبـذة مختصرة لا تزيـد على نصَف صفحـة يلخص فيهـا الكاتب بحثه، والأفكار العامة التي عالجها.

٧ ـ يُرافــق كــلَّ بحث نبـذةٌ مختصرةٌ عن كـاتبـه، تعــرّف به، وبسجله العلمي، وأبرز مؤلَفاته.

٨ ـ لا يزيد حجم البحث على ثلاثين صفحة فولسكاب، ولا يقل عن خمسة عشرة..

٩ ـ تُـعرض الملاحظات التي أبـداها المحكمـون على البحـث الصــالح للنشر على صــاحب البحث، ليأخذ بها قبل نشره.

١٠ ـ لا ترد البحوث والموضوعات المرسلة للمجلة إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.

١١ ـ يبلَّغ صاحب البحث بوصول موضوعه ونتيجة التحكيم.

١٢ ـ يُرسل البحث من أصل وصورتين.

١٣ ـ يتم ترتيب المواد المنشورة في المجلة على ضوء أمور فنية.

١٤ ـ تستبعد المجلة أي بحث مخالف للشروط المذكورة. وليست ملزمـة بالرد على صاحبه في هذه الحالة.

١٥ ـ مـا يُـنشر في المجلة يعبّــر عن فكـر أصحــابه، ولا يمثل ـ بالضرورة ـ رأي المجلة أو اتجاهها.

ترسل البحوث وجميع المراسلات الخاصة بالمجلة إلى العنوان التالي :

كلية الدراسات الإسلامية والعربية (المجلة)

دبي، ص . ب : (٥٠١٠٦)

دولة الإمارات العربية المتحدة

الاشتراك السنوي في المجلة متضمناً أجور البريد :

١٥٠ درهما (للمؤسسات) ـ ١٠٠ درهماً (للأفــراد)

يرسل على شكل حوالة أو شيك مصرفي على حساب رقم :

(٠٤٩٠٩٠٦٦٤٦) بنك المشرق ـ دبي

ثم يرسل إلى المجلة إشعار بالتحويل

المحتـــويات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

فيطالعنا العدد الرابع عشر من مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، وهو يحمل في طياته بحوثا قيمة نافعة في مجال الدراسات الإسلامية والعربية، وتشكر المجلة جميع الأقلام المخلصة التي ساهمت في هذا العدد، من أجل تحرير الكلمة من رق السطحية إلى حرية العمق والتقنين، ومن تكرار الأفكار إلى عليـاء الاستنباط والابتكار، وهذا ما تحرص عليه أسرة المجلة من أرباب الأقلام المؤمنة والمخلصة باستمرار.

ويصدر هذا العدد والأوجاع الدامية تنبعث من جدران المسجد الأقصى ببيت المقدس، حيث استطالت الصهيونية في شق نفق تحت الأقصى، وحولت حائط البراق إلى حائط المبكى.

وفي ظل هذه الغطرسة الصهيونية، وصمت العالم، يستوجب الأمر أن يتذكر المسلمون مدينة القدس، عروس الفتح الإسلامي، فالقدس وما فيها من مقدسات رمز إسلامي أبدي في قلوب جميع المسلمين، لأن التاريخ يروي لنا أن المسلمين بذلوا نحو خمسة وعشرين ألفا من شهدائهم حتى وقفوا على أسوار القدس وفتحوها، إضافة إلى مئات الآلاف من الشهداء خلال العصور المتعاقبة، فكل قطعة من أرضها معجونة برائحة مسكية من دماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهي عزيزة على المسلمين لأن رسول الله ﷺ أسري به إليها، وعرج به على البراق منها، وصلى بالأنبياء في الأقصى، وهي عظيمة لأن هدير عمر بن الخطاب بالتكبير، لا يزال يدوي من على جبل المكبر في آذان المسلمين من خلف أسوار الزمن والتاريخ، ليؤكد لهم الانتماء، ويبعث فيهم الحراك بدل السكون.

إن نزيف دم العالم الإسلامي ومحاولات تدويل القدس وتهويدها وعدم القدرة على إحقاق الحق في ضبط نزيف البشر، وإعادة القدس إلى أصحابها الشرعيين ليؤكد على فشل التجربة البشرية في حكم البشر، للبشر وتسلط الناس على رقاب بعضهم بعضاً، وبطلان الاجتماع الإنساني على القوانين الوضعية، ومنظمة الأمم المتحدة التي كانت رجاء إنسانياً في وحدة البشر وتحقيق العدل الإنساني تتحول

اليـوم إلى أداة لتكريس العنصرية ومحاباة الصهيونيـة، واستعـلاء العرق الغـربي بحجة أنه يجري فيه دم ذهبي يستوجب سيادة العالم والوصاية عليه.

إن هذا يتطلب منا في سلم الأولويات والواجبات، خلع جلباب الفرقة والخلاف بين الدول العربيـة والإسلاميـة، والسعي الجاد لبناء الوحدة الإســلامية، وتحقيق كيـانها الواحد وصهـر أبناء هذه الأمة في فكرة العقيـدة الواحدة والانتماء الواحـد والسعي الجاد لإقامـة الأمة الخيرة الشاهدة على الناس، فإنه ما تفـرقت أمة واتسع فيهـا خـرق الشقـاق والنزاع إلا أغـرت أعـداءها بها. والذئـب لا يأكل إلا من الغنم القاصية.

إن القـرن الحادي والعشرين بخيره وشره على الأبواب، وهو قـرن التكتـلات والتحديات، فهذه أوروبا تستعد له فتتوحد وتتمدد أفقياً لتشمل كل السماء الزرقاء المحتضنة لدول أوروبة الشرقيـة والغـربية، فحـري بنا معشر المسلمين أن نستلهم تجربة الوحـدة من ديننا وعقيدتنا، ونستفيـد من تجارب الآخـرين، لقد كـان ديننا الحنيف أول من قرر قانون الاعتصــام ونبذ الخلاف وفشل النزاع، ومن خلال هذا القانون حول شتات العرب إلى قوة كانت تضع لكلمة نعم معنى نعم ولكلمة لا معنى لا في الحياة، وترسي موازين العدل والقسطاس المستقيم في أرجاء الأرض.

وحري بنا مـرة أخرى أن نجد ونجتهـد ونعمل لبناء أمة الاستخـلاف، وأمة الشهادة على النـاس، وأمة الإسلام التي تجد لها مكـانا محترماً على خريطـة القرن الحادي والعشرين، ولا يتحقق هذا المقـام إلا بتحـويل مصـداقية الطمـوح من فقـه الآمال والأقوال إلى فقه التحقيق والتطبيق.

لقـد بليت هذه الأمة بقـارعـة الصليبيين وقارعـة التتـار، وقارعـة الأندلس، وقارعـة سقوط الخلافة الإسلاميـة، وقارعة الاستعمار، ولا تزال الأمـة في سبات عميق لم تستلهم دورس الزمان والمكان، ولم تتنبه لسنن الله تعالى في الشعوب، ولم تدرك قـوانين البقـاء والزوال، وإني والله أكـاد أقـول: إن فقـه التـاريخ يعلمنا أن استمرار الوضع الراهن في الأمـة من فرقة وشقاق وتجزئـة وأحقاد وإهمال، إذا لم يغسل بماء التوبة، ويعالج بالحكمة والوحـدة، ويحط بسياج القوة والمنعة والعمل، فستكون الحالقة، لا أقول الحالقة للشعر بل الحالقة للدين والأمة.

«وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين»

لجنة التحرير

الاستحسان الأصولي .... حقيقته وحجيته

أ. د. حسن أحمد مرعي *

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد

فإن الله سبحانه أرسى شريعة الإسلام على قواعد راسخة، وأسس ثابتة، وأدلة قوية، من الكتاب والسنة، وما يرجع إليهما كالإجماع والقياس، ومن الأدلة ما اتفق عليه علماء المسلمين، ولم يرد فيه خلاف ممن يعتبر رأيه، كالأدلة السابقة، ومنها، ما وقع فيه الخلاف بينهم في الاحتجاج به.

ومن هذه الأدلة المختلف فيها : الاستحسان.

وفي هذا البحث أتناول بيان حقيقته وحجيته في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في بيان حقيقته في اللغة وتعريفاته الاصطلاحية.

المبحث الثاني : هل هناك استحسان مختلف فيه.

المبحث الثالث : في حجيته.

---

* الأستاذ بقسم الشريعة في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي.

المبحث الأول
في حقيقة الاستحسان لغة وتعريفاته الاصطلاحية

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : في بيان حقيقته في اللغة

الاستحسان: استفعال من الحسن، ومعناه: عد الشيء حسناً، والحَسَن ـ محركة ـ ما حسن من كل شيء، والاستحسان وجود الشيء حسنا، أو اعتقاد حسنه، ويطلق على ما يميل إليه القلب ويهواه، سواء كان حسيا أو معنوياً، وإن كان مستقبحا عند غيره(١).

المسألة الثانية : في تعريفاته الاصطلاحية :

وقد اختلف الأصوليون اختلافا واسعا في التعبير عن حقيقة الاستحسان نختار منها ما يمثل هذه الاتجاهات.

الأول : ذكره الغزالي ضمن تعريفات ثلاثة للاستحسان، وهذا أولها. وتابعه عليه ابن قدامة(٢) قال: إنه ما يستحسنه المجتهد بعقله.

وهذا المعنى فاسد، لأنه ليس كل ما يستحسنه العقل يكون موافقا للشرع. فلا بد من النص في هذا التعريف على أن يكون الاستحسان بدليل من الأدلة الشرعية، وإلا ضاعت الشريعة، وتحكمت فيها الأهواء.

وبخاصة في هذا الزمان الذي كثر فيه ادعاء الاجتهاد، ممن لم تتوافر

١ ـ الصحاح ٢/٣٦٥ ولسان العرب ١٣/١٧٧ وتاج العروس ٩/١٧٧ والقاموس المحيط ٤/٢١٤ وكشف الأسرار للنسفي ٢/٢٩١.

٢ ـ روضة الناظر ٨٥ والمستصفى ١/٢٧٤.

فيهم شروطه، وكثر القول فيه بهوى العقول وشهوات النفوس. نسأل الله السلامة.

الثاني : وذكره القاضي البيضاوي وابن الحاجب وهو أحد التعاريف التي ذكرها الغزالي وتابعه عليه ابن قدامة وهو

الاستحسان: عبارة عن دليل ينقدح في نفس المجتهد وتقصر عنه عبارته ولا يقدر على إظهاره(١).

وقد رد الغزالي هذا التعريف بقوله :

وهذا هو س لأن ما لا يقدر على التعبير عنه لا يدري أنه وهم وخيال أو تحقيق، ولابد من ظهوره ليعتبر بأدلة الشريعة، لتصححه أو تزيفه، أما الحكم بما لا يدي ما هو فمن أين يعلم جوازه؟ أبضرورة العقل، أو نظر أو سمع متواتر أو آحاد؟ ولا وجه لدعوى شيء من ذلك(٢).

ثم إن الانقداح يحتمل كثيرا من المعاني فلابد من التحديد، أهو خاطرة خطرت أوشك في القلب أو غلبة ظن.

فلابد من بيانه أو على الأقل تقييده بما يغلب على الظن.

ورد البيضاوي أيضا هذا التعريف بقوله: إنه لابد من ظهوره ليتبين صحيحه من فاسده(٣).

ويقول الشيخ محمد بخيت المطيعي في رده لهذا التعريف: «إذا لم يكن الاستحسان الذي انقدح في نفس المجتهد نصا ولا إجماعا ولا قياسا صحيحا،

---

١ ـ المراجع السابقة ومنتهى الوصول والأمل لابن الحاجب ١٥٥ والإبهاج مع المنهاج ٣/١٨٨

٢ ـ المستصفى ١/٢٨١ ونفائس الأصول ٩/٤٠٣٧.

٣ ـ الإبهاج مع المنهاج ٣/١٨٨.

فلا يجوز للمجتهد أن يثبت به حكماً، فـالذي تقصر عنه العبارة لا يكون واحدا منها، فلا يصح إثبات الأحكام الشرعية به(١).

بينما نرى بعض العلماء يرون أن هذا التعريف متردد بين القبول والرد. يقـول ابن السبكي: «وفسر بدليل ينقـدح في نفس المجتهد تقصر عنه عبـارته» ورد بأنه إن تحقق عند المجتهد فمعتبر ولا يضر قصـور عبارته عنه قطعاً، وإن لم يتحقق عنده فمردود قطعاً»(٢).

وقـال في الإبهاج ردا على البيضـاوي الـذي اعتبره وهما ـ وهذا الرد يتضح به أنه لا يجدي شيئا في مجلـس المناظرة، وأمـا أن المجتهـد لا يعمل به، فللقوم منع ذلك وأن يقولوا: إذا انقـدح له دليل على حادثة وهو جازم به، أفتى بها المقلد»(٣).

ويقول العضـد: «إن هذا التعريف متردد بين القبـول والرد، لأنه إن كان المراد بانقـداح الدليل في نفس المجتهـد أنه يتحقق ثبـوته عنده فإنه يجب عليـه العمل به، ولا أثر لعجـزه عن التعبير عنه، وإن كـان بمعنى أنه شـاك فيه فهـو مردود اتفاقاً»(٤).

وهذا التعريف وما قبله يشيران إلى الاستحسان المختلف فيه.

الثالث : مما ذكره الغزالي وصدر به ابن قـدامة تعريفاته للاستحسان، لأنه يتكلم عن الاستحسان المعتبر حجة عند أحمد.

وعرفـه بأنه : العدول بحكم المسألة عن نظائرها لدليل خـاص من كتاب أو سنة وهو معنى ما نقله أبو الحسين البصري عن أبي الحسن الكرخي وهو:

---

١ ـ سلم الوصول للشيخ بخيت على شرح الأسنوى ٤/ ٤٠٠.

٢ ـ جمع الجوامع حاشية العطار ٢/ ٣٤١.

٣ ـ الإبهاج شرح المنهاج ٣/ ١٨٨.

٤ ـ شرح العضد لمختصر ابن الحاجب ٢/ ٢٨٨.

الرابع: تعريف الكرخي له: أن يعدل الإنسان عن أن يحكم في المسألة بمثل ما حكم به في نظائرها إلى خلافه لوجه أقوى من الأول يقتضي العدول عن الأول وهو أصح النقول عن الكرخي وأشمل مما قبله(١).

واختصره البيضاوي في قوله: قطع المسألة عن نظائرها لما هو أقوى ومثل له بما إذا قال القائل: ما لي صدقة فالاستحسان عند أبي حنيفة أن يخصص بمال الزكاة.

فإن هذا القول منه عام في التصدق بجميع أمواله وقال أبو حنيفة يختص بأموال الزكاة، لقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾(٢) والمراد من الأموال المضافة إليهم مال الزكاة.

فعدل عن أن يحكم في الأموال التي ليست بزكوية بما حكم به في نظائرها من الأموال الزكوية إلى خلاف ذلك الحكم لدليل أقوى اقتضى العدول وهو الآية(٣).

وهذان التعريفان الثالث والرابع مردودان.

ردهما أبو الحسين البصري والبيضاوي بأن التخصيص بناء عليهما يعتبر استحسانا لانه عدول بالخاص عن حكم بقية أفراد العام لدليل اقتضى ذلك العدول فالاستحسان على هذا هو التخصيص.

وإذا فسرناه بذلك خرج عن محل النزاع لاتفاق الأمة عليه.

الخامس: ما ذكره النسفي بأن الاستحسان اسم لدليل يعارض

---

١ ـ المعتمد لابي الحسين البصري ٢/ ٨٤٠ وكشف الأسرار للبخاري ٤/ ٨ ونفائس الأصول ٩/ ٤٠٣٤.

٢ ـ الآية ١٠٣ سورة التوبة.

٣ ـ الإبهاج بشرح المنهاج ٣/ ١٨٨ والبحر المحيط للزركشي ٦/ ٩١.

القياس الجلي ثم قال: فكأنهم سموه بذلك لاستحسانهم ترك القياس بدليل آخر فوقه، وذا قد يكون نصا كما في السلم فإن القياس يابى جواز السلم لأن المعقود عليه معدوم عند العقد، وإنما تركناه بالنص وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «من أسلم منكم فليسلم في كيل معلوم أو وزن معلوم إلى أجل معلوم» ثم مثل بالإجارة وأمثلة أخرى تشير إلى أنواع الاستحسان(١).

أقول: وتمثيله هذا يجعلنا نفهم أن مراده بالقياس القواعد العامة والأصول المقررة في الشريعة، وبهذا يكون هذا التعريف في معنى التعريفين الثالث والرابع.

التعريف السادس : وهو لأبي الحسين البصري.

وقد ذكره بعد تعريفات بين ضعفها وقصورها ثم قال:

«وينبغي أن يقال: الاستحسان هو ترك وجه من وجوه الاجتهاد غير شامل شمول الألفاظ لوجه هو أقوى منه في حكم الطارىء على الأول»(٢). واعترض عليه الرازي فقال:

«واعلم أن هذا يقتضي أن تكون الشريعة كلها استحسانا، لأن مقتضى العقل هو البراءة الأصلية، وإنما يترك ذلك لدليل أقوى منه، وهو نص أو إجماع أو قياس، وهذا الأقوى في حكم الطارىء على الأول، فيلزم أن يكون الكل استحسانا، وهم لا يقولون به(٣).

---

١ ـ كشف الاسرار شرح المنار كلاهما للنسفي ٢/ ٢٩١ ولفظ الحديث عند مسلم عن ابن عباس قال قدم النبي صلى الله عليه وسلم وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين فقال: «من أسلف في ثمر فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم» صحيح مسلم بشرح النووي ٦/ ٤٦ حديث رقم ١٦٠٤

٢ ـ المعتمد ٢/ ٨٤٠

٣ ـ المحصول للرازي ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦١

التعريف السابع : وهو للإمام الرازي :

فبعد أن بين ضعف تعريف أبي الحسين البصري أوجب تعريفه بأنه: ترك وجه من وجوه الاجتهاد مغاير للبراءة الأصلية والعمومات اللفظية لوجه أقوى، وهو في حكم الطارىء على الأول»(١).

أقول : ومازاده الرازي من اشتراط الا يكون الحكم المعدول عنه هو مقتضى البراءة الأصلية، أو العمومات اللفظية ـ زيادة لا موجب لها. لأن قوله في التعريف «وجه من وجوه الاجتهاد مخرج لهذا من البراءة الأصلية(٢).

التعريف الثامن : تعريف الآمدي الذي لخص فيه تعريف أبي الحسين البصري، لأنه يراه جامعا مانعا حيث عبر عنه بأنه:

الرجوع عن حكم دليل خاص الى مقابلة بدليل طارىء عليه أقوى منه من نص أو إجماع أو غيره(٣)، وهذا التعرف هو المختار عند القائلين بأنه حجة.

المبحث الثاني
هل هناك استحسان مختلف فيه ؟

إذا نظرنا إلى هذه التعريفات وغيرها من تعريفات الاستحسان، نستطيع أن نقسمها إلى قسمين :

القسم الأول : وهو الذي يمكن أن يقع فيه خلاف(٤) بين العلماء، لأنه يشمل ما يمكن أن يكون مقبولا من الاستحسان ، وما يمكن أن يكون مرفوضاً، وهو الذي يمثله التعريفان الأولان.

---

١ ـ المرجع السابق، [illegible] ٢ ـ الاستحسان للدكتور السيد صالح ص ٤٦.
٣ ـ الإحكام للآمدي ٤/١٥٨. ٤ ـ البحر المحيط للزركشي ٦/٩٣.

الشريعــة بالرأي والهوى. ويفتح البــاب لمدعي الاجتهــاد، فيعمل عقله دون ضابط من الشريعة.

ولعل هـذا القسم هو الذي عناه أبو حنيفــة عنـدمـا كـــان يتكلم في الاستحســان فإنه مجتهد، والمجتهـد لا ينقـدح في ذهنه إلا مـا يوافق القواعـد العامة، والأصول المقررة في هذه الشريعة السمحة.

وأرى أن الشافعي وهو ينكر الاستحسان لم يخص مـا يقوله أبو حنيفة من الاستحسان، وإنما ينكره حتى يسـد الباب أمام من يدعـون الاجتهاد ولم تتحقق فيهم شروطه، ولم يتأهلوا له، حتى لا يترك دليـل قائم إلا بدليل أقـوى منه.

وهذا هو محل النـزاع بين المتنازعين من الجمهـور القــائلين بصحــة القياس.

ويؤيد هذا مـا سلكه ابن قـدامـة في تعـريفـه للاستحســان، فإنه ذكـر تعـريفات ثلاثة بدأها بما يعبر عن رأي الإمــام أحمد في الاستحسان المقبـول، وهـو «العـدول بحــكم المسألة عن نظائرها لدليل خــاص من كتاب أو سنة». ثم ذكـر الثــاني وهو: أن الاستحسان مـا يستحسنه المجتهـد بعقله ثم أعقبـه بقوله: حكى عن أبي حنيفه أنه حجة ثم بدأ يذكر أدلة الحجية ويناقشها»(١).

أمـا الرافضـــون للقيـاس وهم الشيعـة وابن حـــزم فهم يخالفـون في الاستحســان بهذا المعنى كما يخالفون في الاستحســان المبني على القيـاس من النوع الثاني.

القسم الثاني : ويمثله التعريفات الباقية للاستحسان وهي التي تفيد أن

١ ـ روضـة النـاظر ص ٨٥ وحكاه بشر المريسي والشـافعي والشيرازي عـن أبي حنيفـة الإبهاج ٣/ ١٩٠ والبحر المحيط للزركشي ٦/ ٩٣.

الاستحسان عدول عن حكم دليل إلى مقابلة بدليل طارىء عليه أقوى من الأول وهذا القسم له أنواع سنذكرها، ولم ينكره أحد من الجمهور القائلين بصحة القياس وأنكر ابن حزم والشيعة ما بني منه على القياس أما غيره فيعملون به عملا بدليله ولا يسمونه استحسانا يقول ابن حزم عند بدء كلامه في الاستحسان والاستنباط والرأي وإبطال كل ذلك قال: إنما جمعنا هذا كله في باب واحد، لأنها كلها ألفاظ واقعة على معنى واحد، لا فرق بين شيء في المراد بها، وإن اختلفت الألفاظ، وهو الحكم بما رآه الحاكم أصلح في العاقبة وفي الحال، وهذا هو الاستحسان لما رأى برأيه من ذلك، وهو استخراج ذلك الحكم الذي رآه...

ثم يقول: ومن المحال أن يكون الحق فيما استحسنا دون برهان، لأنه لوكان ذلك لكان الله تعالى يكلفنا مالا نطيق ولبطلت الحقائق، ولتضادت الدلائل، وتعارضت البراهين، ولكان الله تعالى يأمرنا بالاختلاف الذي قد نهانا عنه، وهذا محال...

إلى أن يقول، والحق حق وإن استقبحه الناس، والباطل باطل وإن استحسنه الناس، فصح أن الاستحسان شهوة واتباع للهوى وضلال(١).

ويقول محمد تقي الحكيم في بيانه للاستحسان المختلف فيه عند الشيعة وغيرهم: «والخلاصة إن كان المراد بالاستحسان هو خصوص الأخذ بأقوى الدليلين فهو حسن، ولا ما نع من الأخذ به، إلا أن عده في مقابل الكتاب والسنة ودليل العقل لا وجه له، وإن كان كما يقول ابن القفال: ما يقع في الوهم من استقباح الشيء واستحسانه من غير حجة دلت عليه من أصل ونظير، فهو محظور والقول به غير سائغ»(٢).

---

١ ـ الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١٩٥/٦ ومابعدها. والتلخيص لإمام الحرمين في أصول الفقه ٣١٠/٣.

٢ ـ الأصول العامة للفقه المقارن محمد تقي الحكيم ٣٦٣ عن الاجتهاد فيما لا نص فيه للدكتور الطيب خضري ٢٨/٢.

سبب الخلاف: إن الخلاف الذي نشأ بين الشافعي والجمهور، إنما نشأ لأنه في عصر الأئمة رضوان الله عليهم جميعا لم يوجد تعريف للاستحسان، يبين حقيقته، ويقرر معناه في أذهان المجتهدين.

وإنما استعمله أبو حنيفه في اجتهاداته، استعمال الفقيه المدرب على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، الملم بقواعد الشريعة ومقاصد الشارع، الخبير بمصالح الناس.

ومن هذا شأنه لا يمكن أن يستعمل الاستحسان الناشىء عن هوى النفس، وطيش الفكر، وإنما الاستحسان الذي يتخذه دليلا هو المبنى على أصول الشريعة وقواعدها.

وهذا هو الذي بينه متأخرو الحنفية الذين جاءوا بعد أبي حنيفة واصحابه في تعريفاتهم للاستحسان، وعلى رأسهم أبو الحسن الكرخي الذي عرفه بأنه العدول بحكم المسألة عن نظائرها لوجه أقوى يقتضى هذا العدول(١).

وهذا هو الذي شهد به غير الحنفية للإمام أبي حنيفة، قال أبو الحسين البصري: «أعلم أن المحكي عن أصحاب أبي حنيفة القول بالاستحسان، وقد ظن كثير ممن رد عليهم أنهم عنوا بذلك الحكم بغير دلالة، والذي حصله متأخرو أصحاب أبي حنيفة رحمه الله، «هو أن الاستحسان عدول في الحكم عن طريقة إلى طريقة هي أقوى منها».

وهذا أولى ممن ظنه مخالفوهم، لأنه الأليق بأهل العلم، ولأن أصحاب المقالة أعرف بمقاصد أسلافهم، ولأنهم قد نصوا في كثير من المسائل، فقالوا: استحسنا هذا للأثر ولوجه كذا، فعلمنا أنهم لم يستحسنوا بغير طريق(٢).

ويقول الشاطبي بعد ذكره لبعض تعريفات الاستحسان:

«وإذا كان هذا معناه عن مالك وأبي حنيفة رضي الله عنهما، فليس بخارج

---

١ ـ كشف الأسرار على أصول البزودي ٤/٨ بتصرف.

٢ ـ المعتمد لأبي الحسين البصري ٢/٨٣٨.

عن الأدلة البتة، لأن الأدلة يقيد بعضهـا بعضا، ويخصص بعضها بعضا، كما في الأدلة السنية مع القرآن، ولا يريد الشافعي مثل هذا أصلا...»(١).

أما الشافعي : فإنكاره للاستحسان قائم على أربعة أسباب :

أولها : أن أبا حنيفة عندما استعمل الاستحسان لم يضع لـه تعريفا يحتكم إليه في بيان حقيقته، وإن كان معناه واضحا في ذهنه فأنكره الشافعي.

ثانيها : أن معناه اللغوي هو عد الشيء حسنا أو ما يميل إليه القلب فخشي الشافعي أن يسمع بعض من لا خبرة له بالاجتهاد، ولا علم له باستنباط الاحكام الشرعية من أدلتها، عما ذهب إليه أبو حنيفة من الأخذ بالاستحسان، فيعمل به هؤلاء دون ضابط من الشريعة وبخاصة بعد أن يتطاول العهد، ويبتعد الزمان.

ولهذا نراه في كلامه دائما يرشد إلى الأدلة التي يمكن أخذ الأحكام الشرعية عن طريقها ، حتى ينير الطريق أمام من يريد الاجتهاد.

يقول الإمام الشافعي في هذا: «لا يجوز لمن استأهل أن يكون حاكما أو مفتيا أن يحكم ولا أن يفتي إلا من جهة خبر لازم، وذلك الكتاب ثم السنة، وما قاله أهل العلم لا يختلفون فيه، أو قياس على بعض هذا، ولا يجوز أن يحكم ولا أن يفتي بالاستحسان، إذ لم يكن الاستحسان واجبا ولا في واحد من هذه المعاني(٢).

ثالثها : أن بعض أنواع الاستحسان قائم على العمل بالمصلحة، وتوسع المالكية في هذا، حتى عرف الشاطبي الاستحسان بأنه: الأخذ بمصلحة جزئية في مقابلة دليل كلي(٣).

---

١ ـ الاعتصام للشاطبي ٢/ ١٣٩.

٢ ـ إبطال الاستحسان الأم ٧/ ٢٧٠ وانظر الرسالة ٥٠٤ بتصرف.

٣ ـ الموافقات للشاطبي ٤/ ٢٠٥.

والشافعي ضيق العمل بالمصلحة، واشترط له شروطا، وخص بالعمل أنواعا محل ذكرها في المصلحة المرسلة ـ وعلى هذا فهو ينكر ما كان من الاستحسان مبنيا على مصلحة غير معتبرة عنده.

رابعاً : أن بعض أنواع الاستحسان قائم على تقديم قياس على قياس آخر حتى قال السرخسي في حقيقة الاستحسان:

«الاستحسان في الحقيقة قياسان: أحدهما ضعيف الأثر يسمى قياسا، والآخر خفي قوى الأثر يسمى استحسانا»(١).

أقول : وهذا نوع من الاستحسان باتفاق القائلين بحجية الاستحسان، وخصه السرخسي بالذكر نظرا لأن الكثير الغالب من قضايا الخلاف في الاستحسان مبنية على هذا النوع، وهو اجتهاد في تحقيق المناط، لا ينكره الشافعي وإنما خالف في بعض الفتاوي للحنفية القائمة على الاستحسان من هذا النوع فأنكر العمل بالاستحسان في الجملة حتى لا يتوسع الناس في بناء الأحكام على العقل المحض، وإنما يعمل العقل في إطار أصول الشريعة وقواعدها.

خلاصة :

ظهر بهذا أن ابن حزم ينكر الاستحسان لأنه مبنى على الرأي وما كان منه غير مبنى على الرأي فيعمل به ويثبته لا بالاستحسان، ولكن بالدليل الدال عليه(٢).

والشافعي ينكر الاستحسان سدا لباب العمل بالهوى والشهوة في

١ ـ المبسوط للسرخسي ١٣٥/٣ والاستحسان للدكتور سيد صالح ص ٣٦ وأصول السرخسي ٢٠٠/٢ بتصرف.

٢ ـ الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١٩٥/٦ ومابعدها و٥١٥/٨ ـ ٦١٢.

شريعة الله، وتنبيها، إلى وجوب العمل بما أقامه الشارع دليلا على أحكامه، من الكتاب والسنة والإجماع والقياس(١).

وجمهور المالكيـة والحنفية والحنابلة يعملون بالاستحسـان لأنه يعتمد على دليل معترف به شرعـا في كتـاب الله تعـالى وسنة رسـوله صلى الله عليـه وسلم، ومـا أجمع عليه المسلمون أو القيـاس على مثل هذا وما يحقـق مقصود الشارع في تشريعه للأحكام من التيسير ورفع الضيق والحرج عن الأمة(٢).

المبحث الثالث

في حجية الاستحسان

تحرير محل النزاع :

مما تقدم نستطيع القول بأن الاستحسان له ثلاث صور:

الصورة الأولى : الاستحسان المبنى على الرأي والهوى والتشهي، وميل القلب دون دليل شرعي، وهذا متفق على عدم حجيتـه، إلا من بعض من يدعون الفقه، ويزعمـون أنهم مجتهدون في كل عصر، لا يخلو منهم زمن ولا بلد، وهم في حقيقة أمرهم لم يحصلوا وسائل الاجتهـاد وشروطه، وأدلة الشافعي التي اقامها في كتاب الأم وكتاب الرسالة على إبطال الاستحسان، أرى انها توجه إلى هؤلاء المتفيهقين وسنذكرها في المسالة الأولى(٣).

١ ـ الأم للشافعي ٧/ ٢٧٠ ومابعدها والرسالة ٥٠٥ ومابعدها.

٢ ـ كشف الأسرار بشرح المنار كـلاهما للنسفي ٢/ ٢٩٠ ومنتهـى الوصـول والامـل في علمي الأصول والجدل لابن الحاجب ١٥٥ وشرح الكوكب المنير ٤ /٤٢٧ وقال به الإباضية في طلعة الشمس ٢ ,١٨٥

٣ ـ المراجع السابقة والتلخيص لإمام الحرمين ٣/ ٣١٠.

الصورة الثانية : الاستحسان المبنى على القياس والمصلحة وماشابههما من أوجه الاجتهاد بالرأى، وهذا الاستحسان أنكره ابن حزم والشيعة وسنذكر أدلته ونناقشها في المسألة الثانية.

الصورة الثالثة : الاستحسان المبنى على دليل شرعي متفق عليه من أدلة الشريعة ويشمل ما كان بالقياس والمصلحة وغيرهما من أوجه الاجتهاد بالرأي وهذه الصورة من الاستحسان يقول بها جمهور الأئمة وعلى رأسهم أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والإباضية والزيدية ومنهم الشوكاني واختلف النقل عن المعتزلة فنقل الدكتور الطيب خضري عن الشوكاني: أن المعتزلة يمنعون الاستحسان، ولم أجده في نص الشوكاني صراحة، ولعله فهمه من إطلاق الشوكاني نسبة القول بإنكاره إلى الجمهور حسب قوله.

والصحيح في النقل عنهم القول بالاستحسان، فيما عليه دليل من أدلة الشرع كالجمهور، فقد ذكره أبو الحسين البصري مقرا به ومعرفا له(١).

فهذا البحث مشتمل على ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : أدلة الشافعي :

وهي الأدلة التي توجه إلى كل من تسول له نفسه أن يقول في الدين بعقله وما يميل إليه قلبه دون ضابط أو دليل، في كل زمان ومكان ويتفق مع الشافعي على إنكار الاستحسان دون دليل شرعي ـ جماهير العلماء من كل المذاهب.

---

١ ـ انظر في هذه الصور كلها وآراء العلماء في الاستحسان. الإحكام للآمدي ٤/١٥٦ والمعتمد ٢/٨٣٨ والأم للشافعي ٧/٢٧٠ والرسالة للشافعي ٥٠٤ وإرشاد الفحول ٢١١ وشرح الكوكب المنير ٤/٤٢٧ والمستصفى للغزالي ١/٢٨٣ وإحكام الفصول للباجي ٦٨٧ والاجتهاد فيما لا نص فيه للدكتور الطيب خضري ص ٢٨ وأصول الفقه الإسلامي للشيخ زكي الدين شعبان ص ١٧٣.

وهـذه الأدلة كثيرة وهي عبـارة عن فقرات من كلام الشـافعي، نوردها فيمايلي :

أولاً : قال الشـافعي: لا يجوز لمن استأهل أن يكون حـاكما أو مفتياً، أن يحكم ولا أن يفتي إلا من جهة خبر لازم، وذلك الكتاب ثم السنة أو ما قاله أهل العلم لا يختلفـون فيـه، أو من جهـة قيـاس على بعـض هذا ثم قـال: ولا يفتي بالاستحسان إذ لم يكن الاستحسان واجبا، ولا في واحد من هذه المعاني(١).

ثانياً : وهي في معنى الفقرة الأولى، يقول فيها الشافعي :

ومن قـال أستحسن لا عن أمـر الله ولا عن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم، فلم يقبل عن اللـه ولا عن رسـوله صلى الله عليـه وسلم مـا قـال، ولم يطلب ما قبل بحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكان الخطأ في قول هذا بينا(٢).

وهاتان الفقرتان تردان كل استحسان ليس له سند من كتاب الله تعالى، ولا سنة رسـوله صلى الله عليه وسلم، ولا غيرهما من أدلة الشريعـة، إنما هو مبني على الهوى والتشهي وقد نقل عنـه: أن الاستحسان تلذذ ومن استحسن فقد شرع(٣).

وهذا لا يصح أن يكون ممن ينتسب إلى هذه الشريعة الغراء .

ثالثاً : يلزم الشـافعي الناس أجمعين بعـدم القول بالاستحسـان، حتى ولو كان حاكما أو مفتيا فيقول :

«أفرأيت إذا قال الحاكم والمفتي في النازلة ليس فيها نص خبر ولا قياس،

١ ـ الرسالة ٥٠٤ والأم ٧/ ٢٧٠.

٢ ـ المرجع السابق والأدلة المختلف فيها عند الأصوليين للدكتور خليفة بابكر ص ٢٦.

٣ ـ شرح الكوكب المنير ٤/ ٤٢٩ والبحر المحيط للزركشي ٦/ ٩٣.

وقال أستحسن، فـلابد أن يزعم أن جائـزا لغيره أن يستحسن خلافـه فيقول: كل حـاكم ومفت بما استحسن، فيقـال في الشيء الواحـد بضروب من الحكم والفتيـا، فإن كان هذا جـائـزا فقد أهملـوا أنفسهم فحكموا كيف شـاءوا، وإن ضيقوا فلا يجوز لهم أن يدخلوا فيه»(١).

فالاستحسـان الذي ينكره الشافعي مالا يعتمـد على الأدلة الشرعية ولا يتحكم فيه الا العقل، والعقـول تتفاوت، واللذات والشهوات تتغـاير، فلا يجوز أن يحتكم إلى العقل وحده، وإنما يحكم العقل الدائر في فلك هذه الشريعة الغراء.

وإذا احتكم المجتهـد إلى الشرع، أو الرأي المستمد من الشرع فـلا حرج في اختلاف المجتهـدين حينئذ، بل هو التوسعة على المسلمين وقـد روى عن الإمام أحمد أنه سمى الخلاف سعة(٢).

وقال عمـر بن عبدالعـزيز: ما يسرني أن أصحـاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم لم يختلفوا، لانهم إذا اجتمعـوا على قول، وخـالفهم في الفهم رجل كان ضالا، وإذا اختلفـوا فأخذ رجل بقول هذا، ورجل بقـول هذا، كان في الأمر سعة(٣).

المسألة الثانية : في أدلة ابن حزم :

وهي مـوجهة إلى من يقـول بالرأي في الشريعـة مطلقـا، سواء كـان هذا الرأي منضبطا بقواعد الشريعة ونصوصها، أو كان غير معتمد على هذا.

فهـو يبطل القيـاس والمصلحة وبالتـالي فهـو يبطل الاستحسـان المبنى

---

١ ـ الأم ٧/ ٢٧١ والرسالة ٥٠٥.

٢ ـ مسودة آل تيمية ٤٩٧ والاجتهاد للدكتور حسن مرعي ص ٧.

٣ ـ فتاوي ابن تيمية ٣/ ٨٠

عليهما، وبالأولى فهو يبطل الاستحسان المبنى على الرأي المجرد عن ضوابط الشريعة. ونختار من كلامه دليلين يدلان على ما ذهب إليه:

الدليل الأول : سأل ابن حزم خصمه عن معنى قولهم: الاستحسان في هذه المسألة وجه كذا، وأجاب عنهم بجوابين وأبطلهما.

أولهما : ما كانوا عليه فيما قارب عصر أبي حنيفة ومالك، وهو الذي يرونه أحوط أو أخف أو أقرب من العادة والمعهود، أو أبعد من الشناعة ثم يقول: وهذا كله بالجملة راجع إلى ما طابت عليه أنفسهم، وهذا باطل بقوله تعالى: ﴿ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾(٢) وبقوله تعالى: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾(٤)، ثم قال: وفي هذه الآي إبطال أن يتبع أحد ما استحسن بغير برهان من نص أو إجماع(٥).

ونحن هنا نسجل على ابن حزم أولا اعترافه بوجود استحسان سنده النص أو الإجماع وهما أدلة الشريعة عنده، ولم يذكر القياس لأنه من المنكرين له مع أنه ثابت بما أوجب الاعتماد عليه وهو النص من الكتاب العزيز والسنة النبوية والإجماع.

ثاني الجوابين للخصم وهو الذي أجاب به الكرخي وهو أن قال: هو أدق القياسين قال ابن حزم في رده: وهذا القول يبطله كل ما نورده إن شاء الله في باب إبطال القياس(٦).

ولا أريد الدخول مع ابن حزم في مناقشات لإبطال القياس أو تصحيحه

---

١ ـ النازعات ٤٠ ـ ٤١. ٢ ـ يوسف ٥٣.
٣ ـ الروم ٢٩. ٤ ـ القصص ٥٠.
٥ ـ الإحكام لابن حزم ١٩٧/٦. ٦ ـ المرجع السابق ١٩٨/٦.

فإن صحة القياس والاعتماد عليه قد استقر في التشريع الإسلامي وأجمع عليه الصحابة ومن بعدهم مدة طويلة من الزمان حتى جاء النظام وداود وبعدهما ابن حزم فأنكروا القياس، وهم بهذا ينكرون شيئا توافرت عليه الأدلة، وأسوق بعضها باختصار منبها المسلمين إلى خطأ ابن حزم في إبطال القياس والاجتهاد بالرأي.

أول هذه الأدلة : من الكتاب العزيز وهو قوله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾(١).

وجه الدلالة: أن القياس اعتبار، لأن الاعتبار مجاوزة من حال إلى حال، والقياس فيه مجازة من حال الأصل إلى حال الفرع.

والاعتبار مأمور به فيكون القياس مأموراً به وقد ورد على الاستدلال بهذه الآية اعتراضات كلها مدفوعة.

ثاني هذه الأدلة : من السنة النبوية، حديث(٢) معاذ: «لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، قال له: كيف تقضي؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله»؟ قال: فبسنة رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله»(٣).

قال الغزالي: هو مشهور تلقته الأمة بالقبول!

---

١ ـ الحشر ٢

٢ ـ حديث معاذ: قال الحافظ ابن حجر رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وأبو داود وابن عدي والطبراني والبيهقي: قال الترمذي: لا نعرفه إلامن هذا الوجه وليس عندي بمتصل. وذكر صاحب تحفة الأحوذي له سندا متصلا ٢/٢٧٦ تلخيص الخبير ٤/١٨٢. قال ابن العربي: والدين القول بصحته فإنه حديث مشهور: العارضة شرح ابن العربي للترمذي ٦/٦٩.

٣ ـ المراجع السابقة

ثالث هذه الأدلة: الإجماع من لدن الصحابة حتى جاء ابن حزم ومن معه وإجماع الصحابة حجة، لا ينازع فيها، والإجماع أقوى هذه الأدلة. وبيانه: أن الصحابة رضي الله عنهم، اتفقوا على استعمال القياس في الوقائع التي لا نص فيها من غير نكير من أحد منهم(١).

فمن ذلك رجوع الصحابة إلى إجتهاد أبي بكر رضي الله عنه في أخذ الزكاة من بنى حنيفة وقتالهم على ذلك.

وقياسهم خليفة رسول الله على الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك بواسطة أخذ الزكاة للفقراء وغيرهم ممن يستحقون الزكاة.

وغير هذا كثير(٢).

وهذا يكفي في صحة مذهب الجمهور في حجية القياس، وإبطال مذهب ابن حزم.

الدليل الثاني لابن حزم ما قاله مناقشا كلام الكرخي بأن الاستحسان أدق القياسين.

قال ابن حزم: إن كان ههنا قياس يوجب ترك قياس آخر ويضاده ويبطله، فقد صح بطلان دلالة القياس بإقراركم، وصح بالبرهان الضروري إبطال القياس كله جملة بهذا العمل، لأن الحق لا يتضاد ولا يبطل بعضه بعضا، ولا يضاد برهان برهانا أبداً...

وإذا أبطل بعض الشيء بعضا، فواجب أن يكون كله باطلا، لما قلنا من أن الحق لا يبطل بعض بعضا، فإذا شهد بعض القياس عندكم بإبطال بعض قياس آخر فنوع القياس كله متفاسد، مبطل بعضه بعضا، فهو كله باطل(٣).

أقول: وهذه بعض شبهه في إبطال القياس والاستحسان، لأنه يرى أن

---

١ - المستصفى ٢/٢٤٢.

٢ - الإحكام للآمدي ٤/٤٠.

٣ - الإحكام لابن حزم ٦/١٩٨.

القياس يبطل بعضه بعضا فيكون كله باطلا، وهذا كلام لا يصح لأن أقصى ما في الاستحسان أن يترجح قياس على قياس آخر، وترجيح قياس على قياس آخر ليس عملا بالهوى والتشهي، وإنما الترجيح بينهما له قواعده، وأصوله، التي تغلب قياسا على قياس آخر في ظن المجتهد، وقد اتفق العلماء ومنهم ابن حزم على ان المجتهد يجب عليه أن يعمل بما غلب على ظنه وكذا ما قطع بصحته من باب أولى(١).

المسألة الثالثة : في أدلة الجمهور على حجية الاستحسان

والكلام كما قلنا في الاستحسان الذي له دليل وسند من الشرع، أما الاستحسان المبنى على الهوى والتشهي فهو باطل لا يصح أن يذهب إليه أحد.

وإذا كان الاستحسان لابد له من سند ودليل، فالكلام في حجية دليله كلام في حجيته، ولكن لما كان له امتياز يمتاز به، لكونه لابد أن يكون في مقابلة القياس الأصولي أو قياس الأصول والقواعد العامة في الشريعة، ويكون في دليله قوة تجعله راجحا على غيره في صورة الاستحسان، أفرد له الأصوليون مكانا في أبحاثهم عند كلامهم على الأدلة المختلف فيها، وأقاموا الأدلة على حجيته ومنها :

أولاً : آيات وأحاديث تدل على اتباع كل ما هو حسن ومن ذلك :

١ ـ قوله تعالى. ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾(٢).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾(٣).

---

١ ـ الإحكام لابن حزم ٨/ ٦٣٢ عند كلامه على أقسام المجتهدين.

٢ ـ الآية ١٨ من سورة الزمر، وانظر كشف الأسرار للنسفي ٢٠/ ٢٩٨.

٣ ـ الآية ٥٥ من سورة الزمر.

٣ ـ قـوله صلى الله عليه وسلم: «مـا رآه المسلمون حسنا فهـو عند الله حسن»(١).

ونوقشت الآيات بأن المراد منهـا مـا حسنه الشرع في كتابه وسنة نبيـه ونحن معهم في هذا فـلا حسن إلا مـا حسنه الشرع ولا قبيح إلا مـا قبحـه والاستحسان المستند إلى دليل من الشريعة حسن شرعا فيجب جعله حجة، أما الاستحسان بالهوى والعقل المجرد عن الشريعة فهو مرفوض.

ونوقش الحديث بأن المراد به إجماع المسلمين على فرض صحته(٢).

أقـول: والحديث صحيح مع وقفه على ابن مسعـود فقد روى مـرفوعـاً وأمـا دلالته على حجيـة الإجماع فلا نمنعـه ولا يمنع هذا أن يدل على غيره مما حسنه الشرع وهو الاستحسان الذي يستند الى دليل شرعي .

ثانياً : واقع الشريعة :

فقد ثبت ان الشارع الحكيم عدل في بعض الوقائع عن موجب القياس، أو عن تعميم الحكـم، جلبـا للمصلحـة ودرءا للمفسـدة، فـإن اضطراد العمل بالقياس، أو تعميم الحكم في بعض الوقائع، قد يؤدي الى تفويت مصلحة الناس والإضرار بها، فمن العدل والحكمـة والتيسير، ومراعـاة مصالح الناس رحمة بهم، الحد من غلو القيـاس، وذلك بأن يفتـح للمجتهـد باب العـدول عن حكم القياس، أو حكم العموم إلى حكم آخر، يحقق المصلحة ويدفع المفسدة، بما يتفق ومقاصد الشرع الشريف، وما هذا إلا الاستحسان.

---

١ ـ هذا جزء من حديث رواه احمد في مسنده عن ابن مسعـود قال العجلوني في كشف الخفاء وهو مـوقـوف حسن وانظر تعليق الشيخ عبـدالرزاق عفيفي على إحكام الآمـدي ٤/١٥٦ وانظر الادلة المختلف فيها للدكتور خليفة بابكر ص ٢٥.

٢ ـ الإحكام لابن حـزم ٦/١٩٧ والمستصفى ٢/٢٨٠ ومنتهى الـوصـول والأمل لابن الحاجب ص١٥٥.

قال ابن رشد: الاستحسان طرح القياس الذي يؤدي إلى غلو في الحكم ومبالغة فيه، إلى حكم آخر في موضع يقتضي أن يستثنى من ذلك القياس(١).
وقال ابن الأنباري في الاستحسان: إنه استعمال مصلحة جزئية في مقابل قياس كلي(٢).

ولا أدل على عدول الشارع عن موجب القياس من إجازة السلم، إذ القياس يقتضي عدم جوازه، لأن المعقود عليه معدوم، وبيع المعدوم لا يجوز لقوله صلى الله عليه وسلم «.. ولا بيع ماليس عندك»(٣).

لكن الشارع أجازه مراعاة لمصلحة الناس لقوله صلى الله عليه وسلم، «من أسلف في ثمر فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»(٤).

ثالثاً : الإجماع ونتكلم عنه في نقطتين :

النقطة الأولى : مسائل مبنية على الاستحسان مجمع عليها من القائلين بالقياس وغيرهم.

النقطة الثانية : عمل كل واحد من الأئمة الأربعة في مسائل بالاستحسان مما يدل على أن مبدأ العمل بالاستحسان متفق عليه.

النقطة الأولى : أجمعت الأمة على جواز دخول الحمام والمكث فيه، من غير تقدير أجرة وعوض للماء، ولا تقدير مدة المكث في الحمام.

---

١ ـ ينقل عنه الشاطبي في الاعتصام ٢/١٣٩: الاستحسان الذي يكثر استعماله حتى يكون أعم من القياس هو أن يكون طرحا لقياس يؤدي إلى غلو في الحكم ومبالغة فيه فيعدل عنه في بعض المواضع لمعنى يؤثر في الحكم يختص به ذلك الموضع.

٢ ـ نقله عنه الزركشي في البحر ٦/٨٩ والشنقيطي في نشر البنود ٢/٢٥٦.

٣ ـ رواه الخمسة وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم عن عمر وبن شعيب عن أبيه عن جده سبل السلام ٣/١٦.

٤ ـ سبق تخريجه وراجع في هذا الدليل أصول الفقه للشيخ زكريا البرديسي ص ٣١٥.

وكذلك شرب الماء من يد السقا من غير تقدير عوض ولا مقدار الماء المشروب فاستحسنوا ترك ذلك على خلاف قاعدة البيع والإجارة(١).

يضاف إلى ذلك ما سنذكره من أمثلة للاستحسان المتفق عليها وكلها توجب أن يكون الاستحسان حجة وذلك في الاستحسان المبنى على أدلة الشريعة أما الاستحسان المبنى على ميل القلب دون أن يساعده دليل شرعي فأحذر المتطاولين على الفقه من سلوك دروبه فهي خطرة وعرة تخرجهم من ربقة الشريعة.

اعتراض : واعترض على هذا بأن الدليل على صحة هذا هو جريان ذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مع علمه به، وتقريره لهم عليه رفعا للحرج والمشقة(٢).

الجواب : وهذا الاعتراض لا يمنع كونه استحسانا ولا يمنع حجية الاستحسان كل ما هناك أن يكون دليل الاستحسان هو السنة النبوية التقريرية من النبي صلى الله عليه وسلم، بدلا من أن يكون ثابتا بطريق العادة.

ولو سلمنا أنه ثابت بطريق العادة، فالعرف والعادة المستقران من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليه جميعا، دليل من أدلة الشرع، وقد خصص به قاعدة عامة من قواعد البيع والإجارة.

وفي هذا تحقيق لمعنى الاستحسان المستند إلى دليل من أدلة الشريعة، ولم ينكر الحكم هنا أحد من الفقهاء، وإن سماه البعض اسما آخر، غير الاستحسان، فلا يضر الخلاف في التسمية مادام المعنى متفقا عليه.

---

١ ـ الإحكام للآمدي وسماه الإطلاق ٤/ ١٥٧ والمستصفى ١/ ٢٨٠ والاستحسان للدكتور سيد صالح ٧٢.

٢ ـ أورده اعتراضا الدكتور سيد صالح في كتابه الاستحسان ص ٧٢.

النقطة الثانية :

استعمال لفظ الاستحسان ومعناه عند الأئمة الأربعة مما يجعل مبدأ الاستحسان يكاد يكون متفقا عليه.

فإنا إذا نظرنا في فقه هؤلاء الأعلام ومن قبلهم من السلف الصالح لرأيناهم يستعملون لفظ الاستحسان، ويفهمون معناه، ويبنون الأحكام عليه، كما أرشدهم الله إليه في كتابه، وأرشدهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته.

وسيأتي لهذه النقطة بيان وتفصيل في بحث قادم إن شاء الله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

ثبت المراجـــع :

١ ـ الإبهاج للسبكى وولده تاج الدين على منهـاج البيضـاوي ٦٨٥ دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٠٤/١٩٨٣.

٢ ـ الاجتهاد فيما لا نص فيه للدكتور طيب خضري مكتبة الحرمين الرياض ط أولى ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣.

٣ ـ الإحكام لابن حزم ت ٤٥٦ دار المعرفة بيروت مصورة بدون.

٤ ـ الإحكام للآمدي ت ٦٣٦ مؤسسة النور بالرياض أولى بدون تعليق الشيخ عبدالرازق عفيفي.

٥ ـ إحكام الفصـول للبـاجي ت ٤٧٤ دار الغـرب الإسـلامي ط أولى ١٤٠٧ ـ ١٩٨٦.

٦ ـ الأدلة المختلف فيهـا للدكتـور خليفة بابكـر مكتبة وهبـة ط أولى ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧.

٧ ـ الاستحسان للدكتور سيد صالح ط أولى ١٤١٠ ـ ١٩٩٠ مستل من العدد الخامس من مجلة كلية الشريعة بالقاهرة.

٨ ـ الاعتصام لابي اسحق الشاطبي ت ٧٩٠ المكتبة التجارية بدون.

٩ ـ الأم للشافعي طبعة الشعب القاهرة.

١٠ ـ البحـر المحيط للـزركشي تحقيق الدكتـور عبـدالستـار أبو غـدة وزارة الأوقاف الكويتية.

١١ ـ تاج العروس للمرتضى الزبيدي دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤.

١٢ ـ التلخيص لإمـام الحرمين. ت ٤٧٨ مكتبة دار الباز بمكة المكـرمة ط أولى ١٤١٧ ـ ١٩٩٦.

١٣ ـ تلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني تحقيق د/ شعبان إسماعيل مكتبة الكليات الأزهرية بدون.

١٤ ـ جمع الجوامع بحاشية العطار دار الكتب العلمية بيروت بدون.

١٥ ـ روضة الناظر لابن قدامة المطبعة السلفية الطبعة الخامسة ١٣٩٥ هـ.

١٦ ـ الرسالة للشافعي تحقيق الأستاذ أحمد شاكر دار الكتب العلمية بيروت بدون.

١٧ ـ سبل السلام للصنعاني شرح بلوغ المرام لابن حجر ت ٨٥٢ مكتبة مصطفى البابي الحلبي بدون.

١٨ ـ شرح العضد لمختصر ابن الحاجب المطبعة الكبرى الأميرية ١٣١٦ هـ.

١٩ ـ شرح الكوكب المنير مطبوعات جامعة أم القرى بمكة المكرمة أولى ١٤٠٨ ـ ١٩٨٧م.

٢٠ ـ شرح ابن العربي للترمذي دار الفكر العربي بيروت بدون.

٢١ ـ الصحاح للجوهري تحقيق أحمد عبدالغفور عطار دار العلم للملايين أولى ١٣٥٦ ـ ١٩٧٦.

٢٢ ـ صحيح مسلم بشرح النووي طبع على نفقة سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم دار أبي حيان بالقاهرة ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٣ ـ طلعة الشمس للسالم الإباضي مطبوعات سلطنة عمان.

٢٤ ـ القاموس المحيط للفيروز ابادي دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

٢٥ ـ كشف الأسرار للنسفي على المنار مكتبة عباس الباز بمكة المكرمة أولى ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦.

٢٦ ـ كشف الأسرار للبخاري على أصول البزدوي تعليق محمد المعتصم ط ثانية ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤.

٢٧ ـ فتاوي ابن تيمية ٧٢٨ دار الفكر لبنان ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣م.

٢٨ ـ لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت بدون.

٢٩ ـ المبسوط للسرخسي مطبعة السعادة ١٣٢٤ هـ.

٣٠ ـ المحصول للرازي ت ٦٠٦ دار الكتب العلمية بيروت أولى ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨م

٣١ ـ مسودة آل تيمية دار الكتب العلمية بيروت بدون تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.

٣٢ ـ المستصفى للغزالي ت ٥٠٥ المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق ١٣٢٤ هـ.

٣٣ ـ المعتمد لأبي الحسين البصري ت ٤٣٦ طبعة المعهد الفرنسي دمشق ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥.

٣٤ ـ منتهى الوصول والأمل لابن الحاجب مطبعة السعادة أولى ١٣٢٦ هـ.

٣٥ ـ نشر البنود على مراقي السعود للشنقيطي دار الكتب العلمية بيروت أولى ١٤٠٩ ـ ١٩٨٨.

٣٦ ـ نفائس الأصول للقرافي مكتبة نزار الباز مكة المكرمة أولى ١٤١٦ ـ ١٩٩٥.

تم بحمد الله



دور مدرسة القيروان «في تطوير الفقه المالكي»

أ. د. خليفة بابكر الحسن *

مدخل :

تعتبر المدرسة المالكية بالقيروان واحدة من المدارس المالكية المعروفة. ذلك أن المذهب(١) المالكي نشا على يد الامام مالك في المدينة في القرن الهجري الثاني مؤسساً على طريقة أهل المدينة التي ورثها الامام منحدرة إليه من شيوخه المدنيين ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان (ت ١٣٠هـ) وربيعة بن أبي عبد الرحمن الملقب بربيعة الرأي (ت ١٣٦هـ) ويحيى بن سعيد الأنصاري (ت ١٤٣هـ) الذين أخذوا بدورهم عن الفقهاء السبعة الذين كانوا في طليعة فقهاء الأمصار في عصرهم يقول الامام مالك: «سمعت ابن شهاب يقول جمعنا هذا العلم من رجال في الروضة وهم سعيد بن المسيب وأبو سلمة. وعروة والقاسم. وسالم. وخارجة وسليمان ونافع ثم نقل عنهم ابن هرمز وأبو الزناد وربيعة والأنصاري وبحر العلم ابن شهاب»(٢).

---

* وكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية ـ دبي

١ ـ المذهب مصطلح يطلق على ما ذهب إليه امام من الائمة في الاحكام بحسب طريقته في الاجتهاد والاستنتاج والاستنباط، وعند المتاخرين يطلق على ما به الفتوى فيقولون المذهب في المسألة كذا ـ راجع محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي للأستاذ عمر الجنيدي ص ٧

٢ ـ ترتيب المدارك للقاضي عياض ٢ : ٢٠ ـ طبعة الشمال الأفريقي بالرباط ١٩٦٥.

والأصول التي اعتمد عليها الفقهاء السبعة هي مرويات الصحابة عن المعلم الأول الرسول الكريم المبلغ عن ربه والمبين بقوله وفعله واقراره لما جاء في المصدر الأول «القرآن الكريم» بالاضافة إلى فتاواهم واجتهاداتهم. وأهم الصحابة الذين اختصوا بالمدينة ـ في هذا الصدد ـ هم عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر والسيدة عائشة رضي الله عنهم جميعاً.

وفي هذا الاختصاص يقول الامام مالك ايضاً: «كان أعلم الناس عندنا بعد عمر زيد وكان امام الناس عندنا بعده ابن عمر وكان سعيد بن المسيب جل ما يفتي به من فتاوي زيد...»(١).

من هذا التسلسل كله انبثقت الطريقة المدنية التي تربى الامام مالك في كنفها وتشرب من روحها وهي طريقة يتمثل منهجها عند الامام مالك ـ في الاعتماد على القرآن الكريم ثم حديث الرسول ﷺ فسنة أهل المدينة التي تأخذها كل طبقة عن الطبقة الأخرى وقضاياهم وعملهم المستمر المجمع عليه الموروث من لدن عصر الرسول ﷺ وهو ما يعبر عنه الامام مالك دائماً في موطئه بالسنة عندنا أو السنة التي لا اختلاف فيها عندنا(٢).

تضاف إلى ذلك ترجيحاتهم في مواطن الاختلاف. وفي وصف هذا المنهج يقول الدهلوي في حجة الله البالغة: «وكان سعيد بن المسيب وأصحابه يذهبون إلى أن أهل الحديث أثبت الناس في الفقه وأصل مذهبهم فتاوي عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس وقضايا قضاة المدينة فجمعوا من ذلك كله ما يسره الله لهم ثم نظروا فيه نظر اعتبار وتفتيش فما كان مجمعاً عليه بين العلماء في المدينة فإنهم يأخذون عليه بنواجذهم وما كان فيه اختلاف بين علماء المدينة. فإنهم يأخذون بأقواها وأرجحها: إما لكثرة من ذهب إليه منهم أو لموافقته

١ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٤٤٨ مطبعة روضة الشام ١٣٣٢ هـ. وانظر حجة الله البالغة للدهلوي ١ : ١١٤ ـ الطبعة الأولى الخيرية ١٣٢٢ هـ.

٢ ـ راجع الموطأ بشرح السيوطي ص ١٤٦، ١٤٨، ١٨٩، ١٩٢، ٢٠٦/ الجزء الأول وص ٣٤، ١٠٣، ٢٠٥/ الجزء الثاني طبعة المكتبة التجارية.

لقياس قوى أو تخريج صريح من الكتاب والسنة فحصل لهم مسائل كثيرة في كل باب(١).

وقد التزم الامام مالك في فقهه ذات المنهج الذي ورثه عن شيوخه ومدرسته بعد أن قوّمه وشذبه وضم منشوره فكان يعتمد في فتاواه على القرآن الكريم وعلى الحديث وعلى اجماع أهل المدينة وعلى فتاوي الصحابة والتابعين وجملة من سبقه من فقهائها وإذا اختلفوا كان يتخير من أقوالهم ويرجح وهو الذي يقول في مثله في الموطأ هذا أحسن ما سمعت أو أحب ما سمعت إلي»(٢).

ولا يخالج الباحث شك في أن هذا المنهج المدني الثابت والآخذ في التطور ـ في ذات الوقت ـ من خلال فكرته وروحه في اطار معطيات الزمان والمكان ـ هو الذي أكسب الامام مالكاً الموسوعية حيث جمع في معرفته بين الحديث النبوي والسنة المدنية الموروثة فضلاً عن المقدرة الفقهية والفهم النافذ الذي يواجه به قضايا الناس ومسائلهم ثم أكد ذلك بطريقته في دروسه حيث كان له مجلس للحديث وآخر للفقه والمسائل ثم أودع كل ذلك في مصنفه المشهور «الموطأ» الذي جمع فيه ببراعة وتوازن بين الحديث والفقه وضمنه آراءه واستنباطاته وترجيحاته مع ما ضمنه من محفوظه من أحاديث الرسول ﷺ وآثار الصحابة.

هذا وقد كان لتلك الموسوعية التي اكتسبها الامام مالك من منهجه وطريقته المدنية في الجمع بين الحديث والفقه دور كبير في كثرة تلاميذه والآخذين عنه بالاضافة إلى عوامل أخرى نفصلها جميعاً على الوجه الآتي:

١ ـ تعدد مجالس الامام مالك العلمية وهو تعدد كان سبباً في كثرة تلاميذه لأن بعضهم كان يقصده للحديث. وبعضهم كان يقصده للفقه

---

١ ـ حجة الله البالغة ١ : ١١٤.

٢ ـ المرجع السابق ١ : ١١٦.

وبعضهم كان يقصده للأمرين مجتمعين(١).

٢ ـ لزوم الامام مالك للمدينة لا يبرحها الا لمكة حاجاً هذه الملازمة كانت هي الأخرى ـ عاملاً من العوامل التي ساعدت في كثرة تلاميذه. لأن المدينة كانت مقصد المسلمين ومزارهم بعد حجهم أو اعتمارهم. وكما ساعد هذا العامل في كثرة تلاميذ الامام مالك فقد ساعد أيضاً في تنوعهم من جهة أن بعضهم كان من داخل المدينة وكثيراً منهم كان من خارجها.

٣ ـ طول المدة التي مكثها الامام مالك يدرس الحديث والفقه حيث قضى نحوا من أربعين سنة وهو على تلك الحال الطيبة في مجلسه المهيب. ولا ريب في أن طول المدة يؤدي إلى كثرة التلاميذ وتكاثفهم وتعاقب الأجيال في الأخذ والتلقي(٢).

٤ ـ تنوع وسائل وطرق التلقي عن الامام مالك وهي وسائل اتسمت بالسعة والمرونة وضمت إلى التلقي المباشر المراسلات بينه وبين تلاميذه من البلدان البعيدة والنائية عن المدينة. قال سحنون «كنت عند ابن القاسم وجوابات مالك ترد عليه»(٣) وقال ابن الحارث عن ابن فروخ: «كان من شيوخ أفريقية وممن رحل إلى مالك فسمع منه وكان يكاتبه ويجاوبه مالك»(٤) واشتهر عن ابن غانم أنه كان يكتب إلى عثمان بن عيسى بن كنانة فيسأل له مالكاً عن أحكامه»(٥).

والعامل الأخير الذي يمكن اضافته إلى جملة العوامل السابقة في كثرة

١ ـ اصطلاح المذهب عند المالكية بحث منشور في مجلة البحوث الفقهية المعاصرة للدكتور/ محمد إبراهيم أحمد علي عدد (١٥) السنة الرابعة ص ٥٣.

٢ ـ راجع بحث الدكتور عبد المجيد التركي عن رواة موطأ مالك وعلماء القيروان في ملتقى القيروان مركز علمي مالكي بين المشرق والمغرب حتى القرن الخامس للهجرة ص ٨٩.

٣ ـ تراجم اغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض تحقيق محمد الطالب ص ٨٩.

٤ ـ المرجع السابق: ٤٠.

٥ ـ طبقات علماء افريقية وتونس: ٤١ وتراجم أغلبية ٧٧.

تلاميذ الامـام مالك والآخـذين عنه الصلة الروحية الحميمة التـي كانت تربط بين ذلك الامام الورع وبين تلاميذه ومريديه حكى الطحاوي أن ابن فروخ قدم المدينة فلبس ثيابـه فاتى قبر النبي ﷺ فسلم عليه ثم أتى مـالكاً فلما رآه تلقاه بالسـلام وقـام إليـه وكان لا يكاد يفعـل ذلك بكثير من الناس. ثم أفسح له في المجلس بجانبه كما وجه إليه المسـائل التي كانت ترد عليه للاجابة فيها وأخيرا التفت إلى اصحابه وقال هذا فقيه المغرب(١).

وفي موقف آخر اتى سائل من المغرب بمسائل فطلب مالك من ابن فروخ أن يجيب عليهـا: «اجبهم يا أبا محمـد فـإنهم أهل بلدك فقـال له ابـن فـروخ بحضرتك قال نعم: عزمت عليك»(٢).

واشتهر ان الامام مالكاً كـان يجل ابن غانم من فقهاء القيروان وإذا جاء أقعده إلى جـانبه وسـاله عن أخبـار المغرب وتبـاسط معه لدرجـة أن أصحاب الامام مـالك الآخرين كانوا يغارون من ذلك ويقـولون شغله المغربي عنا. ولما بلغه توليـه للقضاء سر لذلك بل يقـال إن الامام مـالكاً عرض عليـه أن يزوجه ابنتـه على أن يقيم معـه فـامتنع مـن ذلك وقـال له إن اخـرجتهـا إلى القيروان تزوجتها(٣).

لا شك أن مثل هذه الصلة الـروحيـة الطيبـة والحنو والحب الذي كـان يسبغه الامام مالك على تلاميذه كان له دور في كثرة اولئك التلاميذ وتعلقهم به في ذات الوقت.

هذا ولعل مما يستـوجب التنبيه هنا أن هذه الصفـة معروفـة عن الامام

---

١ ـ تراجم أغلبية : ٤٢.

٢ ـ راجع بحث للكاتب عن «الصلات الفقهيـة، بين القيروان والمدينة المنورة» قدم في الملتقى العلمي الثالث الذي عقد بمركز الدراسات الإسلامية بالقيروان بتونس.

عن «القيروان مركز علمي مالكي» ص ١٨، ٢٠.

٣ ـ تراجم أغلبية : ١٠.

مالك ليس فقط مع تلاميذه وإنما مع أقرانه ومعاصريه الذين كانوا يخالفونه الرأي في بعض الأحوال فإن ذلك الخلاف لم يفسد أبداً ذات البين بينه وبينهم فرسالته لليث بن سعد في شأن النزاع حول عمل أهل المدينة رسالة تنضح بالأدب والحب والمودة: «من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا أله إلا هو. أما بعد عصمنا الله واياك بطاعته في السر والعلانية وعافانا واياك من كل مكروه(١) الخ الرسالة».

وعن أدب مالك ومروءته: قال ابن وهب «تعلمنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه»(٢).

وقال ابن المبارك: كان مالك أشد الناس مدارة للناس وترك ما لا يعنيه(٣). قال ابن أبي أويس: كان مالك يستعمل الانصاف ويقول: ليس في الناس أقل منه فأردت المداومة عليه(٤).

وقال زهير بن عباد: ما كنت أقول لمالك رحمك الله الا قال: وأنت رحمك الله. وإذا قلت له عافاك الله قال: وأنت عافاك الله حسن أدب(٥).

وعلى كل حال فان تلك العوامل أثمرت وأدت إلى كثرة تلاميذ الامام مالك وظهور اثره الممتد بعده في مدارس عرفتها بقاع متعددة: المدينة نفسها(٦).

---

١ ـ الرسالة بتمامها في ترتيب المدارك.

٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ راجع ترتيب المدارك ١ : ١٢٧، ١٢٨ طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية.

٦ ـ من تلاميذ الامام مالك في المدينة الذين أخذوا عنه مباشرة وعنهم تفرعت مدرسته المدنية ١ ـ ابو حازم سلمة بن دينار (ت ١٨٥ هـ) وابو محمد عبد العزيز الدراوردي (ت ١٨٦ هـ) وابو محمد عبد الله بن نافع المعروف بابن الصائغ (ت ١٨٦ هـ) والمغيرة المخزومي مفتي المدينة بعد مالك (ت ١٨٨ هـ) ومعن بن عيسى القزاز (ت ١٩٨ هـ) وعبد الملك بن عبد العزيز الماجشون (ت ٢١٢ هـ) وعبد الله بن نافع (ت ٢١٦ هـ) وابو مطرف بن عبد الله الهلالي (ت ٢٢٠ هـ) وعبد الله بن نافع (ت ٢١٦ هـ) وابو مطرف عبد الله الهلالي (ت ٢٢٠ هـ) وعبد الله بن مسلمة بن قعنب التميمي المعروف بالقعنبي (ت ٢٢١ هـ).

ومصر(١) والعراق(٢) والأندلس(٣) والقيروان.

وقد كان النواة لتلك المدارس تلاميذه الآخذون عنه ثم تفاعلت كل واحدة منها مع البيئة والظروف التي تقلبت فيها فكان لها أسلوبها ومنهجيتها.

المدرسة القيروانية تاريخها وخصائصها:

انشأ المدرسة المالكية بالقيروان وأرسى دعائمها المحدثون والفقهاء الذين رحلوا للامام مالك وأخذوا عنه بالمدينة اثناء حياته وتشير المصادر التاريخية إلى أن عدد الأفارقة الذين أخذوا عن الامام مالك في تلك الفترة كان يربو على الثلاثين. وفي هذا يقول محمد بن الحارث الخشني «كانت أفريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس لأنه رحل أكثر من ثلاثين رجلاً كلهم لقى مالكاً وسمع منه وان كان الفقه والفتيا في قليل منهم»(٤).

ومن الذين يمكن ذكرهم في هذا الصدد عبد الله بن فروخ الفارسي (ت ١٧٦ هـ) والبهلول بن راشد (ت ١٨٣ هـ) وعلي بن زياد التونسي (ت ١٨٣ هـ) وابو علي شقران القيرواني (ت ٢١٣ هـ) وعنبسة بن خارجة الغافقي (ت

---

١ ـ ومن تلاميذه في مصر عبد الرحمن بن القاسم العتقي (ت ١٩١ هـ) وعبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) وأشهب بن عبد العزيز (ت ٢٠٤ هـ) وعبد الله بن عبد الحكم بن أعين (ت ٢١٤ هـ) وعبد الرحمن بن أبي جعفر الدمياطي (ت ٢٢٧ هـ).

٢ ـ وفي العراق أبو أيوب سليمان بن بلال قاضي بغداد (ت ١٧٦ هـ) وعبد الله بن المبارك (ت ١٨١ هـ) وعبد الرحمن بن مهدي المحدث (ت ١٩٨ هـ) والوليد بن مسلم بن السائب (ت ١٩٩ هـ) ويحيى بن يحيى بن بكير (ت ١٢٦ هـ).

٣ ـ وفي الاندلس زياد بن عبد الرحمن القرطبي المعروف بشبطون (ت ١٩٣ هـ) وأبو محمد الغازي قيس الأموي القرطبي (ت ١٩٩ هـ) وعبد الله بن سعيد بن بشر بن شراحيل القاضي (ت ١٩٨ هـ) ويحيى بن يحيي الليثي المصمودي راوي الموطأ (ت ٢٣٤ هـ) وعيسى بن دينار ابن وهب القرطبي (ت ٢١٢ هـ) راجع بحث «المذهب المالكي مؤسسه وأصوله وانتشاره» للأستاذ الدكتور محمد أبو الأجفان بحث مرقوم على الآلة الكاتبة ص ٢٧ ـ ٢٩.

٤ ـ تراجم أغلبية : ٩٣.

٢٢٠ هـ) وعبد الله بن أبي حسان اليحصبي (ت ٢٧٧ هـ) وعبد الرحيم بن أشرس (لم يذكر تاريخ وفاته).

لقد عاد اولئك الفقهاء بعد أخذهم عن الامام مالك وهم يحدثون بالأحاديث التي رواها ويفتون بما سمعوا منه من آراء في القضايا والمسائل الفقهية كما روى بعضهم عنه الموطأ.

وقد كان اداؤهم لهذا الدور عن طريق الدروس والرواية والتصنيف والقضاء بحسب ملكاتهم في ذلك. وعنهم أخذ تلاميذهم وبذلك تمكن الفقه المالكي في القيروان وازدهر وبخاصة خلال القرون الثالث والرابع والخامس على يد فقهاء طار صيتهم في العالم الإسلامي كله كسحنون بن سعيد التنوخي (ت ٢٤٠ هـ) ومحمد بن سحنون (ت ٢٥٥ هـ) ومحمد بن عبدوس (ت ٢٦٠ هـ) وأبو بكر محمد بن اللباد (ت ٣٣٣ هـ) وابن ابي زيد القيرواني (ت ٣٨٦ هـ) والقابسي (ت ٤,٣ هـ) وأبو القاسم بن محرز القيرواني (ت ٤٥٠ هـ) واللخمي (ت ٤٧٨ هـ).

وبالجملة فان الفقه المالكي تمكن في القيروان حتى غدت المركز الثاني له بعد المدينة بل أن مدرسة القيروان استمرت بعد مدرسة المدينة لأن المدرسة المدنية المالكية ضعف شأنها في الطبقات التالية للطبقة الآخذة عن الامام مالك.

ولم يقتصر شأن مدرسة القيروان على ازدهار الفقه فيها فقط وانما تبع ذلك أن كانت ذات أثر في مدرستين كان لهما خطرهما ودورهما المقدر في خدمة المذهب المالكي وهما مدرسة الأندلس ومدرسة فاس كما نبغ فيهما فقهاء لهم مكانة مرموقة في المذهب المالكي يقول محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي وهو يتحدث عن محمد بن سحنون: «ويقال في المذهب المالكي المحمدان الافريقيان له ولمحمد بن عبدوس والمحمدان المصريان محمد بن عبد الحكم ومحمد بن المواز. والجميع كانوا في عصر واحد ولم يجتمع مثلهم في عصر لمذهب مالك.

وهؤلاء السادات أشهر من نشر علم مالك في افريقية وصقلية رحمهم الله(١).

خصائص المدرسة المالكية بالقيروان:

تدين المدارس المالكية التي سلفت الاشارة إليها والتي غطت كل حواضر العالم الإسلامي التي كانت متالقة ابان ظهورها تدين في خصائصها وطرقها إلى طبيعة المذهب المالكي الخصبة المتمثلة في كثرة مصادره وتنوع ينابيع فقهه من اعتماد على الحديث وعمل أهل المدينة واهتداء بمقاصد الشريعة في تحقيق المصالح ودرء المفاسد عن طريق قاعدتي المصالح المرسلة وسد الذرائع وهما قاعدتان لهما الكثير من التطبيقات في فقه الامام مالك نفسه في الموطأ. هذا فضلاً عن بعض الخصائص الاخرى التي اكتسبتها كل مدرسة من طبيعة وظروف البيئة التي نشأت وترعرعت فيها وانفعلت بثقافتها واطروحاتها.

في اطار ذلك كانت مدرسة المدينة المالكية ملتزمة الاعتماد على الحديث على حين كانت المدرسة العراقية ذات منهج يعتمد على الرأي متأثرة في ذلك بالبيئة التي سادت فيها: «ولهذا مالت إلى التحليل المنطقي والاستدلال الاصولي وذلك بافراد المسائل وتحرير الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر من الاصوليين»(٢)

أما المدرسة المصرية فقد اتسم منهجها في عمومه بالاعتماد على الحديث وعمل أهل المدينة أو السنة الأثرية بالمدينة على أن فقهاءها قد تمايزوا داخل ذلك الاطار حيث أن بعضهم كان يرى تقديم الأحاديث الصحيحة على العمل وهم في ذلك على طريقة المدرسة المالكية المدنية ومن هؤلاء ابن وهب. في حين

---

١ ـ الفكر السامي لمحمد بن الحسن الحجري الثعالبي الجزء الثاني القسم الثالث ص ١١٩ حقق نصوصه أيمن صالح شعبان ـ طبعة دار الكتب العلمية ببيروت ـ لبنان.

٢ ـ ازهار الرياض ٣ ٢٢ وبحث عن اصطلاح المذهب عند المالكية منشور بمجلة البحوث الفقهية المعاصرة العدد (٢٢) ص ٥٥.

كان أكثرهم على اعتماد الأحاديث التي يؤيدها ويشهد لها عمل أهل المدينة وعلى رأس هذه الأكثرية امام هذه المدرسة عبد الرحمن بن القاسم العتقي (ت ١٩١ هـ).

وعلى ذات الطريقة كانت المدرسة القيروانية التي تميزت بانتهاجها لطريقة الامام مالك في الموطأ فهي طريقة ـ كما يقول الشيخ الشاذلي النيفر «انبنت على فقه الموطأ المؤسس على الدعائم الصحيحة من الحديث والآثار وغير ذلك مما وقف عليه مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ وبنى عليه مذهبه المدعم بما عليه الجماعة بالمدينة المنورة لأنها هي التي يجب أن يرد إليها الأمر فإذا اجتمع أهلها على شيء واتبعهم الناس في ذلك صلح الأمر والا تبدد شذر مذر»(١).

هذا ومع تميز المدرسة القيروانية بهذه الخصيصة وهي خصيصة الحفاظ على المذهب المالكي بحسب الصورة التي جاء بها عن الامام نفسه أو بالاحرى الحفاظ على الطريقة المدنية نفسها في امتداداتها الأولى رغم تميز الطريقة القيروانية بذلك الا أنها عرفت بعض الفقهاء الذين كانت لهم نزعات نحو الراي كعبد الله بن فروخ وأسد بن الفرات الا إن تلك النزعات غالباً ما ترد إلى الطريقة المدنية الصحيحة كما فعل سحنون مع آراء أسد بن الفرات التي تضمنتها الأسدية والتي سوف يشير البحث إليها في صفحاته القادمة إن شاء الله.

دور المدرسة القيروانية في تطوير فقه المسائل في المذهب المالكي:

فقه المسائل أو أدب المسائل هو عبارة عن الفقه الاستنباطي لايجاد أحكام وفتاوي في المسائل التي تعرض للناس في حياتهم. وهذا النمط من

١ ـ موطأ الامام مالك قطعة منه برواية علي بن زياد تقديم وتحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر ص: ٤٦.

المعالجة الفقهية قديم في مدرسة المدينة وفي ذلك يروي أن عبد الرحمن ابن أبي الزناد جمع فتاوي الفقهاء السبعة في كتاب سماه «رأي الفقهاء السبعة وما اختلفوا فيه»(١) وأن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فعل ذلك أيضا لكنه اقتصر على ما اتفقوا عليه»(٢).

ويبدو ـ والله اعلم ـ أن الفقهاء السبعة كانت تدفعهم لذلك الظروف العملية حيث أن القضاة كانوا يرجعون إليهم فيما يعرض عليهم من قضايا وينتظرون رأيهم فيها فكان ذلك حافزاً يحثهم على التفريع لاعطاء راي في المسالة المعروضة عليهم. وقد وصف عبد الله بن المبارك شأنهم في ذلك فقال «وكانوا إذا جاءتهم المسألة دخلوا فيها جميعاً فنظروا ولا يقضي القاضي حتى يرفع اليهم فينظرون فيها فيصدرون»(٣).

وسوف ندرس تطور فقه المسائل في المدرسة المالكية القيروانية وفق التسلسل الآتي:

أولاً: فقه المسائل في الأدوار الأولى لمدرسة القيروان:

عرف أهل القيروان فقه المسائل في الأدوار الأولى لمدرستهم قبل ظهور مذهب مالك. وقد كان ذلك امتداداً لطريقة الفقهاء السبعة التي سلفت الاشارة إليها. ولعل أجلى ما يتضح فيه مسلكهم ذلك سعي خالد بن أبي عمران التجيبي الذي بعثوه بجملة من المسائل ليسأل أهل المدينة عن الحكم فيها فأتى بها القاسم بن أبي بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر يسألهما فأبيا أن يجيباه فقال لهما: «إنا بموضع جفاء وأنهم حملوني هذه المسائل وقالوا لي إنك

---

١ ـ الفهرست لابن النديم : ٣١٥.

٢ ـ الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٢ : ١١٣.

٣ ـ تهذيب التهذيب ٣ ٤٣٧ ومقدمة الشيخ الشاذلي النيفر لتحقيقه قطعة من رواية علي بن زياد للموطا ص ١٨.

تقدم المدينة وبها ابناء أصحاب النبي ﷺ فسلهـم لنا وإنكما إن لم تفعلا كانت حجـة لهم فما شئتم فقـال القـاسم سـل. فسألهما فأجـاباه فيما سألهما عنه»(١).

وتذكـر المصـادر التـاريخية أيضـا أن ابن أبي عمـران هذا أخـذ بعض المسـائل الفقهيـة عن سليمان بن يسـار (ت ١١٠ هـ) من الفقهـاء السبعـة بالمدينة(٢). بل وتذكـر أن له كتـاباً كبيراً في الفقـه جمع فيه مـا استفـاده من القاسم وسالم وسليمان(٣).

هذا وقـد يكون ذلك الكتـاب هو نفس الأجوبة التـي تلقاها على المسـائل التي قدم بها مـن القيروان. وقد يكون مشتملاً عليهـا وعلى غيرها لكنه ـ في كل الأحـوال ـ يمثـل اللبنة الأولى في فقـه المسـائـل عند القيروانيين كما أنه يعكس اهتمامهم بالجانب العملي الذي تضطرهـم إليـه ظروف بعـدهم عن المدينة مع حاجاتهم الملحة للأحكام في القضـاء وللفتوى في شئون الحياة. ولعل مما يؤيد ذلك أن خـالد بن أبي عمـران الذي تولى عبء حمل المسـائـل المشار إليهـا تولى القضاء في القيروان في زمنه كما تذكر بعض المصادر. أما مباشرته للفتوى فإن المصادر مجمعة عليها(٤).

ثانياً: فقه المسائل عند علي بن زياد:

أعقب خالـداً في الاهتمام بفقه المسائل تلميـذه علي بن زياد (ت ١٩٠ هـ) الذي كـان صـاحب ملكة فقهيـة نادرة سـاعـدته في التعـريف بمـذهب مـالك

١ ـ طبقات أبي العـرب ٣٤٦ ومقدمة الشيخ النيفر لتحقيق قطعـة من رواية علي ابن زياد للموطأ ص ١٩

٢ ـ مقدمة الشيخ الشاذلي ص ٢٠.

٣ ـ المرجع السابق والصفحة.

٤ ـ راجع في ولايته للقضاء والاختـلاف فيها مقدمة الشيخ الشاذلي النيفر السـابق الاشارة إليها ص ٢١.

والكشف عن أصوله. وجعلتـه ـ بحق ـ مؤسساً للمدرسـة المالكية القيروانية. وفي هذا المعنى يقول الشيخ الشاذلي النيفر: «فالتكوين الاول للمالكية بافريقية إنما هو لعلي بن زياد إذ فتـح الاعين على مـالك وعـرفهم فضلـه وبين أصـوله للناس فالجسر الطويل الذي مر به رجال المدرسة المالكية من بعد انما هو لابن زياد فـالبـذرة الأولى التي بذرت من مـذهب مـالك هو الذي وضعهـا في التربة الصالحة ولو أن مـالكاً رزق مثله في الشرق لعمت المالكية المشرق مثـل ما عمت المغرب»(١).

والعامل الأول في تكوين علي بن زياد وتمتعه بتلك الفقاهة النادرة يرجع إلى تعـدد المنابع التي استقى منها فـابن زياد تتلمذ لخالد ابن ابي عمـران كما سلفت الاشـارة. وخالد كـان من الفقهـاء المبكرين الآخذين عن فقهـاء المدينة السبعة الذين أخذ عنهم الامام مالك نفسـه كما هو معلوم. وتتلمذ للامام مالك وروى عنه الموطأ وكانت روايته له أول رواية ظهـرت على ظهر الأرض. فضلاً عن ذلك فقـد أخـذ عن سفيـان الثوري الفقيـه والمحـدث الكوفي (ت ١٦١ هـ) وسفيان كان صاحب طريقة فقهية مستقلة. وفوق أخذه عنه فقد أدخل جامعه إلى القيروان قال أبو سعيد بن يونس: «هو أول من أدخل الموطأ وجامع سفيان المغرب وفسر لهم قـول مالك ولم يكونوا يعـرفونه»(٢). وتتلمذ أيضـاً للامام الليث ابن سعـد (ت ١٧٥ هـ) فقيه مصر المشهـور الذي عـاصر الامام مـالكا ونازعه في حجيـة عمل أهل المدينة، ومن شيوخه أيضاً عبـد الرحمن بن لهيعة قاضي مصر (ت ١٧٤ هـ)(٣).

ولم يقتصر علي بن زياد في تكـوينه على أخـذه عـن الفقهـاء والمحـدثين السـابقين وإنما ذهب إلى العراق وتعـرف على فقهـائها واطلع على مـا عندهم: وبذلك التكوين المتعدد المنابع كانت ملكة ابن زياد ملكة فقهيـة مرهفة صقلتها المقارنة وعمقها الاتصـال بفقه الآخرين فتمكن بسـهولة من التعـريف بمذهب

١ ـ المرجع السابق ص ٣٠.

٢ ـ تراجم أغلبية ٢٢.

٣ ـ المرجع السابق والصفحة.

مالك والكشف عن أصوله. وتحبيب القيروانيين فيه سواء كان ذلك في دروسه الجامعة أو كان في خواص تلاميذه الذين كانوا امتداداً له ممن سوف يأتي ذكرهم وعرض جهودهم في هذا الاطار أو كان في فتاواه وسماعاته.

وعلى كل حال فإن حذاق فقهاء القيروان هم الذين شهدوا لعلي بن زياد بتمكنه وعلو كعبه في الفقه والاستنباط وابرزوا دوره في تأسيس الفقه المالكي بالقيروان قال سحنون: «ما أنجبت افريقية مثل علي بن زياد»(١).

ووصفه ابن يونس بانه: «أول من فسر لأهل المغرب قول مالك ولم يكونوا يعرفونه وكان قد دخل الحجاز والعراق في طلب العلم. وهو معلم سحنون الفقه»(٢) بل وأكثر من ذلك فقد وضعوه في مرتبة واحدة مع محمد بن القاسم رأس المدرسة المالكية المصرية ان لم يجعلوه متقدماً عليه. وفي ذلك يقول سحنون: «لو كان لعلي بن زياد من الطلب ما للمصريين ما فاقه منهم أحد وما عاشره منهم أحد»(٣). وفي موضع آخر يجعل سحنون هذا فضل المصريين في السماع أما الفقه فعلى بن زياد أفقه حيث يقول: «ما فاقه المصريون الا بكثرة سماعهم وذلك انى أختبرت سره وعلانيته والمصريون إنما اختبرت علانيتهم»(٤). ويقول أيضا مشيراً إليه: «لو أن التونسيين يسألون لأجابوا باكثر من جواب المصريين»(٥).

وفي دور علي بن زياد المؤكد في تأصيل المذهب المالكي يقول القيروانيون عنه: « ما طرأ علينا طارىء من البلدان كشف مالكاً عن الأصول كشف علي بن زياد»(٦).

---

١ ـ المرجع السابق ص ٢٣.

٢ ـ المرجع السابق ٢٢.

٣ ـ المرجع السابق ٢٢.

٤ ـ المرجع السابق والصفحة.

٥ ـ المرجع السابق والصفحة.

٦ ـ المرجع السابق والصفحة.

الآثار الفقهية لعلي بن زياد:

تتمثل الآثار الفقهية لعلي بن زياد في:

١ ـ تعليقاته الفقهية على الموطأ ومخالفته للامام مالك في بعض المسائل التي وردت في روايته للموطأ. ولا شك أن مثل هذه الآراء الفقهية لعلي بن زياد تمثل بداية للتأليف الفقهي في المدرسة المالكية القيروانية. وتعليقاً على ذلك يقول الشيخ الشاذلي النيفر: مشيراً إلى قطعة رواية على بن زياد للموطأ: «ولم تقتصر أهمية هذه القطعة على كونها أثراً تاريخياً بل تجاوزت ذلك إلى الوقوف على بعض آراء علي بن زياد التي يبنيها على ما يشبه الاجماع ويرى غير ما يراه الامام مع تقفيه لقواعده مما يدل على تحرره»(١) ثم يورد أمثلة لما خالف فيه علي بن زياد الامام مالكاً ومنها:

أ ـ أن مالكا يرى أن الأنسية إذا ندت وشردت لا تقتل بما يقتل به الصيد وهذا ما رواه عنه سحنون:

«قال علي: لا بأس بأكل ما ندمن الانسية إذا قتلت بما يقتل به الصيد إذا لم يقدر على أخذها وعليه عامة العلماء»(٢).

ب ـ يرى مالك أن الحيوان الذي فتق السبع بطنه ثم ذكى لا يؤكل. لكن علي بن زياد يقول: ليس عليه العمل. لا بأس بأكله(٣).

ج — يرى مالك كراهية أكل الميت من الجراد لأنه لا يراه بمنزلة صيد البحر ويخالفه علي بن زياد فيقول: «ليس الناس على قول مالك لا بأس بميتته»(٤).

---

١ ـ مقدمة تحقيق الشيخ الشاذلي النيفر لموطا علي بن زياد ص ٩.

٢ ـ المرجع السابق ص ٩.

٣ ـ المرجع السابق ص ٩ وص ١٥٠.

٤ ـ المرجع السابق ٩، ١٠ وص ١٩٦، ١٩٧.

٢ ـ قياساته وتقييداته بناءً على قواعد المذهب المالكي الأصولية:

فوق اجتهادات علي بن زياد التي خالف فيها الامام مالكاً في بعض المسائل الفقهية والتي كان كما ذكرنا يتبعها بدليله وهو غالباً ما عليه العمل وهو دليل لم يبتدعه علي بن زياد وانما أخذه عن الامام وعن أسلافه من المدنيين. فوق ذلك كان علي بن زياد يقيس بعض المسائل الجديدة على قول مالك. وهذا اجتهاد منه في إطار المذهب.

ومن أمثله ذلك قياسه الصقور والبزاة على الكلاب التي تثير الصيد فيشليها صاحبها عليه أي يدفعها من غير أن يكون زمامها بيده.

وسئل مالك عن الرجل يخرج للصيد ومعه كلابه مطلقة فتثير الصيد فيشليها عليه فتقتله.

قال: إذا أثارته وهي قريبة منه فأشلاها عليه فقتلته فلا باس بأكله.

قال علي: وكذلك الصقور والبزاة في مفاد قوله.

فعلي بن زياد بقوله هذا يقيس الصقور والبزاة على الكلاب في الحكم أخذا مما يفيده قول الامام مالك(١).

لكن علي بن زياد مع ذلك يعقب بقوله: «وما يعجبني الا ما أرسل»(٢).

وهذا أيضاً استحسان منه للأصل في المسألة

وعلى كل حال فأن اجتهادات علي بن زياد التي جاءت على النمطين السابقين وان لم تكن كثيرة وإنما وردت في مواطن قليلة من روايته لكنها مع ذلك تعبر عن اتجاه اجتهادي عنده كما تعكس كشفه لأصول المذهب المالكي لأن من يجتهد ويتخير ويخالف لا يتم له كل ذلك إلا إذا كان مدركاً للأصول

١ ـ تحقيق الموطأ برواية علي بن زياد ص ١٠، ٢٢١.

٢ ـ المرجع السابق ص ١٠، وص ٢٢١.

عارفاً بها. وقد عبر عن ذلك كله الشيخ الشاذلي النيفر فقال: «إن ابن زياد كان من المجتهدين في المذهب المالكي الذين يرجحون غير ما رجحه الامام بناءً على قواعده الأصولية في المذهب مثل اعتبار ما عليه العمل وانساقت له الأكثرية. وهي قاعدة مهمة غفل عنها الكثير فوقعوا في اخطاء ومزالق فهو قد فتح الباب لاثراء المذهب بما يقاس فيه على قواعده التي هي من أصول الاسلام» إلى أن يقول: «ويبدو أن علي بن زياد هو المبرز والموضح للأصول التي ابتنى عليها مذهب مالك فهو الذي استخرجها من فقهه وابداها لتلاميذه فعرفوا المذهب المالكي في أصوله لا في تفاريعه فحسب»(١) وقول أسد بن الفرات قبله: «كان علي بن زياد من نقاد أصحاب مالك»(٢).

٣ ـ اهتمامه بآراء مالك الفقهية في روايته:

لم يقتصر علي بن زياد في روايته للموطأ عن الامام مالك على الأحاديث وحدها وانما ضم إلى ذلك آراء مالك الفقهية كما أنه لم يقتصر في ايراده لآراء مالك الفقهية على اختياره لقول في مسألة حدث فيها خلاف قبله كما فعل الآخرون من رواة الموطأ كيحي بن يحيي الليثي. وانما كان يتوسع في ايراد آراء الامام مالك الفقهية. وروايته في ذلك قريبة من طريقة المدونة وهي طريقة فقهية بحتة وان كان التفريع في المدونة أكثر بالطبع مما تضمنته رواية ابن زياد من آراء مالك بحكم طبيعة التطور الذي لحق فقه المسائل في خطه الصاعد ومن أمثلة ذلك ما أورده الشيخ الشاذلي النيفر من نصوص من موطأ علي بن زياد مع المقارنة بينها وبين ما جاء في المدونة(٣).

---

١ ـ مقدمة الشيخ الشاذلي النيفر لتحقيق الموطأ رواية علي بن زياد ص ١٠.

٢ ـ تراجم أغلبية ٢٣.

٣ ـ تحقيق الشاذلي النيفر لموطأ علي بن زياد ص ٩٥.

٤ ـ تآليفه الفقهية:

لم تقتصر آثار علي بن زياد الفقهية على الجهود السابقة وهي اهتمامه بفقه المسائل في روايته للموطأ ومخالفته للامام مالك أو اختياراته وترجيحاته وإنما تعدت ذلك إلى التأليف الفقهي حيث كان أول من أقبل عليه في المذهب المالكي فصنف المسائل الفقهية وبوبها وخرجها كتباً على مواضيع الأحكام الفقهية(١). وسمى كتابه «خير من زنته» وهو ثلاثة كتب بيوع ونكاح وطلاق. ويقال في سبب هذه التسمية ان ابن زياد لما ألفه لم يدر ما يسميه فقيل له في المنام سمه «كتاب خير من زنته»(٢).

ثالثاً: فقه المسائل عند أسد بن الفرات (ت ٢١٣ هـ):

بعد الجهد الذي بذله علي بن زياد في فقه المسائل في المذهب المالكي كان جهد أسد بن الفرات الذي صنف الاسدية وهي من أوائل الكتب التي ألفت بعد الموطأ وكتاب علي بن زياد خير من زنته. وتحتوي على ستين كتاباً.

هذا ويرتكز منهج الأسدية على النسق والأسلوب العراقي الذي اكتسبه أسد من اقامته بالعراق وتبادله للمعارف الفقهية مع فقهائه حيث أمدهم بما عنده من فقه مالك الذي اكتسبه من رحلته إليه في المدينة وتزود بما عندهم من طريقة فرض المسائل وتشقيقها وتسلسلها وهي ذات الطريقة التي أزعجت منه الامام مالك في بادىء الأمر فقال له ـ كما هو مشهور ـ هذه سليسلة بنت سليسلة إن أردت هذا فعليك بالعراق»(٣).

---

١ ـ انظر اعلام الفكر الاسلامي للشيخ الطاهر بن عاشور ص ٢٦.

٢ ـ تراجم اغلبية ص ٢٢.

هذا ويقول سحنون كتاب خير من زنته لابن أشرس الا إنا سمعناه من أبي زياد وكان يقرؤه على المعنى وكان أعرف من ابن أشرس بالمعنى» تراجم اغلبية ص ٢٢.

٣ ـ تراجم اغلبية ٥٤.

وبعد تشبع أسد بمنهج العراقيين ووقوفه على مسائلهم وطريقتهم التي كان كلفاً بها قصد بتلك المسائل تلاميذ الامام مالك بمصر والتقى أولاً بابن وهب وقال له هذه كتب أبي حنيفة. وسأله أن يجيب عنها على مذهب مالك فتورع ابن وهب وأبي فذهب إلى ابن القاسم فأجابه مسنداً ـ ما يحفظه ـ إلى الامام مالك. وما يشك فيه قال فيه: أخال وأحسب وأظن بالاضافة إلى اجتهاداته حسب أصول مالك(١).

وبذلك تكونت الأسدية التي تمثل خطوة متقدمة على طريق تطوير فقه المسائل في المذهب المالكي.

وتقدم هذه الخطوة يعزي إلى محاولة أسد الجريئة في التعرف على مسائل العراقيين، وهو تعرف لم يكن مقصوداً لذاته وإنما كان مقصوداً لخدمة المذهب المالكي ومعرفة المقابل فيه لتلك المسائل أو بعبارة أخرى تخريجها عليه. ومما يدل على عزم أسد على ذلك ـ أي معرفة رأي مالك في تلك المسائل ـ اتجاهه بها من فوره إلى مصر وعدم عودته إلى القيروان: وذلك ـ بلا شك ـ رغبة منه في التعرف سريعاً على رأي الامام مالك من خلال سماعات تلاميذه في مصر. ولو لم يكن الامام مالك قد توفى لكانت عودة أسد إلى المدينة لا إلى مصر ليعرف رأي الامام فيها: لأن هذا هو هدفه وشاغله الحقيقي الذي أجهد نفسه في سبيله متنقلاً بين القيروان والمدينة أولاً وبين العراق ومصر ثانياً في رحلات معروفة متكرّرة حفظتها كتب التراجم والتاريخ.

هذا ويبدو أن تلك المسائل التي حملها أسد من العراقيين كانت دسمة ومتسعة ولهذا اضطر ابن القاسم معها أن يستخدم عبارات أخال وأظن وأحسب ليستوعب الاجابة عن كل ما سأله عنه.

---

١ ـ المرجع السابق والصفحة.

رابعاً: فقه المسائل عند سحنون بن سعيد (ت ٢٤٠ هـ):

استمر مد التطور في فقه المسائل بعد أسد بن الفرات متمثلاً في جهود سحنون بن سعيد قرين أسد في التلقي عن استاذ المدرسة المالكية بالقيروان علي بن زياد. وقد كانت خطوات سحنون في طريق تطوير فقه المسائل أكثر تقدماً وثباتاً حين رحل بالأسدية إلى ابن القاسم مرة أخرى وراجعه في مسائلها. وكاشفه مكاشفة الفقيه الضليع فرجع ابن القاسم عن بعض ما كان قد تبناه من آراء كما خلصها من بعض ما اعتورها من اختلاط في المسائل. وهو اختلاط نتج عن بناء مذهب على مذهب آخر وهذبها وسددها بالأحاديث والآثار معيداً إياها إلى الطريقة المالكية الأولى. وهي طريقة الامام مالك في الموطأ. فكانت مدونة سحنون المشهورة التي حافظت على أسلوب الامام مالك واستفادت ـ في ذات الوقت ـ من مجرى التطور في فقه المسائل ابتداء من علي بن زيادإلى أسد بن الفرات. ومن فقه العراقيين ومسائلهم في طريقة تركيبية نجحت نجاحاً عظيماً في تطور الفقه المالكي مع المحافظة على أصوله وموروثه وأسلوبه الأول الذي أخذه التلاميذ عن إمامهم الفذ الامام مالك بن أنس عليه رحمة الله ورضوانه. وفي هذا المعنى يقول بروكلمان: «إن الفضل في نشر مذهب مالك في المغرب يرجع إلى أسد بن الفرات وابن القاسم الا أن جل الفضل في ذلك يرد إلى ما بذله سحنون من جهد في ترتيب المدونة ونشرها. وهي مصنف جامع شامل يزيد كثيراً عن موطأ مالك ولو أنه يعتمد عليه»(١).

وللزوم المدونة للطريق الصحيح في مجرى تطور الفقه المالكي فقد اعتمدها الفقهاء في القضاء والافتاء ورجحوا روايتها على غيرها واعتبروها الاصل الثاني بعد الموطأ بل إن بعضهم حفظها مع كثرة مسائلها. كما أنهم تباروا في شرحها والتعليق عليها واختصارها...

---

١ ـ راجع بحث «مدونة الامام سحنون ودورها في تنشيط الحركة العلمية» للدكتور محمد البشير البويزيدي ص ١٩١ محاضرات ملتقى الامام سحنون».

خامساً: فقه المسائل عند الطبقة التي تلت سحنون من فقهاء القيروان:

تمثل الجهود التي دارت حول المدونة التي أشرنا إليها ـ قبل قليل ـ بشتى صورها وانماطها تمثل ـ هي الأخرى ـ لبنة أخرى في بناء فقه المسائل في المذهب المالكي على أنه لا بد من التنبيه هنا أن مجال تلك الجهود انداح ليحتضن جهود فقهاء من المدارس المالكية الأخرى في مصر والأندلس والمغرب الأقصى والعراق فضلاً عن جهود القيروانيين في ذلك كما أن تلك الجهود اتسمت بسمات تلك المدارس فترتب على ذلك أن برز منهجان مميزان في مدارسة المدونة منهج المدرسة المالكية العراقية التي جعل أربابها مسائل المدونة اساساً بنوا عليه فصول المذهب بالادلة والقياس. ومنهج القيروانيين الذي كان يهتم بتتبع الآثار وترتيب أساليب الأخبار وضبط عبارات المدونة على حساب ما وقع من السماع(١).

وفي كل الاحوال فإن المدرسة القيروانية تعتبر هي الأساس في ظهور هذا الأثر الفقهي الذي ضم منشور الفقه المالكي وسماعات الامام عند تلاميذه الكثيرين وأن جهودهم في شرح المدونة وتهذيبها تعتبر جهداً آخر متمماً لها ماضياً بعد ذلك في طريق التطور إلى أن وصل الأمر إلى مختصر خليل الذي اعتمده المتأخرون والذي هو عبارة عن تلخيص للمدونة عن طريق التهذيب للبراذعي فالمختصر الفقهي لابن الحاجب فمختصر خليل.

هذا وتتمثل جهود القيروانيين خاصة في خدمة المدونة في:

١ ـ شرح محمد بن سحنون (ت ٢٥٦ هـ) لأربع كتب منها.

٢ ـ شرح محمد بن إبراهيم بن عبدوس (ت ٢٦٠ هـ) المسمى «شرح مسائل المدونة» كما أن له المجموعة وهي كتاب في الفقه المالكي كالمدونة...

---

١ ـ أزهار الرياض ٣/ ٢٢ وبحث عن «اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم أحمد علي العدد (٢٢) ص ٥٦ ـ مجلة بحوث فقهية معاصرة.

٣ ـ اختصار ابن أبي زيد القيرواني لها (ت ٣٨٦ هـ) في كتابه «مختصر المدونة» وخدمته لها أيضاً من خلال كتابه «النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الامهات».

٤ ـ تهذيب البراذعي لها (ت ٤٣٠ هـ) وكتابه «الشروح والتمامات لمسائل المدونة».

٥ ـ تعليق أبو عمران الفاسي عليها (ت ٤٣٠ هـ).

٦ ـ تعليق عبد الرحمن بن محرز القيرواني عليها (ت ٤٥٠ هـ) الذي أسماه التبصرة.

٧ ـ كتاب في بسط المدونة والتفريع عليها لأبي القاسم عبد الرحمن بن أحمد الحصري المعروف باللبيدي (ت ٤٦٦ هـ).

٨ ـ التبصرة على المدونة للخمي علي بن محمد الربعي (ت ٤٧٨ هـ).

٩ ـ تعليق أبو محمد عبد الحميد بن أحمد المقري المعروف بابن الصائغ (ت ٤٨٦ هـ).

١٠ ـ تكملة كتاب التونسي على المدونة لمحمد بن سعدون بن بلال القيرواني (ت ٤٨٦ هـ).

هذا وقد كانت بعض تلك الأعمال التي أدارها القيروانيون حول المدونة تعمل على نقل الأفكار الفقهية مجردة عن السؤال والجواب كما فعل البراذعي في تهذيبه.

ولا شك أن مثل هذه الخطوة تعتبر درجة متقدمة في صقل الفقه المالكي وترتيبه وتخفيفه وتيسيره للأجيال التي جاءت بعد ذلك...

سادساً: فقه المسائل عند ابن أبي زيد القيرواني:

صاحب الجهد السابق في شرح المدونة والتعليق عليها جهد الامام المالكي القيرواني المشهور عبد الله بن أبي زيد القيرواني الذي سلفت الاشارة إلى بعض مجهوداته في خدمتها ضمن آخرين لكنه تميز ـ فوق ذلك ـ في تطوير فقه المسائل بما يقتضي إفراده بالحديث ابرازاً لدوره في خدمة المذهب المالكي.

ولعل ذلك الدور يتضح مما أسبغه المالكية عليه من أوصاف تدل على باعه الطويل في الفقه وبالغ جهده في خدمة المذهب المالكي ومنها اطلاق لقب الشيخ عليه(١). وتسميته بمالك الصغير(٢). وبأنه جامع مذهب مالك وشارح أقواله(٣).

والامام ابن أبي زيد حري بذلك بل وبأكثر منه لمبادرته ـ في عصره ـ إلى تلخيص المذهب المالكي «وضبط ما تناثر في مصادره من الأقوال مما قاله مالك وخالفه فيه أصحابه أو وافقوه فيه. أو ما انفرد به أصحاب مالك ومن بعدهم بتقريره من الاحكام. فدرس الأقوال الفقهية. وحقق الصور التي تتعلق بها حيث كانت صورة واحدة واختلفت فيها الأنظار. أو صوراً مختلفة يرجع كل قول إلى واحد منها»(٤).

هذا ويمتاز صنيع ابن أبي زيد الذي اتقن العلامة الفاضل بن عاشور وصفه في قوله السابق يمتاز بمجيئه في الوقت المناسب حيث أن كثيراً من مسائل المذهب ـ التي لم ترد في المدونة ـ كانت مفرقة في دواوين كثيرة مثل الموازية لمحمد بن إبراهيم بن المواز (ت ٢٦٩ هـ) والعتبية لمحمد بن أحمد العتبي (ت ٢٥٥ هـ) والواضحة لعبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ) والمجموعة

---

١ ـ حاشية العدوى على الخرشي ٤ : ١٥٣ الطبعة الثانية سنة ١٣١٧ هـ.

٢ ـ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٠.

٣ ـ معالم الايمان ٣ : ١١٠.

٤ ـ اعلام الفكر الاسلامي للعلامة الفاضل بن عاشور ٤٧.

لمحمد بن عبدوس (ت ٢٦٠ هـ) فجمعها ابن أبي زيد ملخصاً لها في كتابه «النوادر والزيادات» ليكون كتاباً جامعاً لما تفرق في تلك الدواوين من «الفوائد وغرائب المسائل وزيادات المعاني على ما في المدونة»(١): وبذلك يكون في هذا الكتاب مع المدونة أو مختصراتها غنية لمن أراد التعرف على رأي المذهب في قضية من القضايا أو مسألة من المسائل. وفضلا عن ذلك فإن كتاب «النوادر والزيادات» يعتبر كتاب فقه مقارن مذهبي حيث اشتمل على كثير من اختلاف العلماء المالكيين مع ترجيح الأقوال على بعضها.

وفوق هذا وذاك فقد تألق ابن أبي زيد في كتابه المذكور كواحد من المجتهدين في المذهب المالكي حيث تابع أحداث عصره وجمع نوازله مخرجاً إياها على أحكام المذهب.

وانعكاساً لكل تلك الميزات كان كتاب «النوادر والزيادات» من الكتب التي اعتمد عليها المتأخرون من المالكية في كثير من القضايا الفقهية مشيرين إليه وهم يعتمدون عليه في تلك المسائل(٢) وكان مؤلفه واحداً من فقهاء القيروان الذين أسهموا بجهد رائع وخلاق في وصل الحركة الفقهية في المذهب المالكي واعطائها دفعة قوية في طريق التطور.

١ ـ دراسات في مصادر الفقه للدكتور ميكلوش موراني ترجمة د. سعيد بحير ود. عمر صابر ومحمود رشاد حنفي ص ١٠٣

٢ ـ راجع رسالة دكتوراة مخطوطة عن ابن أبي زيد القيرواني للدكتور خالد المذكور ص ١٩٢

خاتمة

لا يملك الباحث الذي يتابع سيرة الفقه المالكي في القيروان الا أن يشيد بدور فقهاء القيروان في تطوير الفقه المالكي.

هذا والمدارس المالكية الأخرى وأن كانت قد آزرت مدرسة القيروان في ذلك التطوير وأخذت على عاتقها نصيباً منه الا أن المدرسة القيروانية كانت ـ دائماً ـ هي المدرسة السباقة التي ترود الطريق وتمهد السبيل. وتضع الأسس الكفيلة بنجاح كل جهد آخر متمم لما بدأته.

رحم الله أساطين الفقه المالكي في القيروان الذين جعلوا خدمة المذهب همهم وشاغلهم. ووقفوا حياتهم له بل ودافعوا عنه في ظروف سياسية ومذهبية عصيبة في بعض الأحوال.

آخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

مصادر البحث ومراجعه

١ ـ الإحكام في أصول الأحكام ـ ابن حزم ـ أبو محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري ـ طبعة الامام وطبعة السعادة تحقيق أحمد محمد شاكر.

٢ ـ أزهار الرياض ـ المقري ـ أبو العباس أحمد التلمساني ـ طبعة صندوق احياء التراث الرباط ١٩٧٨ م.

٣ ـ أعلام الفكر الإسلامي في المغرب العربي ـ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ـ مكتبة النجاح ـ تونس.

٤ ـ ابن أبي زيد القيرواني ـ حياته وفقهه ـ رسالة دكتوراة مخطوطة للدكتور خالد المذكور.

٥ ـ تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض ـ تحقيق محمد الطالبي ـ المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية.

٦ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ـ عياض ـ عياض بن موسى بن عياض السبتي طبعة الشمال الافريقي بالرباط وطبعة الأوقاف والشئون الإسلامية.

٧ ـ حاشية العدوى الخرشي على مختصر خليل الطبعة الثانية ١٣١٧ هـ.

٨ ـ حجة الله البالغة ـ الدهلوي ـ شاه ولي الله الدهلوي ـ طبعة دار التراث بالقاهرة.

٩ ـ دراسات في مصادر الفقه المالكي (موراني) الدكتور ميكلوش موراني ترجمة د. سعيد ود عمر صابر ومحمود رشاد حنفي ـ طبعة دار الغرب الإسلامي.

١٠ ـ رواة موطأ مالك وعلماء القيروان ـ التركي ـ الدكتور عبد المجيد التركي بحث مرقوم على الآلة الكاتبة، قدم في ملتقى القيروان مركز علمي مالكي بين المشرق والمغرب حتى القرن الخامس للهجرة الذي انعقد بمركز الدراسات الإسلامية بالقيروان ١٩٩٣ م.

١١ ـ الصلاة الفقهية بين القيروان والمدينة المنورة ـ بحث للكاتب ـ مرقوم على الآلة الكاتبة قدم في الملتقى العلمي الثالث الذي عقد بمركز الدراسات الإسلامية بالقيروان بتونس.

١٢ ـ طبقات علماء افريقية وتونس (أبو العرب) محمد بن تميم تحقيق علي الشابي ونعيم اليافي الدار التونسية للنشر بتونس.

١٣ ـ طبقات الفقهاء ـ الشيرازي ـ أبو اسحاق إبراهيم بن علي ـ تحقيق د. احسان عباس دار الرائد العربي بيروت ١٩٧٨م.

١٤ ـ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ـ الثعالبي ـ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي تحقيق ابن صالح شعبان طبعة دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان.

١٥ ـ الفهرست ـ ابن النديم ـ أبو الفرج محمد بن اسحق النديم ـ الطبعة الرحمانية.

١٦ ـ مجلة البحوث الفقهية المعاصرة تصدر بالمملكة العربية السعودية العدد (١٥) والعدد (٢٢).

١٧ ـ محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ـ الجيدي ـ الأستاذ عمر الجيدي ـ دار عكاظ المغرب ١٩٧٨ م.

١٨ ـ المذهب المالكي مؤسسه وأصوله وانتشاره ـ أبو الاجفان ـ الدكتور محمد أبو الأجفان بحث مرقوم على الآلة الكاتبة.

١٩ ـ مدونة الإمام سحنون ودورها في تنشيط الحركة العلمية (البويزيدي) الدكتور محمد البشير البويزيدي بحوث ملتقى الامام سحنون المنعقد بالقيروان ١٩٩١ م نشر مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان.

٢٠ ـ معالم الايمان ـ الدباغ ـ عبد الرحمن بن محمد تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور مكتبة الخانجي بمصر والمكتبة العتيقة بتونس.

٢١ ـ الموطأ بشرح السيوطي ـ مالك ـ الامام مالك بن أنس الأصبحي طبعة المكتبة التجارية.

٢٢ ـ موطأ الامام مالك قطعة منه برواية علي بن زياد تقديم وتحقيق ـ النيفر ـ الشيخ محمد الشاذلي النيفر ـ الدار التونسية للنشر.

بلاغة القرآن الكريم عند الجاحظ ...

أ. د. وليد قصّاب *

مقدمة :

ولدت علوم العربية جميعها حول القرآن الكريم؛ فقد كان نزوله ـ معجزة عقلية خالدة على محمد ﷺ ـ مبعث نهضة فكرية لم تشهد هذه الأمة مثيلاً لها، وكأنما كان الجذوة التي أوقدت في النفوس روح البحث والتأمل، فبدأت توضع العلوم، وتقعّد القواعد، خدمة للقرآن الكريم في أول الأمر، وإمعانا في تفهمه، ومعرفة أحكامه، ثم راحت شُعب البحث تضرب في كل اتجاه، وتنسرب إلى كل غاية، يقول ابن خلدون: «إن علم البيان علم حادث في الملة»(١) ومعنى ذلك أن تنظيم البحث في الأدب، والكلام في عناصره، وما يسموبه وما ينحط كان جهداً جديداً، ودراسة لا عهد للعرب بها في جاهليتهم، ولا في العصر الإسلامي.

وإن البيان كان من العلوم التي تولى غراسها المسلمون في سبيل فهم كتابهم، والذبّ عن قرآنهم، وكان نماؤه بعد ذلك، وتشعب مباحثه بتأثير الدين، وبتوجيه المفكرين من حملته ورجاله.

---

* أستاذ الأدب والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية ـ دبي

١ ـ مقدمة ابن خلدون ٥٤٥.

وكـان أبرز مـا اتجهت إليـه عنـاية المسلمين من شأن القـرآن البحث في روعة بيانه، وسحـر بلاغته ونظمه، بعد أن وقع عليهـم التحدي، وأقروا بهذه العظـمة، وهو مـا عـرف بإعجـاز القـرآن. وكـان المتكلمـون ـ وعلى رأسهم المعتـزلة ـ من أبرز الطوائف التي بحثت في قضيـة الإعجـاز، فقـد أخـذت هذه الطائفة على نفسها مهمة الدفاع عن الإسـلام، والرد على خصومه ومعارضيه، وكـانت هذه المهمـة تقتضي منهم أن يعرفـوا كتـاب الله ـ الذي هو مـادة هذه العقيدة ـ معرفة عميقة، ليردوا عنه شبه الخصوم من ناحية، وليظهروا ما فيه من وجـوه التفوق والرفعـة التي جعلته معجـزاً خـارجاً عن مألوف أسـاليب العـرب مـن جهـة أخـرى. وكـان الجاحظ واحـداً من هـؤلاء، ومن أبرزهم، وأسبقهم إلى الكلام المنظم في مسائل القرآن الكريم وبلاغته وإعجازه، وقد ترك عـدداً من الكتب في هذا المجال. منهـا كتاب (نظم القـرآن) وكتاب (آي القـرآن) وكتاب (خلْق القـرآن) وكتاب (المسائل في القـرآن) ولكن هذه الكتب جميعها ـ باستثناء قطعة من كتاب خلق القرآن ، نشرت ضمن رسائل الجاحظ ـ مفقودة للأسف الشديد، ولا نكاد نعرف عنهـا شيئاً، ولو وصلتنا ـ أو بعض منها على الأقل ـ لتوقعنا من أبي عثمان حديثا ذا شأن في قضية البيان القرآني.

ولكن الجاحظ قد ترك لنا في ثنايا مـؤلفاته التي وصلتنا ـ على طريقته في الاستطراد ـ عـدداً لا بأس به من الآراء والنظرات التي تتصل بقضيـة إعجـاز القرآن، وقد حاولنا للمة شمل هذا الشتات المبعثر من آرائه ودراسته وتقويمه للخروج بفكرة عن تصوره للإعجاز.

القرآن حجة للرسول:

أعلن الجاحظ أن القــرآن الكريم حجـة من حجج النبــوة، وهو إحـدى معجزات محمد عليه السلام، وهو معجزة بلاغية عقلية، وهو المعجزة الرئيسة الكبرى التي وقع بها التحـدي، وإنما كان على هذه الصفـة بالذات لأن سنة الله في الكون قـد جرت أن تكون معجـزات أنبيائـه ـ وهي في العادة أمـور تخالف السنن الكونية، وتشذ عن النواميس الطبيعية ـ أموراً من جنس ما استحكم في

زماتهم، وغلب على خاصتهم، حتى يكون ذلك أعمق في الحجة، وأبلغ في الدليل، وأبعد عن أن يتخذ المبطلون منه سبيلاً إلى اختداع الضعفاء. كانت معجزة موسى ـ عليه السلام ـ من جنس ما يسميه الناس السحر، لأنه «كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر، ولم يكن أصحابه قط في زمان أشد استحكاماً فيه منهم في زمانه... وكذلك زمن عيسى ـ عليه السلام ـ كان أغلب على أهله، وعلى خاصة علمائه الطب. وكانت عوامّهم تعظم على ذلك خواصهم، فارسله الله ـ عز وجل ـ بإحياء الموتى، إذ كانت غايتهم علاج المرضى، وإبراء الأكمه، إذ كانت غايتهم علاج الرمد...»(١) وكانت معجزة محمد ـ عليه السلام ـ في ميدان البلاغة والبيان، وذلك في دهر «كان أغلب الأمور عليهم، وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم، حسن البيان، ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادهم به، فحين استحكمت لغتهم، وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله، عز وجل، فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه...»(٢).

وقد راح محمد ـ عليه السلام ـ يتحداهم به جملة منذ أول لحظة، ثم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، وراح يقول لقريش خاصة، وللعرب عامة «مع ما فيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء والدهاة والحلماء، وأصحاب الرأي والمكيدة، والتجارب والنظر في العاقبة: إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي، وصدقتم في تكذيبي»(٣) ولم يكن القوم الذين ينازلهم محمد ﷺ قوما عاديين، إنهم شكسون خصمون، لا يسكتون على ضيم، ولا ينامون على مَوْجدة، وقد هبوا ينازعونه من كل سبيل «هجوه من كل جانب، وهاجى أصحابه شعراءهم، ونازعوا خطباءهم، وحاجّوه في المواقف، وخاصموه في المواسم، وبادروه العداوة، وناصبوه الحرب، فقتل منهم، وقتلوا منه»(٤) ولكنهم ـ على ذلك كله ـ لم يعارضوا القرآن، ولم يتكلف ذلك خطيب

---

١ ـ حجج النبوة، ضمن رسائل الجاحظ: ٣/ ٢٧٩.
٢ ـ المصدر السابق وصفحته.
٣ ـ المصدر السابق: ٣/ ٢٧٣.
٤ ـ المصدر السابق: ٤/ ٢٧١.

ولا شاعر، مع أن ذلك أهون من الحرب والقتال والإخراج من الديار، ولجؤوا إلى الاشق العسير، وسكتوا عما هو من بضاعتهم، سكتوا عن المعارضة والكلام صنعتهم «وهو سيد عملهم، فقد فاض بيانهم، وجاشت به صدورهم، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم، حتى قالوا في الحيات والعقارب، والذباب والكلاب. وكل مادب ودرج، ولاح لعين، وخطر على قلب، ولهم بعد أصناف النظم، وضروب التأليف، كالقصيد، والرجز، والمزدوج، والمجانس، والأسجاع، والمنثور..»(١).

ما السر في سكوت العرب عن المعارضة، وقد صكّ التحدي أسماعهم بإلحاح وشدة؟ إن هذا أمر قد شغل بال الجاحظ كثيراً، وسيشغل بال كثيرين بعد ذلك. وما كان يمكن للجاحظ المعتزلي الجدل أن يتجاوزه، مع أن التاريخ.. يحدثنا ـ كما أشار الجاحظ نفسه إلى ذلك ـ أنه قد جرت بعض المعارضات(٢)، وأن العرب لم يسكتوا سكوتا مطلقاً ولكن لعل أبا عثمان كان يحس أنها لم تبلغ حجم التحدي، ولم تبذل العرب فيها ما بذلته في الأشق الأصعب، وهو الحرب والقتال، ولذلك راح يلتمس للأمر مسوغاً، وقد وقع على احتمالين اطمأن إليهما. أحدهما أن يكون القوم قد أدركوا ميزة القرآن البلاغية، وعظمة نظمه وتأليفه، وأنه لا قبل لهم به وإن جهدوا، فأدركوا عجزهم «وأن مثل ذلك لا يتهيأ لهم، فرأوا أن الإضراب عن ذكره، والتغافل عنه في هذا الباب ـ وإن قرعهم ـ أمثل لهم في التدبير، وأجدر ألا ينكشف أمرهم للجاهل والضعيف، وأجدر أن يجدوا إلى الدعوى سبيلا» فيزعموا أنهم كانوا قادرين ـ لو شاؤوا ـ على أن يأتوا بمثله، وهو ما حكاه تعالى عنهم بقوله: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ [الأنفال: ٣١] والاحتمال الثاني أن يطبقوا على ترك معارضته وهم يقدرون عليها، وهو أمر مرفوض لمن كان لديه أدنى مسكة من عقل، «لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء والدهاة

---

١ ـ المصدر السابق: ٣/ ٢٧٣.

٢ ـ انظر في الإتقان: ٤/ ١١، وإعجاز القرآن: ٣٢ بعض من حاولوا المعارضة.

والحلماء ـ مع اختلاف عللهم، وبعد هممهم، وشدة عداوتهم ـ الإطباق على بذل الكثير، وصون اليسير»(١) أي اللجوء إلى الحرب والقتال، وترك المعارضة والمضاهاة، وهما مما يحسنون. وإذن فلم يبق إلا الاحتمال الأول، وهو أن القوم قد أدركوا علو كعب القرآن الكريم في البلاغة والنظم، وأحسوا بعجزهم التام عن الإتيان بمثله، أو بسورة واحدة من مثله، فسكتوا إيثاراً للسلامة، وحتى لا ينكشف أمرهم أمام الناس.

الجاحظ والصرفة :

ولقد كان يمكن للجاحظ أن يتوقف عند هذا الحد، وألا يتورط بعد ذلك في حديث زائف عن فكرة ظاهرة الفساد، وهي (فكرة الصرفة) مهما كان اتجاه حديثه عنها، ولكن روح الجدل التي طبعت المعتزلة عامة والجاحظ خاصة، حملته على ضرب من التفلسف الفكري، إن صح التعبير، فاحس ـ أو وقر في نفسه أن أحداً قد يحس ـ أن التعليل السابق لسكوت القوم عن المعارضة لا يكفي وحده لتسويغ هذا الأمر المهم، فقد يكون الأدنى إلى التصور أن تكون لأهل الفصاحة والبيان محاولات جادة في مضاهاة القرآن الكريم، وأن يحاولوا أن يماروا فيها بعد ذلك، ويدعوا ـ إفكا ـ أن لها ميزة وفضلا، وهذا ـ فيما نقدر، فضلا على تأثر الجاحظ بأستاذه النظام الذي كان أول من تحدث عن الصرفة ـ هو الذي حمله على أن يتبنى هو الآخر الحديث عنها، وأن يجد فيها مفزعاً يعينه على حل المعضلة السابقة.

على أن الفرق بعيد بين مفهوم الصرفة عند النظام ومفهومها عند تلميذه الجاحظ، فقد زعم النظام «أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز، وأنه يمكن معارضته، وإنما صرفوا عنه ضربا من الصرف»(٢) فالإعجاز في الصرفة «أي أن الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدورا لهم، لكن

---

١ ـ حجج النبوة: ٣/٢٧٦.
٢ ـ إعجاز القرآن ٠ ٦٥.

عاقهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات»(١) وعنده أن الحجة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب(٢). وهو رأي فاسد واضح التهافت لم يشايع النظام عليه إلا شرذمة من المعتزلة كعباد بن سليمان، وهشام الفوطي، وكان الجاحظ أول من من نقضه، وبيّن فساده، وكان أحد الأسباب التي حملته على وضع كتابه (نظم القرآن) كما سنوضح بعد قليل، ولكن الجاحظ لم يستطع أن ينجو من تأثير فكرة الصرفة الزائفة هذه، ولعله، وجد فيها ـ كما ذكرنا ـ حلا لمعضلة سكوت القوم عن معارضة القرآن، فإذا كانت صرفة النظام ترى أن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثله لولا أن صرفوا عن ذلك بأمر خارجي، فإن صرفة الجاحظ ترى أن القرآن الكريم في قمة من البلاغة لا يبلغها أحد، وهو معجز من ناحية نظمه وتأليفه، وهو حجة للرسول ـ ﷺ ـ من هذه الناحية، وإنما سكت العرب عن معارضته عجزاً، وإذا كان العجز وحده لا يكفي مسوغاً للسكوت المطلق فإن ذلك يحمله على أن يرى أن الله قد صرفهم عن هذه السبيل، وذلك لمصلحتهم. الصرفة عنده ضرب من التدبير الإلهي، والعناية الربانية، جاءت لخير المسلمين، لدفع الشُبَه والشكوك التي يمكن أن تنتشر بينهم من جراء معارضة لا قبل لهم بها، إذ لا يعدم الأمر أناساً جهالاً، أو متشككين معاندين، أو ضعفاء العقول أغراراً، تنطلي عليهم بعض مزاعم أهل الزيف والضلال، فيُلقى في أوهامهم أنهم قد عارضوا القرآن، أو جاؤوا بسورة من مثله، فتنتشر البلبلة والريبة في النفوس المريضة.

تلك هي الصرفة وغايتها عند الجاحظ يقول: «ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحداهم الرسول بنظمه، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه، ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة، لعظمت القضية على الأعراب وأشباه الأعراب، والنساء وأشباه النساء، ولالقى ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب»، ولكثر القيل والقال»(٣).

---

١ ـ الإتقان : ٤/٧.

٢ ـ فضل الاعتزال : ٧٠.

٣ ـ الحيوان: ٤/٩.

ويذكر هذا المفهوم للصرفة في موضع آخر من الحيوان فيقول: «وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطرباً، ولا ملفقاً ولا مستكرها، إذ كان في ذلك لأهل الشغب مُتَعلّق»(١).

ويستشهد الجاحظ لرأيه هذا بما أحدثه مسيلمة حين عارض بعض آيات القرآن الكريم من تشكيك في نفوس الجهلة، فيقول: «فقد رأيتَ مسيلمة وأصحاب ابن النواحة إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه، وأخذ بعضه، وتعاطى أن يقاربه، فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له»(٢).

ومن الواضح أن كلام الجاحظ لا يخلو من تناقض واضطراب، فها هو ذا يعترف أن بعض العرب قد حاول معارضة القرآن، وفي هذا دليل على زيف فكرة الصرفة، وعدم وجودها أصلا.

ومهما يكن من أمر فإن فكرة الصرفة على هذا النحو الذي رآه أبو عثمان لا تنفي ما يتميز به القرآن من عظمة الأسلوب، وروعة النظم والتأليف، ولا تنفي أنه معجز لا يستطيع أحد ـ مهما أوتي من علم ـ أن يأتي بسورة من مثله، فهي ليست بديلا لهذا الإعجاز البياني، ولا مناقضة له، وإنما هي إعجاز آخر، وإن كان المعجز عندئذ هو المنع أو المانع، وقد يكون هذا سبباً في أن بعض من تحدث في قضية إعجاز القرآن قد جعل الصرفة واحداً من عناصر هذا الإعجاز(٣).

القرآن معجزة بيانية :

أكد الجاحظ، أكثر من مرة وفي غير ما موضع، أن القرآن الكريم قمة سامقة في البيان، وبهذا الجانب دون غيره وقع التحدي، فالقرآن معجزة عقلية

---

١ ـ الحيوان ٦/٢٦٩ ٢ ـ الحيوان ٤/٨٩.

٣ ـ انظر بعض الآراء حول ذلك في الإتقان : ٤/١٣.

بلاغية. وفي هذا إشعار بفضل البيان، وخطر الفصاحة، يقول الجاحظ: «ولفضل الفصاحة، وحسن البيان، بعث الله تعالى أفضل أنبيائه وأكرم رسله من العرب، وجعل لسانه عربياً، وأنزل عليه قرآناً عربياً، كما قال الله تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾ فلم يُخصّ اللسانُ بالبيان، ولم يُحمد بالبرهان إلا عند وجود الفضل في الكلام، وحسن العبارة عند المنطق، وحلاوة اللفظ عند السمع»(١).

ومن أجل ذلك كانت معرفة إعجاز القرآن، وإدراك سر عظمته وتفوقه، وتميزه من ألوان القول الأخرى جميعها، لا تتأتى إلا لمن كان خبيراً بفن الكلام، مميّزاً حسنه من رديئه. إن الحكم في إعجاز القرآن هم أهل الخبرة، أصحاب الفصاحة والبلاغة «فليس يعرف فروق النظم، واختلاف البحث والنثر إلا من عرف القصيد من الرجز، والمخمّس من الأسجاع، والمزدوج من المنثور، والخطب من الرسائل... فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام، ثم لا يكتفي بذلك حتى يعرف عجزه وعجز أمثاله عن مثله، وأن حكم البشر حكم واحد في العجز الطبيعي، وإن تفاوتوا في العجز الطارىء...»(٢).

والقرآن جار على أسلوب العرب وبلغتهم، وعلى طرائقهم في الأداء والتعبير، ومن ثم كانت معرفة هذه الطرائق، والتضلع منها، أمرا لا مندوحة عنه لمن يريد أن يعرف إعجاز القرآن، أو يتصدى للبحث عن أسراره ودقائقه، أو يأخذ على عاتقه مهمة تأويله أو تفسيره. يقول الجاحظ: «فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخر، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة...»(٣).

---

١ ـ تفضيل النطق على الصمت ضمن الرسائل: ٤/ ٢٣٧.

٢ ـ مقاله العثمانية، الرسائل: ٤/ ٣٠.

٣ ـ الحيوان ١ / ١٥٤

والجاحظ بعد ذلك يرى أن أقل ما يُعجِز عنه من القرآن الكريم السورة الواحدة، قصيرة كانت أم طويلة، أو ما كان في مقدارها، مصداقا لقوله تعالى في التحدي: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة ٢٣] وقوله: ﴿قل فائتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ [يونس ٤٨] ولم يقع التحدي في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين، لأن هذا في طوق البشر، وهو جار في طبائعهم، وإنما العبرة بتشكيل الكلام لتأليف سورة واحدة تضاهي القرآن، وهو ما يعجز عنه البشر، مهما أوتوا من ضروب الفصاحة والبيان. يقول الجاحظ في كتابه حجج النبوة: «لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة ـ طويلة أو قصيرة ـ لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها، أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها. وليس ذلك في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين. الا ترى أن الناس قد كان يتهيأ في طبائعهم، ويجري على ألسنتهم أن يقول رجل منهم: الحمد لله، وإنا لله، وعلى الله توكلنا، وربنا الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهذا كله في القرآن، غير أنه متفرق غير مجتمع، ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه، لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان»(١).

إعجاز القرآن في نظمه:

والعبارة السابقة التي نقلناها من كتاب حجج النبوة تضع أيدينا على سر إعجاز القرآن الكريم كما يراه الجاحظ، إنه النظم العجيب، والتأليف الخاص على نسق معين لا يتأتى لأحد من الناس، فالقرآن يستعمل لغة العرب وألفاظهم، وقد يستعمل عبارات يتداولونها، ولكنه يصوغها صياغة معجزة

١ ـ حجج القرآن، الرسائل: ٣/ ٢٢٩.

متميزة، وينظمها في سياق من التأليف نظما لا يقدر على سورة من مثله أحد، والجاحظ ـ فيما نظنّ ـ أول من أشار إلى أن إعجاز القرآن في نظمه، وأول من استعمل هذا المصطلح الذي سيشيع بعد ذلك، وسيقلده فيه كثيرون. وقد ردد الجاحظ أكثر من مرة أن سر الإعجاز هو النظم والتأليف، ويبدو أن هاتين الكلمتين كانتا مترادفتين عنده، يقول: «تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه في المواضع الكثيرة، والمحافل العظيمة، فلم يرم ذلك أحد، ولا تكلفه، ولا أتى ببعضه، ولا شبيه منه، ولا ادعى أنه قد فعل...»(١).

وقال في الحيوان: «وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدقٌ نظمُه البديع الذي لا يقدر على مثل العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به....»(٢).

ولم يكتف الجاحظ بالحديث عن النظم هذا الحديث المقتضب في العبارة والعبارتين، ولكنه وضع في ذلك كتابا خاصا سماه (نظم القرآن) ومما يؤسف له أن هذا الكتاب لم يصل إلينا، وليست بين أيدينا نقول عنه، أو وصف مستفيض له في أحد المصادر. نعرف ما يقوله عنه الباقلاني، وهو هذه العبارة المقتضبة: «وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس به فيُ أكثر هذا المعنى»(٣). ولا يُستبعد أن تكون العصبية المذهبية قد حملت الباقلاني على الحيف في حكمه على الكتاب، إذ نجد في مقابل ذلك أبا الحسين الخياط المعتزلي يقول: «ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن، وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد على نبوته، غير كتاب الجاحظ»(٤) وقد وصف الجاحظ نفسه كتابه وصفا مستفيضا في فصل من صدر كتابه في خلق القرآن، فقال مخاطباً من كتب إليه الكتاب: «قلت: اكتب إليّ كتابا تقصد فيه إلى حاجات النفوس، وإلى صلاح القلوب، وإلى معتلجات

---

١ ـ المصدر السابق: ٣/ ٢٥١.

٢ ـ الحيوان: ٤/ ٩٠

٣ ـ إعجاز القرآن: ٦.

٤ ـ الانتصار: ١٥٥.

الشكوك، وخواطر الشبهات، دون الذي عليه أكثر المتكلمين من النظر ومن التعمق والتعقيد، ومن تكلف مالا يجب، وإضاعة ما يجب، وقلت: كن كالمعلم الرفيق، والمعالج الشفيق، الذي يعرف الداء وسببه، والدواء وموقعه، ويصبر على طول العلاج، ولا يسأم كثرة الترداد، وقلت: اجعل تجارتك التي إياها تؤمل، وصناعتك التي اياها تعتمد، إصلاحَ الفاسد، ورد الشارد. وقلت: ولا بد من استجماع الأصول، ومن استيفاء الفروع، ومن حسم كل خاطر، وقمع كل ناجم، وصرف كل هاجس، ودفع كل شاغل، حتى تتمكن من الحجة، وتتهنأ بالنعمة، وتجد رائحة الكفاية، وتثلج ببرد اليقين، وتفضي إلى حقيقة الأمر... وقلت: ابدأ بالأقرب فالأقرب، وبكل ما كان آنق في السمع،، وأحلى في الصدر، وبالباب الذي منه يؤتى الريّض المتكلف، والجسور المتعجرف، وبكل ما كان أكثر علماً، وأنفذ كيداً. وسألتني... وصفة الأناة ومقدارها، ومقدمات العلوم ومنتهاها. وزعمت ان من اللفظ مالا يفهم معناه دون الإشارة، ودون معرفة السبب والهيئة، ودون إعادته وكرّه، وتحريره واختياره، وقلت: فإن انت لم تصور ذلك كله صورة تغني عن المشافهة، وتكتفي بظاهرها عن المراسلة؛ أحوجتنا إلى لقائك، على بعد دارك وكثرة أشغالك، وعلى ما تخاف من الضيعة وفساد المعيشة.

فكتبت لك كتابا اجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على طعّان، فلم أدع فيه مسالة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحَشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن خلق، وليس تاليفه بحجة، وانه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة. فلما ظننت أني قد بلغت أقصى محبتك، وأتيت على معنى صفتك، أتاني كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن، وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن، وكانت مسألتك مبهمة، ولم أك أن أحدث لك فيها تاليفاً، فكتبت لك أشق الكتابين وأثقلهما، وأغمضهما معنى وأطولهما...»(١).

١ ـ من كتابه في خلق القرآن، ضمن رسائله: ٤/ ٢٨٥ ـ ٢٨٧.

هذا خير وصف لكتاب (نظم القـرآن) وإنما نقلت هذا الكلام بطوله، لأنه يعطينا فكرة لا بأس بها عن طبيعة الكتاب ومنهجه وطريقته، فهو في الاحتجاج لنظم القـرآن، وروعة تأليفـه، وتميزه الذي جعل منه حجـة لا تدفع. وهو ـ في جـانبـه الآخـر ـ دحض لشبهـات الخصـــوم أهل الزيغ والضـلال، ورد على شكوكهم وريبهم، كالروافض والحشوية والكفار والمنافقين، والنظام صاحب الصرفة الزائفة ومن شايعه عليهـا.. وقد توخّى الجاحظ فيه السهولة، وحسن الإفهام، وعرض المسائل من أقـرب طريق دون تعقيد أو فلسفة أو غموض على طريقة بعض المتكلمين، بحيث لا يحتاج قارئه إلى سؤال أو استفسار، مشفوعا ذلك كله بالأدلة الدامغـة، والحجج القاطعـة، التي تبطل رأي الخصم، وتنير له السبيل.

وللحديث عن الإعجـاز القرآني عند الجاحظ وجهان متكامـلان بطبيعة الحال، يتمّـم أحـدهما الآخر، أولهما الحديث المباشر عن نظم القـرآن وسموه، ومرتبته في البلاغة والبيـان، والآخر التوقف عندما أثاره الملاحدة والمتشككون من شبهات ومطاعن لدفعه وإبطاله، وتوجيهـه التوجيه الصحيح الذي يسقط زيف المدّعين. فأما الحديث المباشر عن نظم القرآن، وروعة تأليفه وبلاغته، فما تبقى لدينا مـن آراء الجاحظ المبعثـرة في كتبـه المتعـددة: يـدل على أنها تعـالج المسائل التالية :

أ ـ اللفظ القرآني :

لاحظ الجاحظ وهو يتحـدث عن بعض أوجه النظم القرآني مـا يتمتع به اللفظ في كتاب الله من خصـائص بلاغية ممتـازة، وعلى رأس هذه الخصـائص جميعـاً اختيار الألفـاظ وحسن انتقـائها، وإيراد مـا هو أحق بالمعنى، وأجـدر بالاستعمال، فقـد يشترك لفظان أو أكثـر في التعبير عن معنى واحــد، ولكن

أحدهما أدق من الآخر في الدلالة، وأدخل في المعنى، وأقدر على التعبير، وكأن الجاحظ يشير إلى أن الكلمة المرادفة لأخرى لا يمكن أن تقوم مقامها، وذلك لوجود فروق دقيقة بينها في المعنى، وهي فروق تغيب عن العامة وكثير من الخاصة، ولكن القرآن يلاحظها بدقة متناهية، ويوقع كلاً منها في مكانه الملائم بحيث لا يمكن أن يستبدل بها غيرها، يقول في البيان والتبيين: «قد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السَّغَب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الابصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج...»(١) وهكذا يشير الجاحظ إلى فكرة طريفة سوف يتوسع اللغويون في طرحها عند الحديث عن الترادف، وهي أن ما يطلق عليه اسم المترادف من الألفاظ لا يمكن أن تكون دلالته واحدة، وإنما هنالك فروق دقيقة بينها لا تغيب عن النظم القرآني كما ذكرنا، ولكنها قد تغيب كثيرا عن العامة «التي ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا وتدع ما هو أظهر وأكثر...»(٢).

وفي ألفاظ القرآن الكريم دقة وإيجاز، فاللفظ القليل يجمع المعاني الكثيرة، وهو غني بالإيحاء، يؤدي ما تؤديه العبارات الطويلة. من ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾(٣) فانظر

---

١ ـ البيان والتبيين: ١/ ٣٠. ٢ ـ المصدر السابق وصفحته.

٣ ـ المائدة: ٤.

إلى الدقة والإيجاز في قوله: (مكلبين) فقد «اشتق لكل صائد وجارح كاسب من باز، وصقر، وعقاب، وفهد، وشاهين، وزرّق، ويؤيؤ، وباشق، وعَنَاق الأرض، من اسم الكلب. وهذا يدل على أنه أعمها نفعاً، وأبعدها صيتاً، وانبهها ذكراً...»(١).

ومن ذلك لفظ (طيبات) في قوله تعالى: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾(٢) وقوله: ﴿لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾(٣) يقول: «وقوله تعالى (طيبات) تحتمل وجوها كثيرة، يقولون: هذا ماء طيب، يريدون العذوبة.. ويقولون: فم طيب الريح، وكذلك البُرّ، يريدون أنه سليم من النتن... ويقولون: حلال طيب، وهذا لا يحل لك، ولا يطيب لك، وقد طاب لك: أي حلّ لك.. وقال طويس المغني لبعض ولد عثمان بن عفان: لقد شهدت زفاف أمك المباركة إلى أبيك الطّيب. يريد الطهارة.. وقد يخلو الرجل بالمرأة فيقول: وجدتها طيبة، يريد طيبة الكوم لذيذة نفس الوطء. وإذا قالوا. فلان طيب الخلق، فإنما يريدون الظرف والملح....»(٤) وأورد الجاحظ معاني أخرى كثيرة تحملها لفظة (طيبات) مما يدل على حسن اختيار النظم القرآني لها، لما تحمل من وفرة الدلالات.

وفي قوله تعالى يحكي قول بنت شعيب في موس بن عمران: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾(٥) جمع جميع ما يحتاج إليه في الكلمتين(٦)...

ولاحظ دقة الألفاظ القرآنية وإيجازها في قوله عز وجل: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ فقد جمع بقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ النجم والشجر، والملح واليقطين، والبقل والعشب. فذكر ما يقوم

---

١ ـ الحيوان: ٢/١٨٨.
٢ ـ البقرة: ٥٧، ١٨٢.
٣ ـ البقرة: ٨٧.
٤ ـ الحيوان: ٤/٥٧ ـ ٥٩.
٥ ـ القصص: ٢٦.
٦ ـ من كتاب الوكلاء، ضمن الرسائل: ٤/١٠١.

على ساق وما يتفنن، وما يتسطح، وكل ذلك مرعى، ثم قال على النسق: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ فجمع بين الشجر والماء والكلأ والماعون كله، لأن الملح لا يكون إلا بالماء، ولا تكون النار إلا من الشجر.....»(١).

وتحدث عن هذه الميزة أيضا في قوله تعالى يصف خمر أهل الجنة: ﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾ فهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا(٢) وكأنه تبارك وتعالى قال: (لا سُكر فيها ولا خُمار) (٣).

وقال تعالى يذكر فاكهة أهل الجنة: ﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ فجمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني(٤).

ومن الواضح من هذه الأمثلة التي سقنا نماذج منها أنها جميعاً مما أطلق عليه البلاغيون بعد ذلك اسم (إيجاز القصر) وهو التعبير عن المعنى الكثير في اللفظ اليسير، ويبدو أن الجاحظ قد وضع كتابا جمع فيه آيا من القرآن الكريم اتسمت بالإيجاز، وأراد أن يوضح الفرق بين إيجاز النظم القرآني والإيجاز الذي يرد في كلام البشر. يقول: «وقد ذكرنا أبياتاً تضاف إلى الإيجاز وقلة الفضول. ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن، لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز، والجمع للمعاني الكثيرة، بالألفاظ القليلة على الذي كتبته لك في باب الإيجاز وترك الفضول....»(٥).

وما ندري على وجه التحديد أي كتاب هذا الذي يشير إليه الجاحظ؟ أهو كتاب (نظم القرآن) نفسه، أم هو كتاب آخر؟

وإذا كان الإيجاز سمة بارزة في التعبير القرآني فإن هذا لا يعني أنه يطّرد دائما، وذلك لأنه يرتبط بقاعدة مهمة وهي (مراعاة مقتضى الحال) وما يجب في كل مقام من مقال. إن اللجوء إلى الإيجاز أو غيره من أساليب القول

---

١ ـ البيان والتبيين: ٣/٣٣. ٢ ـ الحيوان: ٣/٨٦.

٣ ـ من رسالته في المعلمين، ضمن رسائله: ٣/٤٣.

٤ ـ الحيوان: ٣/٨٦. ٥ ـ الحيوان: ٣/٨٦.

تستدعيه حالة المخاطبين، والمقام الذي ينشأ فيه الكلام، ولذلك يخرج النظم بحسب المخاطب، فقد لاحظ الجاحظ أن القرآن الكريم إذا اتجه بخطابه إلى العرب الفصحاء أوجز واقتضب لبلاغتهم وسرعة فهمهم، وإذا اتجه إلى اليهود أطال وأسهب لغبائهم وقلة فصاحتهم يقول: «ورأينا الله ـ تبارك وتعالى ـ إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني اسرائيل، أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام...»(١).

وأشار إلى ارتباط التعبير القرآني بمراعاة مقتضى الحال من حيث إيجازه وإطنابه عندما تحدث عما ورد في القرآن الكريم من الترداد والتكرار في القصص فقال: «وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حد ينتهي إليه، ولا يؤتى على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواص. وقد رأينا الله ـ عز وجل ـ ردد ذكر قصة موسى وهود، وهارون وشعيب، وإبراهيم ولوط، وعاد وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبي غافل، أو معاند مشغول الفكر، ساهي القلب..»(٢).

ومن مزايا التعبير القرآني التي لاحظها الجاحظ أن الالفاظ يراعى فيها عند التاليف أن يكون بينها نوع من التقارب والتجانس، وأن توحد بينها صلة ما، فتبدو عندئذ مؤتلفة مؤتنسة، لا تنافر بينها ولا تباعد ولاجفوة، فبعض ألفاظ القرآن تأتي متصاحبة لا تكاد تفترق «مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن، والإنس»(٣).

وقد سمى البلاغيون هذا فيما بعد باسم (مراعاة النظير) أو الائتلاف، أو التناسب، وهو ذكر ألفاظ متناسبة على غير التضاد.

---

١ ـ الحيوان : ١/ ٩٤.

٢ ـ البيان والتبيين : ١/ ١٠٥.

٣ ـ البيان والتبيين : ١/ ٢١.

ب ـ القرآن نظم متفرد:

والقرآن أسلوب فريد في النظم، ونمط متميز من التأليف، لم تعرفه العرب من قبل، ولم يكن لها عهد بهذا الضرب من الكلام، وهم أهل الفصاحة والبيان، وفرسان البلاغة والقول. فهو خارج على جنس ما عرفت من ضروب الشعر، والنثر، والخطب، والأمثال، وقد أشار الجاحظ إلى هذا الضرب من وجوه النظم عندما رأى ناسا يرون ما في القرآن من إيقاع ووزن فيحسبون ذلك شعراً، أو يرون التزامه في بعض المواطن روياً واحداً، أو فاصلة متشابهة، فيهيأ لهم أن بينه وبين السجع صلة، وقد نفى الجاحظ أن يكون القرآن على أي ضرب من ضروب الكلام التي عرفتها العرب، واصطلحوا عليها في كلامهم، يقول: «ولابد من أن نذكر أقسام تأليف جميع الكلام، وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان، وتأليفه من أكبر الحجج...»(١).

ولكن في القرآن الكريم آيات جاءت على بعض أوزان الشعر المعروفة عند العرب، وقد جعل هذا بعض الجهلة يحسبها شعراً، ويأخذ في الطعن على القرآن زاعما أنه شعر، فينفي الجاحظ ذلك بشدة، ويبين أن للشعر حدوداً معينة، ومقداراً خاصاً، فليس أي كلام اتفق له وزن خاص شعراً، لأن الناس ـ في أثناء حديثهم العادي ـ قد يخرج شيء من كلامهم ـ دون اتفاق أو عمد ـ على وزن معين، فهل يسمى ذلك شعراً؟ وهل يسمى أصحابه شعراء؟ أثار الجاحظ هذه القضية من خلال تعرض بعضهم لقوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ طاعناً فيه، زاعماً أنه شعر، لأنه في تقدير (مستفعلن مفاعلن) فيقول الجاحظ عندئذ مبينا حد الشعر، دافعا أي صلة بينه وبين القرآن الكريم: «اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لو جدت فيها مثل: مستفعلن

---

١ ـ البيان والتبيين: ١/٣٨٣.

مستفعلن كثيراً، ومستفعلن مفاعلن، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً، ولو أن رجلا من الباعة صاح. من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات، وكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام، وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً...»(١).

وهنا يعلن الجاحظ تفرد القرآن بنظم معين لم تعرفه العرب، وهو في هذا يذكرنا بقول الوليد بن المغيرة من قبل عندما استمع إلى القرآن وسألته قريش عنه فقال: «والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه...»(٢).

ولقد تبنّى الباقلاني بعد ذلك فكرة الجاحظ هذه، وجعل تفرد القرآن بنظم عجيب معين خالف فيه مألوف العرب في كلامهم أمراً رئيساً في الإعجاز، فقال: إن «نظم القرآن ـ على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه ـ خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام..»(٣) ثم يستفيض الباقلاني في شرح الفكرة، مستفيدا من ملاحظات الجاحظ العابرة، كما التقط الباقلاني حديث الجاحظ عن حد الشعر، وإثارته لمسألة الشعر في القرآن، فتوسع في ذلك، وعقد فصلا خاصا (في نفي الشعر من القرآن)(٤) وكأن الأمر محتاج إلى دليل.

---

١ ـ المصدر السابق: ١/٢٨٩. ٢ ـ الإتقان: ٤/٥.

٣ ـ إعجاز القرآن: ٣٥. ٤ ـ المصدر السابق: ٥٤.

ج ـ الصورة البلاغية في القرآن :

عـرض الجاحظ لكثير من الآيات القرآنيـة، ولا سيما في كتاب الحيـوان، فبين ما اشتملت عليـه من ألوان البلاغة، وشرح وجـه الجمال فيها. وهو ـ وإن لم يفـرق بين ألوان البلاغـة المختلفـة، ولم تتمايز ألوان البيـان عنده من ألوان البديع، أو المعـاني كما سيفعل البلاغيون المتأخرون ـ كـان منتبها إلى الفروق الدقيقـة الموجودة بينهـا، وكان على إدراك تام بمـدلول كل منها. كـانت ألوان البـلاغة تتـداخل عنده، وقد يطلق عليهـا جميعاً بيـاناً، أو بديعاً، أو براعـة، أو فصـاحـة، أو غير ذاك، ولكنه ـ خارج نطاق المصطلحـات التي لم تستقـر على أيدي البلاغيين إلا في فترة متأخـرة ـ كان مـدركاً لمضمون كل منهـا، وما تعبر عنه إدراكاً واضحاً متميزاً.

عـرض لبعض التشبيهـات التي وقعت في آي الذكـر الحكيم، فأوضح المشبـه والمشبـه به، وكشف عـن الصلة أو وجـه الشبـه بينهما، وبين دلالتـه وجماله. توقف طويلا عند قـوله تعالى: ﴿إنها شجـرة تخرج من أصل الجحيم طلعها كأنـه رؤوس الشياطين﴾ الذي طعن فيه بعـض المتشككين بسبب خفاء المشبه به، فيما يزعمـون، فإن الناس لم يروا شيطانا قط، ولم يشاهدوه، حتى يشبـه بـه، وقـد رد أبو عبيـدة على ذلـك منْ قبل رداً لغـويا بأن ذكـر أن هذا الاستعمال وارد في كلام العـرب، وهو من أساليبهم في التعبير، وهـو على نحو قول امرىء القيس :

ومسنونةٌ زرْقٌ كأنياب أغوال

وكانت هذه الآية، وما أثير حول التشبيـه فيها سببا في وضع أبي عبيدة لكتـابه (مجاز القرآن) ولكن الجاحـظ لم يعجبه هذا التفسير اللغـوي، وذهب يفصل القول في وجه الشبه، مبيناً سر جماله، فأوضح أنه منتزع من غير ما هو مدرك بالحس اعتمادا على ثبوته في الإدراك عن طـريق العرف والعادة، وتناقل الناس له، فالشيطان عند الناس ـ وإن لم يروه ـ مـرتبط بالقبح والاستهجان، وعلى صورته في نفـوسـهم بني التشبيه، يقـول: «وليس أن الناس رأوا شيطاناً

قط على صورة، ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الامم استقباح جميع صور الشيطان، واستسماجه وكراهته، وأجرى على ألسنتهم جميعهم ضرب المثل في ذلك، رجع بالإيحاش والتنفير، وبالإخافة والتفزيع، إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الامم، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن...»(١).

ولعل قول بعض المفسرين إن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن نوع من محاولة رد الشبهة عن التشبيه، لأن المشبه به عندئذ أمر مدرك معلوم، ولكن الجاحظ يرفض ذلك. ولا يعتد به وقد عرض لهذه الآية في موضع آخر من الحيوان، ففصل القول في دلالة التشبيه، وأوضح جوانب أخرى من جماله، وكرر مرة ثانية رفضه لتفسير أهل الظاهر، وحملهم رؤوس الشياطين على غير محملها الحقيقي، يقول: «زعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن، لها منظر كريه. والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير، وقالوا: ما عنى إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم، من فسقة الجن ومردتهم. فقال أهل الطعن والخلاف: كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه، ولا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق، أو خبر صادق، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة، والتفزيع منها. وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره؛ فكيف يكون الشان كذلك، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه، أو صوره لهم واصف صدوق اللسان، بليغ في الوصف، ونحن لم نعاينها، ولا صورها لنا صادق... قلنا: وإن كنا لم نر شيطانا قط، ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين: أحدهما أن يقولوا: لهو أقبح من الشيطان. والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطاناً على جهة التطير له، كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء.. ففي إجماع المسلمين، والعرب وكل من لقيناه

---

١ ـ الحيوان: ٤/٤٠.

على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح، والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم بغاية التثبيت»(١).

وهكذا يصر الجاحظ على رفض المدلولات المادية للتشبيه على نحو ما أراده أهل الظاهر، لأنها لا تثير في الخيال ما تثيره كلمة (الشيطان) من الخوف والرعب، وكأن مهمة التشبيه القرآني إثارة الخيال عن طريق استدعاء تلك الصورة المخيفة، وهي صورة الشيطان. وقد عرف هذا النوع من التشبيه، عند البلاغيين المتأخرين فيما بعد، باسم التشبيه الوهمي، وهو من التشبيه العقلي(٢).

وتعرض للتشبيه في قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وقد طعن في هذا التشبيه أيضا بعض المعترضين، وزعموا أنه ليس بين المشبه والمشبه به صلة واضحة، أو علاقة قوية، وأن هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام، لأنه قال: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ فما يشبه حال من أعطي شيئا فلم يقبله ـ ولم يذكر غير ذلك من حال المشبه، غير عرض الآيات عليهم، وعدم قبولهم إياها ـ بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولى ذاهباً، وإن تركته شد عليك ونبح. مع أن قوله: يلهث لم يقع في موضعه، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد، وحر شديد، ومن تعب، وأما النباح والصياح فمن شيء آخر. وفي دفاع الجاحظ عن هذا التشبيه بيّن قصر نظر المعترض، لانه لم يلمح من حال المشبه إلا صورة عرض الآيات عليهم، ورفضهم لها، مع أننا أمام صورة فنية أعمق من ذلك، وأبعد دلالة، فقد شبه القرآن الكريم الذي أعطي الآيات بالكلب في حالتين مختلفتين، أومن وجهين اثنين: فهو من حيث حرصه على الآيات، وطلبه لها، كالكلب في حرصه على ما يريد، وطلبه له، إذ يبذل كل ما يستطيع في سبيل ذلك، وهذا الذي أوتي الآيات فرفضها، ولم يذعن

---

١ ـ الحيوان: ٦/٢١٢. ٢ ـ انظر الإيضاح: ٣٣٦.

لها، بعد طول حرص، وكثـرة جهد، هو كذلك ـ من الناحيـة الأخرى ـ كالكلب الذي راح ينبح بعـد طردك له. يقـول: «ليس يبعد أن يشبـه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات، في بدء حـرصـه عليها، وطلبه لها، بالكلب في حـرصــه وطلبــه، فإن الكلب يعطي الجد والجهـد من نفســه في كل حــالة من الحالات. وشبــه رفضــه وقذفــه لها من يديه، ورده لها، بعــد الحرص عليهــا، وفــرط الرغبة فيهــا، بالكلب إذا رجع ينبح بعـد إطْرادك له.. وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسـة في وزن طلبها، والحرص عليها. والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلا عليك، ومدبراً عنك، لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش..»(١).

وقـد يسمّي الجاحظ التشبيه مثـلا. وقد أشــار في الحيوان إلى عـدد من أمثــال القرآن الكريم، فبين دلالتهــا، وتحدث عن وجـه الشبـه فيها. ذكـر الله البعوضــة في قوله تعالى: ﴿إن اللـه لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعـوضة فما فوقهــا﴾ فقللها وحقّرها، وضرب المثل بها في الحقارة. وضرب مثـلا على عجز الإنسان وضعفه بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقـذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ فقد قـرع الطالب في هذا الموضع بإنكاره وضعفه، إذ عجـز ضعفه عن ضعف مطلوب لا شيء أضعف منه، وهو الذباب، وضرب مثـلا على الوهن والضعف بالعنكبـوت في قـوله تعــالى. ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبـوت﴾ فدل ـ بوهن بيتــه ـ على وهن خلقه، فكان هذا القول دليلا على التصغير والتقليل.. وضرب المثل بالكلب في قوله: ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليـه يلهث أو تتركه يلهث﴾ فكان في ذلك دليل على ذم طبــاعه، والإخبار عن تسرعه وبذائه، وعن جهله في تدبيره، وتركه وأخذه. وضرب مثلا بالذرة في قـوله: ﴿فمن يعمـل مثقـال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثـال ذرة شراً يره﴾ من حيث إنه من الغــايات في الصغــر والقلـة، وفي خفــة الوزن، وقلة

---

١ ـ الحيوان: ٢/١٧.

الرجحان، وذكر الحمار فقال: ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ فجعله مثلا في الغفلة والجهل، وفي قلة المعرفة، وغلظ الطبيعة. وذكر القردة والخنازير في قوله: ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ فجعلهما مثلا في القبح والتشويه، ونذالة النفس(١).

وتوقف الجاحظ عند المجاز في القرآن الكريم، فأشار إلى عدد من الأمثلة، وكان يطلقه أحيانا على جميع الصور البيانية إذا لم يذكر الاستعارة أو التشبيه، وقد أوضح أكثر من مرة أن النظم القرآني جار على طرائق العرب وأساليبهم في استعمال مختلف الصور البيانية، لأنه خاطبهم بما يفهمون. أشار إلى ما رد في القرآن من المجاز والتشبيه بالأكل، فالعرب تقول: النار تأكل وتشرب على المثل، وعلى الاشتقاق، وعلى التشبيه، لأن النار في الحقيقة لا تأكل ولا تشرب، وقد قال تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ فاستعمل مجاز الأكل في النار. يقول الجاحظ: «علمنا أن الله ـ عز وجل ـ إنما كلمهم بلغتهم»(٢).

ومن مجاز الأكل أيضا قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ وقوله: ﴿أكالون للسحت﴾ وقد لاحظ: أن المجاز يكتسب في العادة دلالة معينة، فأكل المال تعني أخذه بغير حق، ولذلك يطلق الأكل «وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحلل، وركبوا الدواب، ولم ينفقوا منها درهما واحدا في سبيل الله» ومثله قوله تعالى: ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ فهذا مجاز آخر(٣).

وتحدث عن مجاز الذوق، فبين أن من أساليب العرب قول الرجل ـ إذا بالغ في عقوبة عبده: ذق، وكيف ذقته؟ وكيف وجدت طعمه؟ وعليه قوله ـ عز وجل ـ ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾(٤).

---

١ ـ الحيوان: ٤/٣٧ ـ ٣٩، وانظر أمثلة اخرى في الحيوان: ٢/٢٥٥، ٣/٣٨٣، ٤/٣٩٠ وغيرها.

٢ ـ الحيوان: ٥/٢٣.
٣ ـ الحيوان: ٥/٢٥.
٤ ـ الحيوان: ٥/٢٨.

وكما يجري في كلام العرب أن يقولوا: ذقت ما ليس بطعم، قالوا: طعمت لغير الطعام، قال العرجي:

وإن شئت حرمت النساء سواكمُ   وإن شئت لم أطعمْ نُقاخاً ولا بَرْداً

وعليه قوله تعالى: ﴿إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ يريد: لم يذق طعمه(١).

وتوقف الجاحظ عند بعض مجازات القرآن الكريم يرد عنها شبهاً أثارها بعض المتشككين والملحدين، لجهلهم بطرائق العرب ـ الذين نزل القرآن بلسانهم ـ في التعبير، وعدم بصرهم «بوجوه اللغة، وتوسع العرب في لغتها، وفهم بعضهم عن بعض، بالإشارة والوحي...»(٢) ومن ذلك طعنهم في قوله تعالى في النحل: ﴿يخرج من بطونها شراب﴾ وعندهم أن الشمع «شيء تنقله النحل، مما يسقط على الشجر، فتبني بيوت العسل منه، ثم تنقل من الأشجار العسل الساقط عليها... إلا أن مواضع الشمع وأبدانه خفي، وكذلك العسل أخفى وأقل. فليس العسل بقيء ولا رجع، ولا دَخَل للنحلة في بطن قط...» ويوضح الجاحظ أن القرآن قد سمى العسل شراباً، وهو ليس بشراب، على المجاز، لأنه «شيء يحول بالماء شرابا، أو بالماء نبيذاً، فسماه ـ كما ترى ـ شراباً إذ كان يجيء منه الشراب. وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماء اليوم بأمر عظيم، وقد قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم   رعيناه وإن كانوا غضابا

فزعموا أنهم يرعون السماء وأن السماء تسقط. ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها. ومن حمل اللغة على هذا المركب، لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً. وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم، وبه وبأشباهه اتسعت، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة،

---

١ ـ الحيوان: ٥/ ٣٢.   ٢ ـ الحيوان: ٥/ ٤٢٣.

وهذيلاً، وضواحي كنانة، وهؤلاء أصحاب العسل، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة، وعسلة ساقطة، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب، أو طعن عليه من هذه الحجة.....»(١).

وتحدث الجاحظ عن الاستعارة في بعض الآيات، فبين وجه الشبه فيها، ولاحظ في تعريفها أنها قيام كلمة مقام أخرى لوجود علاقة أو صلة بينهما، أو تسمية الشيء بغير اسمه لوجود هذه العلاقة. ففي قوله تعالى: ﴿وإن تدعهم إلى الهدى لا يهتدوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ وقوله: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ وقوله: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ يقول الجاحظ: «ولو كانوا صما بكما وكانوا هم لا يعقلون لما عيرهم بذلك، كما لم يعير من خلقه معتوها كيف لم يعقل، ومن خلقه أعمى كيف لم يبصر، وكما لم يلُم الدواب ولم يعاقب السباع، ولكنه سمى البصير المتعامي أعمى، والسميع المتصامم أصم، والعاقل المتجاهل جاهلاً .»(٢).

كما توقف عند قوله تعالى. ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ راداً على من زعم أن السعي لا يكون إلا بالأرجل، موضحاً أيضا أن هذا جهل بطرائق العرب في التعبير فهذا من التشبيه والبدل، فهو كقول القائل. ما هو إلا كأنه حية، أو كأن مشيته مشية حية «ومن جعل للحيات مشياً من الشعراء أكثر من أن نقف عليهم. ولو كانوا لا يسمون انسيابها وانسياحها مشياً وسعياً لكان ذلك مما يجوز على التشبيه والبدل، وأن قام الشيء مقام الشيء أو مقام صاحبه، فمن عادة العرب أن تشبه به في حالات كثيرة. وقال الله تعالى: ﴿هذا نُزُلهم يوم الدين﴾ والعذاب لا يكون نزلاً، ولكنه أجراه مجرى كلامهم، كقول حاتم حين أمروه بفصد بعير، وطعنه في سنامه، وقال: هذا فَصْدُه. وقال الآخر :

فقلت يا عمرو أطعمني تمراً فكان تمري كَهْرَة وَزَبْرا...»(٣)

---

١ ـ الحيوان : ٥/٤٢٦. ٢ ـ الحيوان : ٤/٢١١.
٣ ـ الحيوان : ٤/٢٧٤.

وعلى تأويل قوله: ﴿هذا نُزُلهم يوم الدين﴾ قوله تعالى: ﴿جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾ وقوله: ﴿حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم فجعل للنار خزائن، وجعل لها خزنة، كما جعل في الجنة خزائن، وجعل لها خزنة، ولو أن جهنم فتحت أبوابها، ونُحّي عنها الخزنة، ثم قيل لكل لص في الأرض، ولكل خائن في الأرض: دونك، فقد أبيحت لك لمادنا منها، وقد جعل لها خزائن، وخزنة، وإنما هذا على مثال ما ذكرنا.. وهذا كثير في كلام العرب...(١).

وأورد في البيان والتبيين أمثلة أخرى على الاستعارة، وشرحها مبينا دلالة التشبيه فيها. علق على قوله تعالى: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ فذكر أن «العذاب لا يكون نزلا، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم سمي باسمه... وقال الله ـ عز وجل ـ ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ وليس في الجنة بكرة ولا عشي، ولكن على مقدار البُكر والعشيات. وعلى هذا قول الله عز وجل: ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم﴾ والخزنة: الحفظة، وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ، ولا يختار دخولها إنسان فيمنع منها، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به....»(٢).

رد الشُبَه عن النظم القرآني :

توقف الجاحظ في كتاب الحيوان عند عدد من الآيات القرآنية التي طعن فيها بعض الملاحدة والمتشككين، وأثاروا من حولها بعض الشبه في زعمهم فراح يرد عنها، ويبين إحكام النظم القرآني وتميزه، بحيث لا يستطيع أحد أن يجد فيه مطعنا. وقد أوضح الجاحظ أكثر من مرة ـ كما مر معنا في ثنايا الكلام المتقدم ـ أن طعن الطاعنين مرده إلى قلة المعرفة بأساليب التعبير العربي، وضعف البصر بطرائق القوم، وأنماط الكلام، فمن لم يؤت الخبرة بالبيان،

---

١ ـ الحيوان : ٤/٢٧٨.　　　٢ ـ البيان والتبيين : ١/١٥٢.

والقدرة على التمييز، لم تستبن له روعـة النظم القرآني، وخفي عليه الكثير من أسراره ودقائقه وجماله.

وأشـار الجاحظ إلى فضل المتكلمين ـ ولا سيما المعتزلة ـ في هذا البـاب، وأشـاد بمقـدرتهم على التصـدي للمـلاحـدة المتشككين، وذب التهم التي يوجهونها إلى القـرآن الكريم فقال: «وليس هؤلاء ممن يفهم تـأويل الأحاديث، وأي ضرب منها يكون مـردودا، وأي ضرب منها يكون متأولا... ولـذلك أقول: لولا مكان المتكلمين لهلكت العـوام، واختطفت واسترقـت، ولولا المعتـزلة لهلك المتكلمون...»(١).

وقد مـرّ معنا في سياق الكلام المتقدم نماذج من دفـاع الجاحظ عن بيان القرآن الكريم، وإيضاح جمال الصور البيانية التي خفي مدلوها على الطاعنين، وفي الحيوان أمثلة كثيرة. توقـف عند قوله تعالى: ﴿والله خلق كـل دابة من ماء فمنهم مـن يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهـم من يمشي على اربع، يخلق الله ما يشاء﴾ الذي طعـن فيه بعضهم، لأن جميع الحيوان عندهـم اربعة أقسـام: شيء يطير، وشيء يمشي، وشيء يعوم، وشيء ينسـاح «وقد وضع الكلام على قسمة أجناس الحيـوان، وعلى تصنيف ضروب الخلق، ثم قصر عن الشيء الذي وضع كلامه عليه، فلم يذكر مـا يطير وما يعوم، ثم جعل ما ينسـاح ـ مثل الحيـات والديدان ـ ممـا يمشي، والمشي لا يكون إلا برجل...» وقـد رد الجاحظ عليهم مبينا عدم معـرفتهم بطبيعة التعبير القرآني، فـالكلام غير قائم على استقصاء أصناف القـوائم. فالقرآن يقول: ﴿وقـودها الناس والحجارة﴾ فيترك ذكر الشيـاطين مع أنهم من وقودها. ويقـول: ﴿خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً﴾ فيترك الاستقصاء أيضـا، لأنه أخرج من هذا العموم عيسى بن مـريم، وقصد في مخرج هذا الكلام إلى جميع ولد آدم. وقـال: ﴿هل أتى على الإنسـان حين من الـدهر لم يكن شيئاً مـذكـوراً﴾ فـأدخل فيهـا آدم وحواء، ثم قال على صلة الكلام: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾. فأخـرج منهـا آدم وحـواء وعيسى بن مـريم «وحسن ذلك إذ كـان الكلام لم يوضع على جميع ما تعـرفه النفوس من جهـة استقصـاء اللفظ»(٢). ورد على

---

١ ـ الحيوان: ٤/٢٨٩.
٢ ـ الحيوان: ٤/٢٧١ ـ ٢٧٢.

والبدل، وقد توقفنا عند ذلك قبل قليل.

وأشار إلى طعن الطاعنين في قوله تعالى في الشهب وفي استراق الشياطين السمع: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين﴾ فقد زعم هذا الطاعن أن أحدا لم يجد قط كوكبا خلا مكانه، من سكان الصحاري والبحار ومن يراعي النجوم للاهتداء، وقد رد الجاحظ أيضا طعن هذا الطاعن إلى الجهل بالتعبير العربي، فقد يطلق في أسلوب العرب الكل ويراد الجزء «قد يحرك الإنسان يده، أو حاجبه، أو إصبعه، فتضاف تلك الحركة إلى كله، فلا يشكون في أن الكل هو العامل لتلك الحركة. ومتى فصل شهاب من كوكب، فأحرق وأضاء في جميع البلاد، فقد حكم كل إنسان بإضافة ذلك الإحراق إلى ذلك الكوكب، ولم يقل أحد إنه يجب في قوله تعالى: ﴿وجعلناها رجوما للشياطين﴾ أنه يعني الجميع(١).

ومن الواضح ان التصدي لرد الشبه والمطاعن عن النظم القرآني هو جانب آخر من جوانب الحديث عن البيان القرآني، لأنه إشعار بخلو كتاب الله من أي مغمز أو مطعن، وأنه في الذورة العليا من التأليف والبلاغة، وأنه ليس في طوق البشر أن يأتوا بسورة من مثله، بله أن يجدوا فيه مطعنا أو نقيصة.

---

١ ـ الحيوان: ٦/٤٩٧، وانظر أمثلة اخرى في الحيوان: ٤/١٠٠، ٦/٢٧٢. وفي رسالة الرد على النصارى. ضمن رسائل الجاحظ: ٣/٣٠٣ ومابعدها.

خاتمـــــة

وبعـد، فقـد كـان الجاحظ من السبـاقين إلى الحديث عن بلاغـة القـرآن الكريم، وقـد رد هذه البلاغة ـ كما رأينـا ـ إلى نظمه البديع، وتـأليفه العجيب، وتميزه بأسلـوب فريد لا يقدر على مثلـه أحد من فصحاء العـرب وبلاغييهم. وإذا كان كتـابه الخاص بنظم القرآن لم يصل إلينا، فقد حاولنا ـ من خـلال ما تبقى لدينا من آراء متناثرة ـ أن نكوِّن صـورة عن فكرة الجاحظ عن الإعجاز، ونظرته إلى نظمـه البديع، فوجـدناه يتحدث عن تفـرد القرآن بأسلوب جـديد يخالف جميع طرائق التأليف التي عرفتهـا العرب، فهو ليس شعـراً، ولا نثراً، ولا مـزدوجـاً، ولا سجعـاً. ثم إن هـذا النظم يتميـز بحسن الصـوغ، وكمال الترتيب، ودقة انتقاء الألفـاظ، وحسن اختيارها، بحيث تكون أقدر على التعبير عن المعنى المراد، ينبع ذلك من قـدرة لا يؤتاها أحد من البشر، على التمييـز بين دلالات الألفاظ المختلفـة، ومعرفـة الفروق الدقيقـة بين المترادفات منهـا. ومن ملامح التميـز في هذا النظم القرآني جمال التصوير، وروعـة تشخيص المعاني في صور بيانية رائعـة تبرزها وتجليها وتثير خيال السامع، فيقع تحت تأثيرها وسحـرها. وهو نظم لا خلل فيه ولا اضطراب، ولا يملك طاعن ـ مهما جهـد ـ أن يجد في هذا التأليف ثغرة.

ولســـوف يسلك الحديث عن الإعجـــاز سبيل التطـور، وستكون فكرة النظم أبرز ما عـرف في قضية الإعجـاز، وأكثره وجاهـة، وسببا في وضع علم المعاني، وطريقا إلى علم البيان، وسيرتبط الحديث عنها بعبد القاهر الجرجاني، ومن قبله القاضي عبدالجبار، ولكن السباق الأول هو الجاحظ.

مصادر البحث :

- إعجاز القرآن: الباقلاني، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، مصر: ١٩٦٣.

- الإتقان في علوم القرآن : السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة، مصر : ١٩٧٤م.

- الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد : أبو الحسين الخياط، تحقيق نيبرج، دار الكتب، مصر : ١٩٢٥م.

- الإيضاح: القزويني، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت : ١٩٧٥.

- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر : ١٩٧٥.

- الحيوان : الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، البابي الحلبي، مصر : ١٩٦٦.

- رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر: ١٩٧٩م.
  ومن مصادر البحث من هذه الرسائل :
  ١ ـ تفضيل النطق على الصمت.
  ٢ ـ حجج القرآن.
  ٣ ـ خلق القرآن.
  ٤ ـ الرد على النصارى.
  ٥ ـ العثمانية.
  ٦ ـ في المعلمين.
  ٧ ـ الوكلاء.

- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة: لأبي القاسم البلخي، والقاضي عبدالجبار، والحاكم الجشمي، تحقيق فؤاد سيد، نشر الدار التونسية.

- مقدمة ابن خلدون، مطبعة التقدم، مصر.

البرهـــان النسفـــي ....
وتفسيره: «كشف الحقـائق»

د. عبادة بن أيوب الكبيسي *

مقدمـة

الحمد لله. رفع الذين أوتوا العلم درجات، وجعلهم سبحانه في أعلى الطبقـات، ونوه بقدرهم في كثير من الآيات، وورثهم علوم الأنبيـاء، وكلفهم بتبليغ الرسـالات، والصلاة والسـلام على إمـام العلماء ومـرشـد الفقهاء، وعلى آله وأصحـابه، وأنصـاره وأحبـابه، ومن اقتفى أثرهم ونهج نهجهم إلى يوم الدين.

وبعـــد،،،

فإن من شأن طالب العلم، النظر دائما في كتب التراجم، والبحث عن سيرة أسلافه من أهل العلم، يتطلع إلى آثارهم، ويقف على جهودهم، ويوثق صلته العلمية بهم، فتنمو بذلك قدراته، وتتوسع مداركه.

ومن هذا المنطلـق بدأت أبحث.. فـوقفت ـ فيما وقفت عليـه ـ على شخصيـة متميـزة، ذات عقليـة نيرة، وفكرة متقـدة، خلفت آثاراً نافعـة، تدل على دقـة الفهم وبعـد النظر، غير أنها لم تظهـر ظهـور أترابها، فلم تحفـل بها الدراسـات المتخصصـة، ولم تدرج ضمن المباحث المستفيضة.

---

* مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي.

فكان لزاماً عليّ ـ وفاء لحق العلم وأهله ـ أن أعرّف بتلك الشخصية الغائبة عن أعين الكثيرين، وأكتب بحثاً عن علم لم أقف على من كتب فيه، اللهم إلا أسطرا محدودة لا تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة !!(١) متناثرة هنا وهناك. غير شافية ولا كافية.

فشمرت عن ساعد الجد، واستعنت بالله تعالى، فطوفت على المكتبات، وقلبت بطون المراجع من مخطوطات ومطبوعات، فتم لي من ذلك هذه الصفحات، التي أرجو أن تكون باباً يتسع لدخول الباحثين، الذين قد يضيفون، فيكشفون عن جوانب كانت خافية، وينفضون غباراً عن مآثر كانت منطمرة.

وإذا كانت قلة الكم من مآخذ هذا البحث، فعذري في ذلك أن هذا ما أمكنني الوقوف عليه، بعد بذل الجهد وامعان النظر، آملاً أن تكشف لي الدراسات اللاحقة ما غاب عني الآن من أخبار هذا الامام وآثاره، وشاكراً سلفاً لكل من يزودني بشيء مما يتعلق بسيرته أو ما يتصل به.

ورايت أن أقسمه إلى قسمين وخاتمة :

القسم الأول : وفيه مبحثان :

المبحث الأول: حياته.. من حيث الاسم والولادة والموطن والرحلات، ومكانته العلمية وثناء العلماء عليه، ثم التحقيق في سنة وفاته.

والمبحث الثاني : آثاره... وأذكر فيه ما وقفت عليه من مصنفاته، مع ذكر أماكن وجودها، حيث لم تزل في عداد المخطوطات. شأن الكثير من تراث أسلافنا ـ رحمهم الله تعالى ـ.

والقسم الثاني : وفيه مبحثان :

---

١ ـ رغم كثرة المراجع التي ترجمت للبرهان النسفي، إلا انها لا تزيد عما ذكر، وأغلبها مكرر، يأخذ اللاحق من السابق بلا مزيد.

المبحث الأول: التعـــريف بتفسيره «كشـف الحقـائـق» باعتبـــاره أهم مصنفاته وأشهرها.

والمبحث الثاني : علاقته بالتفسير الكبير للرازي، وطريقته فيه.

وأما الخاتمة : فـأذكر فيها أهم نتـائج البحث في نقاط محددة، مـع ذكر بعض مزايا تفسيره وخصائصه.

القسم الأول : حياته وآثاره

المبحث الأول : حياته(١) وفيه :

اسمه :محمد بن محمد(٢)، أبو الفضل(٣)، برهان الدين(٤)، النسفي، الحنفي(٥).

مولده :

تذهب أكثر المراجع التي ترجمت له، إلى أن ولادته كانت في سنة ستمائة، نهاية القرن السادس الهجري، إلا أن تلميذه ابن الفوطي قال: مولده تقريبا

---

١ ـ تولت كتب التراجم الحديث عن البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ ولكنه ـ كما قلنا ـ حديث مقتضب، بأسطر معدودة قد تقل عن أصابع اليد الواحدة، بعضها أخذ عن بعض، من تلك التراجم :

العبر ٥/٣٤٦، دول الإسلام ٢/١٨٨، الجواهر المضية ٣/٣٥١، الوافي بالوفيات ١/٢٨٢، مرآة الجنان ٤/٢٠٠، تاج التراجم ص ١٩٨، تراجم الاعاجم ١/ل ١٥٤أ، طبقات الحنفية ١/ل ١٢٩أ، تذكرة النبيه ١/١٢٠، السلوك للمقريزي ١/٣/٧٤٦، شذرات الذهب ٥/٣٨٥، الفوائد البهية ص ١٩٤، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/٤٦٧ و٦١٥ وذيله ١/٨٤٩، طبقات الفقهاء ـ طاش كبرى زاده ص ١١١، عقد الجمان ٢/٣٧٧، طبقات المفسرين للداودي ٢/٢٥٠، هدية العارفين ٢/١٣٥، الغرف العلية ٢٦٧ ب، الأثمار الجنية ل ١١٨أ، نيل السائرين ص ١٥٨، معجم المؤلفين ١١/٢٩٧، الاعلام ٧/٣١، معجم المفسرين ٢/٦١٤ وغيرها.

٢ ـ وفي طبقات الحنفية ل ١٢٩أ : محمد بن محمود، وكذا في شذرات الذهب ٥/٣٨٥.

٣ ـ وفي بعض المراجع أبو الفضائل، انظر ـ مثلا ـ الجواهر المضية ٣/٣٥١، وفي بعضها أبو عبدالله. انظر تذكرة النبيه ١/١٢٠، والسلوك ١/٣/٧٤٦.

٤ ـ وفي بعض المراجع البرهان النسفي، انظر ـ مثلا ـ الأثمار الجنية ل ١١٨أ، ولقبه في طبقات الفقهاء ص ١١١ : بالبرهاني.

٥ ـ انظر مثلا ـ الغرف العلية ل ٢٦٧ ب .

سنة ستمائة(١)، وكذا رأيت في تراجم الأعـاجم(٢)، وذكر بروكلمان: أنه ولد سنة ستمائة وست من الهجرة(٣)، أي سنة وفاة الإمام الرازي ـ رحمهما الله تعالى ـ الذي هذب تفسيره ـ كما سيأتي.

موطنـــه :

نسف، بها نشأ وترعرع، وفيها درس وتعلم، واليها ينسب.

ونسف بفتح النون والسين: مدينة كبيرة بين جيحـون وسمرقند، خرج منها جماعة كثيرة من أهل العلم في كل فن(٤).

والنسفي ـ كغيره من أهل العلم ـ لم يستقر في وطنه، بل لم يعـد إليه بعد رحلته، حيث شد الرحال تطوافـاً في البلاد ـ كما سيأتي، وإن كانت المراجع لم تسعفنا بتحديد زمن رحلته، ولا المكان الذي قصده وقت خروجه.

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه :

شهد الذين ترجموا للبرهان النسفي، بأنه كان على درجة عالية من العلم والمعـرفـة، لاسيما في العلوم العقليـة من الفلسفـة والمنطق والخلاف والجدل والكلام والحكمـة، وكان في ذلك ـ كما يقول ابـن الفوطي ـ أوحد، فقـد برع في ذلك وصنف التصانيف المشهورة.

وسنذكر هنا طرفاً من أقوال العلماء فيه، فمن ذلك:

قول الإمام شمس الدين الذهبي ت ٧٤٨ هـ :

---

١ ـ انظر الوافي بالوفيات ١ / ٢٨٢، طبقات المفسرين للداودي ٢ / ٢٥٢، معجم المؤلفين ١١ / ٢٩٧.

٢ ـ انظر ١ / ل ١٥٤ أ. [illegible] ٣ ـ انظر تاريخ الأدب العربي ١ / ٦١٥.

٤ ـ انظر معجم البلدان ٥ / ٢٨٥، وفيها يقول ياقوت: والغالب على نسف الخصب.

العلامة البرهان النسفي، المتكلم، شيخ الفلسفة ببغداد، صاحب التصانيف في الخلاف، تخرج به خلق وطالت حياته(١).

وذكر مثل هذا اليافعي ت ٧٦٨ هـ(٢)، وابن طولون ت ٩٥٣هـ(٣).

وقال الصفدي ت ٧٦٤ هـ:

الشيخ برهان الدين النسفي، الحنفي، المنطقي، صاحب التصانيف، ونقل عن تلميذه ابن الفوطي ت ٧٢٣ هـ أنه قال:

هو شيخنا المحقق المدقق، العلامة الحكيم، له التصانيف المشهورة، كان في الخلاف والفلسفة أوحد، متع بحواسه، وكان زاهداً، وكذا صنع العزاوي في تاريخ العراق(٤).

وقال الداودي ت ٩٤٥ هـ:

أبو الفضائل الحنفي، عرف البرهان النسفي، صاحب التصانيف الكلامية الخلافية(٥)، وكذا قال الشيخ مولانا محمد طاهر الفنجفير(٦).

وقال أبو الحسنات اللكنوي ت ١٣٠٤ هـ:

كان إماماً عالماً فاضلا، مفسراً، محدثاً، أصولياً، متكلما، له مقدمة في الخلاف(٧).

وقال العلامة عبدالحي الندوي ت ١٣٤١ هـ:

الشيخ العالم الكبير، أحد العلماء المبرزين في الفقه والأصول والعربية، أخذ عنه خلق كثير من العلماء والشيوخ(٨).

---

١ ـ انظر تاريخ دول الإسلام ٢/١٤٣، والعبر ٥/٣٤٦ ـ ٣٤٧.

٢ ـ انظر مرآة الجنان ٢/٢٠٠.

٣ ـ انظر الغرف العلية ل ٢٦٧ ب.

٤ ـ انظر الوافي بالوفيات ١/٢٨٢، وانظر تاج التراجم ص ٥٨، وتاريخ العراق ١/٣٤٣.

٥ ـ انظر طبقات المفسرين ٢/٢٥٢.

٦ ـ انظر نيل السائرين ص ١٥٨.

٧ ـ انظر الفوائد البهية ص ١٩٤.

٨ ـ انظر نزهة الخواطر ١/١٢٨ ـ ١٢٩.

وقال الزركلي : عالم بالتفسير والأصول والكلام، من الاحناف(١).

وكذا قال عادل نويهض(٢).

وقال محمد رضا كحالة: مفسر، فقيه، أصولي، متكلم، حكيم، منطقي(٣). ووصفه صاحب طبقات الحنفية بأنه كان تصريفياً(٤).

ومن أقوال هؤلاء العلماء الاجلاء ـ رحمهم الله تعالى ـ تتضح لنا شخصية هذا العالم الجليل، وتظهر أمامنا صورته المشرقة، وتبرز مكانته بين العلماء، ودرجته العالية في علمي النقل والعقل.

فهو العالم العلامة، المحقق المدقق، المتضلع في العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والأصول، المتمكن من العلوم العقلية كالجدل والمنطق والحكمة والخلاف والفلسفة والكلام، بل كان إماما مقدما في ذلك ـ رحمه الله تعالى ـ.

ومما تجدر الإشارة اليه: اني لم أقف على من وصفه بكونه محدثاً سوى الإمام اللكنوي، وأيضا فاني لم أقف على شيء من جهوده في الحديث، وعلومه.

كما أني لم أقف على من وصفه بأنه كان تصريفيا سوى صاحب طبقات الحنفية، ولم أستطع تحديد المراد بهذه الكلمة ـ بعد مزيد من التتبع والاستفسار ـ، فهو لم يكن من المتصرفين الذين ذكروا في كتاب: الحوادث الجامعة ممن خدموا زمن الخلفاء كشهاب الدين علي بن عبدالله وكيل الديوان، الذي كان من أكابر المتصرفين(٥)، ونجم الدين حيدر بن الأيسر(٦).

---

١ ـ انظر الاعلام ٧/٣١.
٢ ـ انظر معجم المفسرين ٢/٦١٤.
٣ ـ انظر معجم المؤلفين ١١/٢٩٧.
٤ ـ انظر طبقات الحنفية ل ١٢٩أ.
٥ ـ انظر الحوادث الجامعة ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤ وقال: كان ذا رأي سديد، وتدبير جيد.
٦ ـ المرجع السابق ٤٥٠ وقال: كان حسن السيرة مشكوراً في تصرفاته.

وعزالدين علي بن عصمة(١) وغيرهم. وليست النسبة الى علم الصرف كما هو واضح.

فلم يبق بعد ذلك إلا احتمالان :

الأول : أنه كان ذا قدم راسخة في تصريف المعنى في الدلالات وتوظيفه في المعاني المختلفة(٢).

والثاني : أنه كان ذا دراية بعلم تصريف الاسماء والحروف(٣).

والراجح عندي الأول، بدليل مقدمة التفسير القيمة، التي تعرض فيها

---

١ ـ السابق ص ٤٦١.

٢ ـ والتصريف بهذا المعنى من أقسام علم البلاغة، وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة جاء في القرآن الكريم في غير قصة، منها قصة موسى ـ عليه السلام ـ ذكرت في سور الأعراف وطه والشعراء وغيرها لوجوه في الحكمة، منها التصرف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة، ومنها تمكين العبرة والموعظة، ومنها حل الشبه في المعجزة. انظر النكت في اعجاز القرآن للرماني ت٣٨٦ هـ ـ ص ١٠٢ ضمن رسائل ثلاث للرماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الادبي ـ حققها وعلق عليها: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ـ طبعة دار المعارف بمصر.

٣ ـ وهو علم شريف يتوصل بالمداومة عليه على شرائط معينة ورياضة خاصة الى ما يناسب تلك الحروف أو الاسماء من الخواص، ولا يتوصل اليه إلا برياضة ومجاهدة ، مراعياً لقواعد الشريعة، انظر أبجد العلوم ٢/١٥١ ـ ١٥٢، كشف الظنون ١/٤١٣.

ومما يستأنس به اني وقفت على ترجمة للبرهان النسفي في كتاب فوائد الفؤاد ص ٧٢٠ ـ ترجمة رقم ٢٦٨ ـ جاء فيها: أنه كان إذا أتى اليه رجل للعلم يشترط عليه ثلاثة أمور:

الأول : أنه لا يأكل في اليوم والليلة إلا مرة واحدة ما يشتهيه من الطعام.

والثاني : أنه لا يتأخر عن الحضور في الدروس يوما من الايام، فان تقاصر عنه ولو مرة واحدة لا يقرئه أبداً.

والثالث أنه إذا لقيه في الطريق فيكتفي بالتحية المسنونة، ولا يزيد على ذلك من تقبيل الرجل وغيره.

وايضا فإن تمكن البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ في العلوم العقلية وسبقه فيها، سوغ لنا إيراد هذا الاحتمال ـ والله تعالى أعلم ـ.

للمباحث المتعلقة بعلمي المعـاني والبيان، وما أورد فيها من الفرائـد والفوائد، والبحث المفصل فيما يتحقق به الاعجاز، وما إلى ذلك من المسائل التي تدل على تمكنه وطول باعه في علم البلاغة ـ والله تعالى أعلم ـ.

رحلاته العلمية :

لقد دأب العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ منـذ العصور الأولى للإسلام، على الرحلة في تعلم العلـم وتعليمـه، على رغم مـا كـان يكلفهم ذلك من متـاعب ومصاعب، لاسيما في الزمن السابق الذي تشح فيـه المواصلات، وينعدم الأمن في المفـاوز والفلوات، غير أن صـدقهم في الطلب، هون عليهـم مـا يلاقـونه من نصب وتعب، مع استشرافهم لـرحمة الله، التي بشرهـم بها رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ بقـوله: [ومن سلك طريقـا يلتمس فيـه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة](١).

وهم في تعداد الرحـلات متفاوتون كثـرة وقلة، فبينما نجد أحـدهم وقد طوف في بلاد كثيرة، نجـد الآخـر قـد يقتصر على البلد والبلدين، وذلك حسبما تدعو اليه الحاجة، أو يتسير من الظروف.

والبرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ كان أحـد أولئك الرحالة، إلا أنه لم يكن ممن أكثر التطواف والتجوال.. فانه من خلال دراسة شخصيته، والتأمل في ترجمته، تبيّـن:

---

١ ـ أخرجه مسلم برقم ٢٦٩٩ ضمن حديث مطول عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الذكر والدعـاء ـ باب فضل الاجتماع على تلاوة القـرآن وعلى الذكـر ٤/ ٢٠٧٤، وذكـره البخـاري باختلاف يسير في كتاب العلم ـ في ترجمة باب : العلم قبل القول والعمل ١/ ٢٤.

وأخرجـه الترمذي برقم ٢٦٤٦ وقال: هذا حـديث حسن، كتاب العلم ـ باب فضل طلب العلم ٥/ ٢٨

أنه ولد ونشأ بنسـف، ثم رحل الى دهلي(١)، ودرس وأفـاد بدار الملك، وأخذ نفسه وتلاميذه برياضة روحية وفق القواعد الشرعية ـ على ما تقدم ـ.

ثم رحل الى دمشق ودرس بها، وانتفع به خلق(٢) ثم قصـد بغداد سنة خمس وسبعين وستمائة للهجـرة(٣) واستقر بها إلى أن مـات، ودفن بالمقبرة المشهورة بالخيزرانية عند مشهـد الامام أبي حنيفة ـ رحمهما الله تعالى ـ كما سيأتي

شيوخه وتلاميذه :

انَّ عـالماً مثل البرهان النسفي في قـوة مـداركه، ودقـة علومـه، لابد وأن يكون قد أخذ عن شيوخ كثيرين، وأخذ عنه أكثر منهم من رواد العلم والمعرفة، سواء في بلده نسف، أو في البلدان التي رحل إليها.

غير أن شيئا من مـراجع ترجمتـه ـ على كثرتها ـ لم يسعفنا ولا بواحـد ممن أخـذ عنهم، أو تلقى شيئا من علوم النقل، أو العقل، كما أنها لم تعن بذكـر تلاميذه ومن أخـذ عنه ـ على كثرتهم وتنوع طبقـاتهم ـ إلا أن بعض من ترجم له كان يشير إلى ذلك بقوله ـ مثلا ـ : وأخذ عنه خلق.

وقد استطعت ـ بتوفيق الله تعـالى ـ أن أقف على بعض مشاهير تلاميذه، ممن عـرف بالفضل والعلم، فرأيت ان أعـرف بهم تعريفـا مختصراً على النحو التالي :

١ ـ ابن الفوطي :

هو عبدالرزاق بن أحمد بن محمد الصابوني، الحافظ الأخباري، المتكلم،

---

١ ـ انظر نزهة الخواطر ١/١٢٨ ـ ١٢٩.

٢ ـ انظر المنهل الصافي ١/٢٦٥ ـ ٢٦٦.

٣ ـ انظر الوافي بالوفيات ١/٢٨٣.

المعـروف بابن الفوطي ـ بضم الفـاء وفتح الواو ـ نسبـة الى الفوط التي كـان يبيعها، مروزي الأصل، يكنى بأبي الفضل، ويلقب بكمال الدين، ترجم لشيخه ـ كما تقدم فيما نقله الصفدي والعزاوي وغيرهما ـ قال العزاوي ـ بعد أن نقل كلام تلميـذه ابن الفوطي ـ: والملحـوظ هنا أن النقل كان عن ابـن الفوطي، وفي الأصل المنسوب إلى ابن الفوطي لم يتعـرض لهذا الحادث، والظاهر انه منقول عن كتب أخرى له(١).

وقال الـذهبي : كانت له يد بيضـاء في النظم وترصيع التراجم، وله ذهن سيال، وقلم سريع، وخط بديع، وبصر بالمنطق والحكمة، وكان روضة معارف وبحـر أخبار، ظريفـا متـواضعاً، حسن الأخـلاق، وقـال: لم يكن بالثبت فيما يترجمه، وكـانت في دينه رقـة، وقـال: سمع الكثير، وعني بهذا الشأن، وجمع وافاد، فلعل أن يكفر به عنه.

مـات في ثالث محـرم سـنة ثلاث وعـشرين وسـبعمائة ـ رحمه الله تعالى ـ (٢).

٢ ـ ابن الصاحب :

هو شرف الدين هارون بـن محمـد الصـاحب شمس الديـن بن محمـد الصاحب بهاء الدين، الجويني، صاحب ديوان الممالك في بغداد، قرأ على برهان الدين النسفـي، واشتغل عليـه بعـد قـدومـه بغـداد سنة خمس وسبعين وستمائة(٣).

---

١ ـ انظر تاريخ العراق ١/ ٣٤٤.

٢ ـ انظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٩٣ ـ ١٤٩٤، البداية والنهاية ١٤/ ٨٥، لسان الميزان ٤/ ١٠ ـ ١١، الدرر الكامنة ٢/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥، فـوات الوفيـات ١/ ٢٧٢، النجـوم الزاهرة ٩/ ٢٦٠، شذرات الذهب ٦/ ٦٠ ـ ٦١، الاعلام ٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

٣ ـ انظر تاريخ العراق ١/ ٣٤٤.

تولى ديوان بغداد وتدبيرها بعد وفـاة عمه علاء الدين، وذلك سنة اثنتين وثمانين وستمائـة، واستمر الى ان أمـر السلطان بقتله، فقتل في حـدود الروم سنة خمس وثمانين وستمائة للهجرة، ـ رحمه الله تعالى ـ (١).

٣ ـ البرزالي :

هو القـاسم(٢) بن محمـد بن يـوسف بن محمـد، أبو محمـد، الحافظ، الملقب بعلم الديـن البرزالي ـ بكسر البـاء وسكون الراء ـ نسبـة إلى برزالة من بطون البربر.

أجازه في رحلاته نحو ثلاثة آلاف شيخ، جمع تراجمهم في كتابين: مطول ومختصر، وقد أجـاز له النسفي سنة أربع وثمانين وستمائـة في بغداد، وكتب بخطه: الملقب بالبرهان النسفي.

كـان متـواضعـاً محبيـاً إلى الناس متـودداً اليهم، ذا خلق حسن، وخط حسن، حلو المحـاضرة، قوي الذاكـرة، عارفا بـالرجال لاسيما شيوخ زمـانه وأهل عصره.

قال الذهبي في معجمه :

إن رمت تفتيش الخزائن كلهـــا | وظهـــور أجـــزاء بدت وعـــوالي
ونعوت أشياخ الـوجود وما رووا | طـالـع أو اسمـع معجـم البرزالي

توفي محرمـاً في خليص بين الحرمين سنـة تسع وثلاثين وسبعمائـــة،

---

١ ـ انظر ترجمته في : الحوادث الجامعة ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ و٣٧٤، الاعلام ٨/٦٣.

٢ ـ قال الاستـاذ محمد خير رمضان يوسف ـ في تحقيق كتاب تاج التراجم ص ٢٤٧ هامش ٣ ـ انه محمد بن يوسف بن محمد، توفي بحماة سنة ٦٣٦ هـ. أقول: هذا سهو، إذ كيف يكون قد أجاز له سنة أربع وثمانين وستمائـة وتوفي سنة ٦٣٦ هـ والصواب مـا ذكرناه، وهو ابنه القاسم المتوفى سنة ٧٣٩ هـ.

فغسل وكفن ولم يستر رأسه، وحمله الناس على نعشه، وهم يبكون حوله، وكان يوماً مشهوداً ـ رحمه الله تعالى ـ (١).

٤ ـ جلال الدين الحنفي:

أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن بن أنو شروان، العلامة قاضي القضاة جلال الدين الحنفي، ولد بمدينة انكورية من بلاد الروم، ونشأ بها، وحفظ القرآن العزيز، وطلب العلم، وتفقه بولده وغيره.

ذكر الإمام يوسف بن تغري بردى الاتابكي: أنه قرأ الخلاف على العلامة برهان الدين الحنفي بدمشق.

ولي قضاء الحنفية بدمشق، وشكرت سيرته، وكان ذكياً، عارفا بالمذهب واصوله، محققاً، إماما في العلوم العقلية، وله يد في الأدب.

توفي يوم الجمعة سنة خمس وأربعين وسبعمائة ـ رحمه الله تعالى ـ (٢).

وفـــاته:

لم يكن تحديد سنة وفاة البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ موضع اتفاق بين المترجمين له، فقد اختلفوا في ذلك على خمسة أقوال تدور بين سني:

---

١ ـ انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ ٤/ ٢٨٣، فوات الوفيات ٢/ ١٣٠، البداية والنهاية ١٤/ ١٥٠، الدرر الكامنة ٣/ ٢٣٧ ـ ٢٣٩، مقدمة تاريخ الإسلام للذهبي حوادث سنة ٦٠٠ ـ ٦١٠ ص ٧، طبعة مؤسسة الرسالة، معجم شيوخ الذهبي ص ٥٣٥ ـ ٤٣٦، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٢٥٢

٢ ـ انظر المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦، الطبقات السنية ١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥، الجواهر المضية ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥، البداية والنهاية ١٤/ ١٧٢، الدرر الكامنة ١/ ١٣٥ـ١٣٦.

تســـع وسبعين، وأربــع وثمانين، وســـت وثمانين، وسبـــع وثمانين، وثمان وثمانين بعد الستمائة من الهجرة الشريفة.

وسنوضح أقوال العلماء في ذلك على النحو التالي :

١ ـ سنة تسع وسبعين.. وممن قــال بــه الإمــام مــلاعلي القــارى كما في الاثمار الجنية(١) ولم أره لغيره.

٢ ـ سنة أربــع وثمانين.. وممن قـــال بـذلك: الإمـــام الــذهبي ـ كما في العبر(٢)، ونقل ذلك عنه اليـافعي في مرآة الجنان(٣)، وابن العماد في شـذرات الذهب(٤). وممّــن قال بهذا ـ أيضا ـ ابن طولون كما في الغرف العلية(٥).

وأما حــاجي خليفة فق اضطرب كــلامه على أقوال عـدة ـ كما سيظهر ـ ومنها هذا القول(٦).

٣ ـ سنة ســت وثمانين. وممن قـــال به: العـــلامـــة أبــو الحسنات اللكنوي(٧)، واسماعيل باشا(٨). وحاجي خليفة(٩).

٤ ـ سنة سبع وثمانين... وبه قال الاكثرون(١٠).

٥ ـ سنة ثمان وثمانين.. وممن ذكـر هذا حــاجي خليفــة كما في كشف الظنون(١١).

---

١ ـ انظر : ل ١١٨ أ. ٢ ـ انظر ٥/ ٣٤٧. ٣ ـ نظر ٢/ ٢٠٠.

٤ ـ انظر ٥/ ٣٨٥. ٥ ـ انظر ل ٢٦٧ ب .

٦ ـ انظر كشف الظنون ٢/ ١٧٩٩ و١٨٠٣ و١٨٦١. ٧ ـ انظر الفوائد البهية ص ١٩٤.

٨ ـ انظر هدية العارفين ٦/ ١٣٥ وايضاح المكنون ٤/ ١٩٤.

٩ ـ انظر كشف الظنون ٢/ ١٢٧٢ و١٧٥٦ و١٨٦١.

١٠ ـ انظر تاريخ دول الاسلام للذهبي ٢/ ١٤٣، الغرف العلية ونقله عن الشيخ قاسم المصري ل ٢٦٧ ب، وكشف الظنون ٢/ ١٠٣٢ و١٧٥٦، ومصادر ترجمته.

١١ ـ انظر ١/ ٩٥ و٨٨٢ و٨٦٥ و٢/ ١٢٩٦ و١٧٢٠ و١٨٠٣.

والذي أراه راجحاً من هذه الأقوال: الثالث، وهو سنة سبع وثمانين، وذلك لما يلي :

أ ـ ان تلميذه المؤرخ ابن الفوطي ذكر ذلك محددا الشهر واليوم، حيث قال: ومات في الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وستمائة(١). وتلميذه أدرى الناس به، وتحديد اليوم والشهر مشعر بتيقنه وقوة ضبطه، أضف إلى ذلك أنه مؤرخ متضلع.

ب ـ أن مصادر ترجمته تكاد تجمع على هذا القول، فلم يشذ عن ذلك إلا ما قلّ، ومن المحتمل أن يكون ذلك ناجماً عن سهو أو تحريف.

جـ ـ أنه أجاز لتلميذه البرزالي سنة أربع وثمانين، وكتب بخطه: الملقب بالبرهان النسفي(٢)، وهذا يبطل القول الأول، ويضعف الثاني.

هذا ما ظهر لي، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما مكان الوفاة وموضع الدفن: فتذكر مصادر ترجمته أنه توفي ببغداد، ودفن تحت قبة مشهد الإمام ابي حنيفة بالخيزرانية(٣) ـ رحمهما الله تعالى ـ (٤)، ولم يذكر أحد من الذين ترجموا له خلاف ذلك.

---

١ ـ انظر تاج التراجم ص ٥٨، والوافي بالوفيات ١/٢٨٣.

٢ ـ انظر تاج التراجم ص ٥٨، والجواهر المضية ٣/٣٥١.

٣ ـ الخيزرانية بفتح الخاء وسكون الياء وضم الزاي ـ مقبرة ببغداد انظر تاج العروس ٦/٣٤٢

٤ ـ انظر طبقات المفسرين للداودي ٢/٢٥٢، الفوائد البهية ص ١٩٥، بروكلمان ١/٦١٥، تراجم الاعاجم ل ١/١٥٤أ، طبقات الحنفية ل١/١٢٩أ، الاثمار الجنية ل ١١٨أ.

المبحث الثاني : آثــــاره :

لم يكن البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ من المكثرين في التاليف ـ حسبما وقفنا عليه من ذلك ـ.

كما أن مصنفاته لم تتنوع كثيرا، فلم تذكر المراجع التي ترجمت له، ولا الكتب التي عنيت بالمصنفين، وبجمع أسماء المصنفات، شيئا له في الفقه أو الحديث أو السيرة أو التاريخ أو نحوها من العلوم، وكل ما ذكروه من ذلك انما يتعلق بعلم الخلاف والجدل والمنطق والحكمة ونحوها.

ولعل نبوغ هذا الامام في هذه العلوم، بل وتفوقه فيها، حتى عدّ اماما في ذلك بل أوحد ـ كما يقول ابن الفوطي ـ كان وراء اهتمامه بها دون ما سواها من العلوم.

وحتى التفسير الذي ألف فيه، فانه لم يجر فيه على منهج أهل الأثر، بل تناول قضايا فلسفية وجدلية متنوعة على طريقة أهل الرأي في ذلك ـ كما سيأتي ـ.

وجملة ما ذكر له من المصنفات : ثلاثة عشر مؤلفاً، وهي :

١ ـ رسالة في الدور والتسلسل(١).

٢ ـ شرح الاشارات والتنبيهات لابن سينا في المنطق والحكمة(٢).

٣ ـ الفصول البرهانية في الجدل(٣).

٤ ـ منشأ النظر في علم الخلاف(٤).

---

١ ـ انظر هدية العارفين ٦/١٣٥، كشف الظنون ١/٨٦٥.

٢ ـ انظر هدية العارفين ٦/١٣٥ ـ ١٣٦، كشف الظنون ١/٩٥، معجم المؤلفين ١١/٢٩٧.

٣ ـ انظر هدية العارفين ٦/١٣٦، كشف الظنون ٢/١٢٧٢، ايضاح المكنون ٤/١٩٤، مفتاح السعادة ١/٣٠٥، الاعلام ٧/٣١، معجم المؤلفين ١١/٢٩٧.

٤ ـ انظر هدية العارفين ٦/١٣٦، وكشف الظنون ٢/١٨٦١، وذكر أن الشيخ أكمل الدين محمد ابن محمود البابرتي المتوفى سنة ٧٨٦ هـ شرحه وقال فيه: وهو كتاب صغير الحجم كثير الفائدة، وشرحه الإمام المصنف شرحا تبختر في مضمار المناظرة داروه الخ، وانظر الاعلام ٣١/٧.

٥ ـ شرح المنشأ.

٦ ـ شرح أسماء الله الحسنى(١).

٧ ـ شرح الرسالة القدسية بأدلتها البرهانية للغزالي(٢).

٨ ـ الواضح في مختصر مفاتيح الغيب للفخر الرازي(٣).

٩ ـ دفع النصوص والنقود(٤).

١٠ ـ مطلع السعادة(٥).

١١ ـ مقدمته المشهورة في علم الخلاف(٦).

١٢ ـ الفوائد(٧).

١٣ ـ القوادح الجدلية(٨).

---

١ ـ انظر هدية العارفين ٦/ ١٣٥، وكشف الظنون ٢/ ١٠٣٢ قال: وهو شرح جيد. وانظر الاعلام ٣١/٧

٢ ـ انظر هدية العارفين ٦/ ١٣٦، وكشف الظنون ١/ ٨٨٢، ذكر ذلك عند ذكر الرسالة القدسية بادلتها البرهانية للإمام الغزالي قال وشرحها برهان الدين محمد بن محمد النسفي المتوفى سنة ٦٨٨ هـ ويحتمل ان يكون له رسالة قدسية على ما يفهم من ترجمته، وانظر معجم المؤلفين ١١/ ٢٩٧

٣ ـ ذكره كثيرون وسياتي بيان ذلك ـ ان شاء الله تعالى ـ.

٤ ـ ذكره بروكلمان وسياتي، وانظر الاعلام ٧/ ٣١.

٥ ـ انظر كشف الظنون ٢/ ١٧٢٠، ومعجم المؤلفين ١١/ ٢٩٧.

٦ ـ انظر تراجم الاعاجم ١/ل ١٥٤ أ، وطبقات الحنفية ل ١٢٩ أ كشف الظنون ٢/ ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ وقال وهو فصول النسفي في الجدل. شرحها شمس الدين محمد السمرقندي صاحب الصحائف، وانظر ٢/ ١٨٠٣ وقال: وشرحها المصنف ـ أيضا ـ وسماها مقدمة في الجدل والخلاف والنظر قال وهي من المختصرات فيه. وانظر الاعلام ٧/ ٣١ وسماها المقدمة النسفية قال: وتسمى، المقدمة البرهانية في الخلاف.

٧ ـ انظر كشف الظنون ٢/ ١٢٩٦.

٨ ـ ذكره بروكلمان وسياتي، وانظر الاعلام ٧/ ٣١.

هذا ... وذكر الزرقاني(١) وغيره: أن تصنيفه في الكلام مشهور بالعقائد النسفية، الذي شرحه سعد الدين التفتازاني(٢)،(٣).

وفي هذه النسبة نظر، فان المشهور بالعقائد النسفية هو الإمام أبو حفص عمر بن محمد النسفي، المتوفى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة(٤).

* * *

وقد ذكر بروكلمان مصنفاته وشروحها وأماكن وجودها، على النحو التالي(٥):

١ ـ الفصول في علم الجدل ـ شرحه نعمان الخوارزمي، توجد نسخة منه في برلين برقم ٥١٦٧.

٢ ـ المقدمة البرهانية في الخلاف ـ نسختها في برلين برقم ٥١٦٨، وأيضا

---

١ ـ الزرقاني ـ بضم الزاي وسكون الراء ـ اثنان، الابن وأبوه.. أما الابن فهو: محمد بن عبدالباقي ابن يوسف بن أحمد المصري الأزهري المالكي، أبو عبدالله، خاتمة المحدثين بالديار المصرية، صاحب شرح المواهب اللدنية، كان محدثا، فقهياً، اصولياً، توفي سنة ١١٢٢ هـ ـ انظر الرسالة المستطرفة ص ١٤٣، الاعلام ٦/ ١٨٤، معجم المؤلفين ١٠/ ١٢٤.

وأبوه هو عبدالباقي بن يوسف، من كتبه شرح مختصر سيدي خليل في الفقه، توفي سنة ١٠٩٩ هـ ـ رحمهما الله تعالى ـ إنظر خلاصة الأثر ٢/ ٢٨٧، الاعلام ٣/ ٢٧٢، معجم المؤلفين ٥/ ٧٦ ولم يتبين لي من الذي نسب العقائد النسفية الى البرهان النسفي منهما، والذي يظهر أنه الابن لانه أصولي ـ والله أعلم.

٢ ـ هو مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني، سعد الدين، من ائمة العربية والبيان والمنطق، توفي سنة ٧٩٣ هـ ـ رحمه الله تعالى ـ انظر مفتاح السعادة ١/ ١٦٥، الاعلام ٧/ ٢١٩.

٣ ـ انظر الفوائد البهية ص ١٩٥.

٤ ـ هو عمر بن محمد بن أحمد بن اسماعيل، أبو حفص، نجم الدين النسفي، صاحب التفسير المشهور، كان عالما بالتفسير والأدب والتاريخ توفي سنة ٥٣٧ هـ انظر الفوائد البهية ص ١٤٩، الاعلام ٥/ ٦٠.

٥ ـ ساعدني في ترجمة نص بروكلمان من الالمانية الى العربية الاستاذ الفاضل الدكتور خالد مسعود ـ جزاه الله خيراً ـ الباحث في مجمع البحوث الإسلامية في الجامعة الإسلامية العالمية ـ اسلام اباد ـ باكستان.

في اسكوريال في أسبانيا برقم ٢/٧٨٨/٢. شرحها مؤلف مجهول، توجد نسخة منه في كلاسكو في انكلترا ـ القسم السادس برقم ٢٣٤.

٣ ـ منشأ النظر في علم الخلاف نسخة منه موجودة في برلين برقم ٥١٧٠. شرحها لمؤلف مجهول موجود في باريس برقم ٣/٢/٢٥٠٠.

٤ ـ القوادح الجدلية ـ منطق الجدل ـ توجد نسخة منه في برلين برقم٥١٦٩.

٥ ـ دفع النصوص والنقود توجد نسخة ـ منه في برلين برقم ٥١٧٠.

٦ ـ التراجيع ـ توجد نسخة منه في برلين برقم٥١٧١.

٧ ـ تعارضات ـ توجد نسخة منه في برلين برقم ٥١٧٣.

٨ ـ شرح الأسماء الحسنى للغزالي وأيضا للرازي توجد نسخة منه في برلين برقم ٢٢٣٣(١).

والعجيب أن بروكلمان لم يذكر تفسيره ولم يشر اليه هنا، ولكنه أشار اليه في ذيل ترجمة موفق الدين أبي العباس أحمد بن يوسف بن الحسن الكواشي الموصلي الشيباني ت ٦٨٠ هـ، فانه لما ذكر كشف الحقائق للكواشي قال:

وكشف الحقائق في تفسير القرآن أيضاً لبرهان الدين النسفي(٢)و(٣).

---

١ ـ انظر بروكلمان ١/ ٦١٥ طبعة سنة ١٩٤٣م.

٢ ـ انظر المرجع السابق ١/ ٧٣٧.

٣ ـ وقد نسب خطأ إلى انه موجود في مشهد، والصحيح أن الموجود هو كشف الحقائق للكواشي لا للنسفي. انظر فهرست كتب خانة ـ مطبعة نوبهار ـ ايران ص ٤٩.

القســم الثــاني

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بتفسيره: «كشف الحقائق»

ويتضمن: توثيق نسبته إليه، وتحقيق تسميته، ووصف نسخته.

أمـا نسبته إلى مـؤلفـه: فموضع إجماع المصـادر التي ترجمت للإمـام البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ حيث ذكروا أن له تفسيرا لكتاب الله تعالى، وأنه تلخيص لتفسير الإمام الرازي «مفاتيح الغيب».

وأما تسميته: فمحل اختلاف بينهم على ثلاثة أقوال:

الأول: الواضح في تلخيص تفسير القرآن للرازي.

الثاني: تلخيص تفسير فخر الدين الرازي.

الثـالث: كشف الحقـائق وشرح الدقائـق في تفسير كلام رب العـالمين ـ مختصر مفاتيح الغيب ـ.

أما الأول: فممن سماه بذلك:

ـ حاجي خليفـة في كشف الظنون، عند كلامـه على مفاتيح الغيب للرازي حيث قـال: واختصره برهان الـدين محمـد بن محمـد النسفي ت ٦٨٧ هـ وسماه: الواضح(١).

---

١ ـ انظر ٢/١٧٥٦.

ـ واسماعيل باشا عند ذكر مصنفاته، حيث عد منها: الواضح في مختصر مفاتيح الغيب للفخر الرازي(١).

ـ والعزاوي في تاريخ العراق(٢)، والزركلي في الاعلام(٣)، وعادل نويهض في معجم المفسرين(٤).

وذكره طاش كبرى زاده بهذا الاسم «تفسير الواضح» ونسبه للإمام الرازي، وعده من الكتب الوجيزة في التفسير(٥)، ونقل هذا عنه الشيخ صديق حسن خان(٦).

وكذا ذكره جورج قنواتي في البحث الذي كتبه عن مؤلفات الرازي، ولكنه رتبه ضمن الكتب المشكوك في نسبتها اليه، وأدرجه تحت عنوان «علوم القرآن»(٧).

ولم يعرف أن للرازي تفسيرا بهذا الاسم، واختصار البرهان النسفي لم يكن وجيزا، فالظاهر ان النسبة جاءت عن طريق الوهم ـ والله تعالى أعلم ـ.

وأما الثاني:

فقد ذكر في أكثر المراجع، منها:

الوافي بالوفيات(٨)، وتاج التراجم(٩)، الجواهر المضية(١٠)، طبقات الحنفية(١١)، الغرف العلية(١٢)، تراجم الاعاجم(١٣)، تذكرة النبيه(١٤)، عقد الجمان(١٥). طبقات الفقهاء(١٦)، الأثمار الجنية(١٧)، طبقات

---

١ ـ انظر هدية العارفين ٦/١٣٦. ٢ ـ انظر ١/٣٤٤. ٣ ـ انظر ٧/٢١ و٨/٩٧.
٤ ـ انظر ٢/٦١٤. ٥ ـ انظر مفتاح السعادة ٢/٨٦. ٦ ـ انظر أبجد العلوم ٢/١٨٦.
٧ ـ انظر وسالة: الرازي مفسرا ص ٤٢. ٨ ـ انظر ١/٢٨٣. ٩ ـ انظر ص ١٩٨.
١٠ ـ انظر ٣/٣٥١. ١١ ـ انظر ١/ل ١٢٩. ١٢ ـ انظر ل ٢٦٧ ب.
١٣ ـ انظر ١/ل ١٥٤. ١٤ ـ انظر ١/١٢٠. ١٥ ـ انظر ٢/٢٧٧
١٦ ـ انظر ص ١١١. ١٧ ـ انظر ل ١١٩٨.

المفسرين للداودي(١)، الفوائد البهية(٢)، تاريخ العراق(٣)، معجم المؤلفين(٤).

وأما الثالث:

فممن سماه بذلك: بروكلمان عند ذكره «كشف الحقائق» للكواشي، حيث قال: وكشف الحقائق في تفسير القرآن ـ أيضا ـ لبرهان الدين النسفي(٥) وكذا ذكر في الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط(٦).

ومما يؤيد هذا: أنه قد جاء التصريح به في اللوحة الأخيرة من مخطوطة التفسير، بما نصه:

تم كشف الحقائق وشرح الدقائق في تفسير كلام رب العالمين(٧).

وأرى أن أولى هذه التسميات الأخير، وذلك: لأنه المصرح به في التفسير نفسه ـ على ما تقدم ـ ولأن هذه التسمية لا تمنع من اطلاق التسميتين الأخريين، فيمكن الجمع بينها فيقال: ان تفسير كشف الحقائق هو مختصر تفسير الرازي أو هو الواضح في تلخيص تفسير الرازي، بخلاف ما لو سمي بأحدهما ـ كما هو ظاهر ـ وأيضا: فإن صنيع المؤلف لم يكن مجرد اختصار أو تلخيص ـ كما سيأتي ـ

وصف النسخة ومكان وجودها:

توجد نسخة يتيمة(٨) من هذا التفسير الشريف(٩) في مكتبة كوربلي زاده باستنبول ـ تركيا برقم ١٢٣.

---

١ ـ انظر ٢/٢٥٢. ٢ ـ انظر ص ١٥٤. ٣ ـ انظر ١/٣٤٤.
٤ ـ انظر ١١/٢٩٧. ٥ ـ انظر ١/٧٣٧.
٦ ـ انظر فيه مخطوطات التفسير ٤/١١٥٢. ٧ ـ انظر ل ١٧٠٥.
٨ ـ لم أقف على نسخة ثانية ولم تشر المراجع إلى غير هذه النسخة. ٩ ـ هكذا كتب على الغلاف.

وهي نسخة بخط نسخ جيد، يقع في ٧٤٤ ورقة بمقياس: ٢٥×٣٦،٥ (١٨،٥×٢٨) سم، ومسطرتها ٤١ سطراً بمعدل ٢٧ ـ ٣٠ كلمة في السطر الواحد.

والآيات بالحبر الأحمر، ولذا لم تظهر واضحة في الصورة، الورقة ١١٨ بياض.

في ١م، زخرفة بالذهب بالحبر الأحمر، وقيد تملك لأحمد بن محمد، ربما غلاف الجلد من عهد الايلخانيين(١).

وأوله : بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي انزل القرآن معجزاً، لا يمكن جميع الفصحاء أن ينتهضوا بمعارضته وإن كانوا من العرب العرباء، ومصاقع الخطباء....

وآخره : .. ثم فيه من التنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت، والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب. تم كشف الحقائق وشرح الدقائق في تفسير كلام رب العالمين، حامداً الله سبحانه على سير انعامه وشمول الطافه.

الناسخ : يوسف بن محمد بن حسين الفارسي، كما صرح بذلك في خاتمة التفسير حيث قال :

مؤملاً من الناظر فيه والمقتبس من درر ألفاظه وغرر كلماته ومباحثه أن لا ينسى الكاتب بصالح دعائه وهو الفقير الى الله تعالى يوسف بن محمود بن حسين المعروف بالفارسي...

وفيه بيان مكان النسخ وزمانه وهو : الخامس والعشرون من ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة في سلطانية.

---

١ ـ انظر فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ١/ ٧٧ ـ ٧٨، بروكلمان ١/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨، ذيل ١/ ٨٤٩، وانظر الفهرس الشامل ٤/ ١١٥٢.

المبحث الثاني : علاقته بالتفسير الكبير للرازي، وطريقته في التفسير

ذكر العلماء الذين ترجموا للبرهان النسفي، والذين عنوا بمصنفاته، أنه اختصر التفسير الكبير للرازي ـ رحمهما الله تعـــالى ـ واكتفــوا بـذلك دون الإشارة الى شيء من جهوده فيه.

وحيث انه لم يذكـر طـريقتـه في التفسير، ولا عـلاقتـه بالتفسير الكبير للرازي، ولم يشر إلى شيء من ذلك لا في مقـدمـة التفسير ولا في خـاتمتـه(١)، اقتضاني الأمر دراسة تفسيره، ومقارنته بأصله الذي اعتمده، وقد تبين لي من خـلال تلك الدراسة التي تركـزت في أماكن متنوعـة من أول التفسير وأوسطه وآخـره، مـا أستطيع على ضـوئه أن أرسم صـورة واضحـة لطريقـة المفسر ومنهجه في تفسيره، وسأذكر ذلك بطريق الاجمال أولا، ثم أثنى بضرب الأمثلة وذكر وجوه المقارنة في جوانب مختلفة، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

اثبتت الدراســـة التي قمت بها، أن الاكتفــاء بـوصف تفسير «كشف الحقـائق» بأنه مختصر مـن التفسير الكبير للرازي فيـه غمط لجهـود مفسره المتنوعـة، واغفال لكثير من خصائصـــه ومزاياه، فهـو لم يكن مجرد مختصر، ولم يقتصر على مـــا أفـساده الأصل، بل لــه تصرف بين، وإفـــادات جـديدة، وشخصيته في ذلك ظاهرة، وجهوده العلمية واضحة.

ولعل اعتماده الكبير على التفسير الكبير للـرازي، وتلخيصـــه لكثير من عباراته عند التعقيب أو الترتيب أو الإضافـة، أو ما إلى ذلك من الإفادات، وقوله عن تفسيره: إنه مختصر(٢) هـو الذي حـــدا بـأولئك العلماء إلى ذلك الوصف والاكتفاء به.

---

١ ـ اكتفى بقوله في نهاية التفسير تم كشف الحقائق وشرح الدقائق في تفسير كلام رب العالمين.

٢ ـ انظر كشف الحقائق ل ١١٣أ.

وقد يذكر اسم الرازي في ثنايا التفسير كقوله: منهـا ما قاله الإمام فخر الدين الرازي ـ رحمه الله ـ وكقـوله فهذه من حيث المعنى عين مـا قاله الإمـام في آخر تفسير هذه السـورة ـ يريد سورة الفاتحة ـ شكر الله سعيه فانه ما قصر. وانظر ـ مثلا ـ ل ١١٧أ، ول ١٩ ب، ول ١٤١أ.

وانا نرى أن البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ قد سلك في تفسيره طريقة متميزة، فهو يتابع الرازي من أول التفسير الى آخره، حتى ان الناظر فيه لاول وهلة لا يشك في أنه اختصار له، ولكن لدى التأمل والمقارنة، ظهر أنه قد يرجح ويختصار، ويحذف ويضيف، ويرتب ويتعقب، ويعلل ويوضح، وسواء في ذلك المنقول والمعقول، مما يجعل عبارته ـ في بعض المواضع ـ أطول من الأصل، وقد يأتي أحيانا على غاية من الجودة، لاسيما فيما يدفع به شبهة أو يزيل إشكالاً، وقد يفرط في الاختصار والحذف فيقع في الخلل، وقد يحذف أسماء أصحاب الأقوال، وقد تغمض عبارته حتى يدق فهمها، فاذا روجع الأصل كان كالشرح لها، وقد يأخذ المعنى ثم يصوغه بعبارته المستقلة، وقد ينقل عن غير الرازي ويصرح بذلك.

وبذلك يظهر أنه حين يختصر فليس لأن الاختصار هدفه الأصلي، وانما هو من لوازم بحثه ـ على مالا يخفى ـ ولذا فهو إلى التهذيب أقرب منه إلى الاختصار.

ومن الملاحظ على هذا التفسير أن مؤلفه تابع الإمام الرازي ـ عفا الله تعالى عنهما ـ فيما أورده من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والحكايات الباطلة، وإن كانا قد أقلا من ذلك.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن اختصار تفسير الرازي ليس كاختصار غيره من التفاسير ـ كابن كثير والطبري ـمثلا ـ وذلك لتعدد مسائله وفروعه، ووجوهه وأبحاثه، وكثرة استطراداته، ودخوله في جدل منطقي، ونقاش علمي متنوع، مما يقتضي المختصر جهدا علميا واسعا، وفطنة ودربة، وملكة متميزة وقد وفق البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ لما أراد من ذلك.

وبعد هذا العرض الاجمالي المختصر، ندخل في توضيح ذلك وتفصيله، باختيار نماذج من صنيع المؤلف ومقارنتها بالأصل، مما يظهر شخصيته العلمية في الاختصار وما وراءه، وذلك بنقاط محددة، على النحو التالي :

١ ـ الإضافات :

ومن الأمثلة المهمة هنا: أنه قد يحذف من استطرادات الأصل في تقرير الشبهة، ويضيف في أدلة دحضها وتفنيدها ـ ولا شك أن هذا جهد مشكور يبوء التفسير مكانة علمية عالية، ويعد من مزاياه التي تنزله المنزلة اللائقة به بين كتب التفسير القيمة ـ وساكون مضطراً لسوق الكلام بكامله كيما تتضح الصورة.

ـ يقول الامام الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير قوله تعالى ﴿هدى للمتقين﴾ البقرة/٢:

السؤال الثاني : كيف وصف القرآن كله بأنه هدى وفيه مجمل ومتشابه كثير، ولولا دلالة العقل لما تميز المحكم من المتشابه، فيكون الهدى في الحقيقة هو الدلالة العقلية لا القرآن، ومن هذا ما نقل عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لابن عباس حين بعثه رسولاً الى الخوارج: لا تحتج عليهم بالقرآن فانه خصم ذو وجهين، ولو كان هدى لما قال علي بن أبي طالب ذلك فيه، ولانا نرى جميع فرق الإسلام يحتجون به، ونرى القرآن مملوءاً من آيات بعضها صريح في الجبر، وبعضها صريح في القدر، فلا يمكن التوفيق بينهما إلا بالتعسف الشديد، فكيف يكون هدى؟

الجواب. ان ذلك المتشابه والمجمل لما لم يتفك عما هو المراد على التعيين ـ وهو إما دلالة العقل أو دلالة السمع ـ صار كله هدى أ. هـ كلام الرازي(١).

ويقول البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ في اختصار السؤال والجواب:

الثالث(٢) : كيف وصف القرآن كله بأنه هدى، وقد كان فيه مجمل ومتشابه؟ اقتصر على هذا، ثم قال في الجواب:

---

١ ـ انظر التفسير الكبير ٢/ ٢٤.

٢ ـ يلاحظ انه اعتبر السؤال الثاني ثالثاً، وذلك انه قد لا يلتزم الترتيب في بعض المواضع، وقد تكرر ذلك في ثنايا التفسير.

وفي الثالث : ان ذلك المتشابه والمجمل لما لم يكن منفكاً عما هو المراد على التعيين ـ وهو إما الدلالة العقلية أو الدلالة السمعية ـ كان كله هدى، ولان كل واحد منهما مشتمل على الفوائد ـ كما مر ـ والمشتمل على الفوائد لا يكون بمعزل عن الهدى(١).

ـ يقول الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير سورة الفلق :

المسألة الثانية : طعن بعض الملحدة في قوله: ﴿قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق﴾، من وجوه: أحدهما: أن المستعاذ منه أهو واقع بقضاء الله وقدره، أولا بقضاء الله ولا بقدره؟ فان كان الأول فكيف أمر بأن يستعيذ بالله منه، وذلك لان ما قضى الله به وقدره فهو واقع، فكأنه يقول: الشيء الذي قضيت بوقوعه، وهو لا بد واقع فاستعذ بي منه حتى لا أوقعه، وإن لم يكن بقضائه وقدره فذلك يقدح في ملك الله وملكوته.

وثانيها . أن المستعاذ منه إن كان معلوم الوقوع فلا دافع له فلا فائدة في الاستعاذة، وان كان معلوم اللا وقوع فلا حاجة إلى الاستعاذة.

وثالثها : أن المستعاذ منه إن كان مصلحة فكيف رغب المكلف في طلب دفعه ومنعه، وان كان مفسدة فكيف خلقه وقدره؟

واعلم أن الجواب عن أمثال هذه الشبهات، أن يقال إنه «لا يسأل عما يفعل»(٢) وقد تكرر هذه الكلام في هذا الكتاب أ. هـ كلام الرزاي(٣).

ويقول البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ في اختصار السؤال والجواب:

وثانيهما(٤) : أن البعض من الجهال طعن في قوله تعالى: ﴿قل أعوذ برب

---

١ ـ انظر كشف الحقائق ل ١٢٢. ٢ ـ سورة الأنبياء، آية : ٢٣.

٣ ـ انظر التفسير الكبير ٣٠/١٩٣.

٤ ـ سمى المسألتين هنا بالمبحثين، وتلك عادته في جميع التفسير.

الفلق. من شر ما خلق﴾ وذلك بوجوه منها: ان المستعاذ منه إما واقع بقضاء الله تعالى وقدره، وحينئذ لا يصح أن يأمر بأن يستعيذ بالله منه، فإن ذلك واقع لا محالة، أو لا بقضاء الله تعالى وقدره، وحينئذ يلزم القدح في جميع ملكه تعالى وملكوته.

ومنها: أن المستعاذ منه ان كان معلوم الوقوع فلا دافع له، وإن كان معلوم اللا وقوع فلا حاجة الى الاستعاذة.

ومنها: أن المستعاذ منه إن كان مصلحة فلا يصح أن يأمر بدفعه ومنعه، وان كان مفسدة فلم خلقه وقدره؟

والجواب الحق عنه: أن المستعاذ منه عند المكلف لا يدري بأنه واقع بقضاء الله وقدره أولا بقضاء الله تعالى وقدره، وقد كان فيه من الاختلاف أنه إذا كان شرا فهل يكون بقضاء الله تعالى وقدره أم لا، وكذلك لا يكون معلوم الوقوع(١) عنده ولا معلوم اللا وقوع ـ أيضاً ـ إذ المعلوم عنده أحدهما لا على التعيين، وكذلك لا يكون مصلحة ولا مفسدة ـ أيضا ـ بل يمكن أن يكون مشتملا عليهما، والغالب فيه إما المصلحة وإما المفسدة، والأمر والنهي على حسب ما يكون عند المكلف من العلم والقدرة وغير ذلك مما يشاهده في نفسه لا بحسب ما يكون في الحقيقة، إذ هو الغيب فلا يعلمه الا الله(٢).

ومن ذلك :

ما نقله الرازي عن القفال(٣): ان بعض الفلاسفة عبر عن الحكمة بأنها التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية(٤).

---

١ ـ في الأصل : الوقع.
٢ ـ انظر كشف الحقائق ل ٤٣ ٧ ب.

٣ ـ هو الإمام محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر، أبو بكر الشاشي القفال، الفارقي، تولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد، وكان رئيس الشافعية بالعراق في عصره، له عدة مؤلفات منها، حلية العلماء في معرفة مذهب الفقهاء، والعمدة في فروع الشافعية، وغيرها، توفي ببغداد سنة ٥٠٧ هـ ـ رحمه الله تعالى

انظر وفيات الأعيان ١ / ٤٦٤، طبقات الشافعية الكبرى ٤ / ٥٧ ـ ٦١، الاعلام ٥ / ٣١٦.

٤ ـ انظر التفسير الكبير ٤ / ٧٣.

فقال البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى: وعن بعض الفلاسفة: الحكمة هي التشبه بالاله على قدر الطاقة البشرية، وأنه موافق لقوله ـ عليه السلام ـ: [تخلقوا بأخلاق الله](١) و(٢).

ـ وعند قول الرازي: ان شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى، فشيطان الانس يكون كذلك، وذلك لانه يرى نفسه كالناصح المشفق، فان زجره السامع يخنس ويترك الوسوسة، وان قبل السامع كلامه بالغ فيه(٣).

قال البرهان النسفي : وكما ان شيطان الجن يوسوس فكذلك شيطان الانس، وذلك لانه يرى نفسه كالناصح المشفق، وهو في نفسه من الشياطين بل هو أشقى وأشد عداوة من الشياطين(٤).

ومن ذلك :

السؤال الذي أثاره الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿فانه نزله على قلبك﴾(٥) وهو: القرآن إنما نزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما

---

١ ـ انظر كشف الحقائق ل ١٦٠أ.

٢ ـ حديث «تخلقوا بأخلاق الله» ذكره ابن القيم في مدارج السالكين وقال: انه اثر باطل ٣/ ٢٤١، وقال الالباني لا نعرف له أصلا في شيء من كتب السنة، ولا في الجامع الكبير للسيوطي، نعم أورده في كتابه «تأييد الحقيقة العلية» ق ٨٩/ ١، لكنه لم يعزه لأحد، انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٠ هامش ٥١ ـ المكتب الاسلامي ـ الطبعة التاسعة ـ.

فائدة : العبارة التي نقلها البرهان النسفي عن بعض الفلاسفة، ذكر نحوها العلامة ابن القيم في مدارج السالكين، ودكرها شارح العقيدة الطحاوية بلفظ: ويقولون أصل الفلسفة هي التشبه بالاله على قدر الطاقة، ويجعلون هذا غاية الحكمة ونهاية الكمال الانساني، ويوافقهم على ذلك بعض من يطلق هذه العبارة. ويروى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «تخلقوا بأخلاق الله» أ. هـ . وقد فهم الشيخ الالباني أن الشارح أورد حديثا لا أصل له، وهذا وهم نشأ ـ كما يقول الشيخ الانصاري ـ من قراءة يروى بالبناء للمفعول، والفصل بينه وبين ما قبله بنقطة، والصواب أن البناء ـ هنا ـ للفاعل والكلام متصل بما قبله ـ والله أعلم ـ . انظر نقد تعليقات الألباني على شرح الطحاوية للشيخ اسماعيل محمد الانصاري ص ٦٤ ـ مكتبة الامام الشافعي ـ الرياض.

٣ ـ انظر التفسير الكبير ٣٢/ ١٩٨.

٤ ـ انظر كشف الحقائق ل ١٧٤٤أ.

٥ ـ سورة البقرة آية : ٩٧

السبب في قولـه: ﴿نزّله على قلبك﴾؟ وأجاب: انه خص القلب بالذكـر لأجل ان الذي نزل به ثبت في قلبـه حفظاً حتى أداه الى أمتـه، فلما كـان سبب تمكنه من الأداء ثباته في قلبه حفظاً جاز أن يقـال: نزل على قلبك وإن كان في الحقيقة نزله عليه لاعلى قلبه(١).

فقد لخصه البرهان النسفي وزاد عليه بقوله :

الثـاني : لقـائل أن يقول: القـرآن انما نزل على محمـد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فما الفائدة في قوله: على قلبك؟ والجواب المشهور عنه: إنما خص القلب بالذكر لان مـا نزل عليه تقرر فيـه حفظاً. والجواب الآخر: هو ان المراد بالقلب نفسه ـ عليه السلام ـ وإنما أطلق لفظ القلب على النفس فيما نحن فيه لانه مبدأ الشعور، وهذا من جملة ما يتعلق بالشعور(٢).

ومن المعلوم ان الرازي يعنى بذكـر المناسبات، غير أن هذا لم يكن مطرداً في جميع التفسير، فاذا أغفل ذلك في بعض الأمـاكن، استدركه البرهان النسفي، نجد ذلك ـ مثلا ـ :

ـ في سورة مريم ـ عليها السلام ـ فحين لم يذكر الرازي شيئا في مناسبة السورة لماقبلها، ذكر ذلك البرهان النسفي بقوله :

أما نسبـة السورة بما قبلها فهي التي مضى ذكـرها في تلك السورة، أن هذه السور الثـلاث مشتركة في ان كل واحـدة منها مشتملة على حـالة عجيبة، سورة بني اسرائيل على اسراء جسد محمد ـ كما مر ـ وسورة الكهف على بقاء القوم في النوم مـدة ثلثمائة سنة وأكثر، وسورة مـريم على حدوث الولد لا من الأب، ثم انه تعالى ختم تلك السورة بما يكون من المتشـابهات وهو قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقـاء ربه﴾، وافتتح هذه السورة بما يكون من المتشابهات ـ أيضا ـ وهو قوله تعالى ﴿كهيعص﴾(٣).

---

١ ـ انظر التفسير الكبير ٣/ ٢١٢.

٢ ـ انظر كشف الحقائق ل ١٥٣.

٣ ـ انظر كشف الحقائق ل ١٤٠٤.

ـ وفي سورة الناس، حيث قال ـ بعد أن لم يذكر الرازي شيئاً :

هذه السورة متصلة بتلك السورة لما أنه تعالى أمر بالاستعاذة في تلك السورة لدفع ما يكون من الشرور الحاصلة فرداً فرداً، وفي هذه السورة لدفع ما يكون من الشرور أي شر كان، فان الشر من حيث انه شر لازم الدفع، والدفع بالحقيقة لا يكون في وسع العبد فليزمه الاستعاذة بالحضرة لأجل ذلك الدفع(١).

وأما في المأثور فنجد أنه :

قد يذكر بعض الآثار التي لم تذكر في الأصل.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾(٢).

قال البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ :

عن ابن عباس والحسن وقتادة: لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب المثل به للمشركين ضحك اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله تعالى هذه الآية(٣).

وهذا الأثر ليس في الأصل، انما فيه :

عن ابن عباس انه لما نزل ﴿يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له﴾(٤) فطعن في أصنامهم ثم شبه عبادتها ببيت العنكبوت قالت اليهود: اي قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله المثل بهما فنزلت هذه الآية(٥).

---

١ ـ انظر كشف الحقائق ل ١٧٤ أ، وانظر في الكشف ل ٢٠ ب، وفي التفسير الكبير ٢/٢.

٢ ـ سورة البقرة، آية : ٢٦.

٣ ـ انظر كشف الحقائق ل ٣٢ ب.

٤ ـ سورة الحج، آية ٧٣.

٥ ـ انظر التفسير الكبير ٢/١٤٤.

ـ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم﴾(١).

ذكر البرهان النسفي أثراً عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في بيان تلك الكلمات التي اختلف فيها العلماء من الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ، وهو:

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه : ان أحب الكلام الى الله ما قاله أبونا حين اقترف الخطيئة: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك، لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، انه لا يغفر الذنوب إلا أنت(٢).

وهذا الأثر لم يذكره الرازي، وانما ذكر أثر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو:

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: انها قوله: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت خير الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم(٣) و(٤).

٢ ـ قد يحذف أسماء أصحاب الأقوال فلا يذكرهم، أو يذكر اسم الفرقة التي ينتسبون إليها، وقد يقول: ومنهم من قال... أو : وقيل .

---

١ ـ سورة البقرة، آية : ٣٧.   ٢ ـ انظر كشف الحقائق ل ٤٠ ب.

٣ ـ انظر التفسير الكبير ٣/ ٢٠ ـ ٢١.

٤ ـ وانظر في التفسير الكبير ٤/ ٤ وفي كشف الحقائق ل ٥٦ ب فقد زاد حديث: [لا عمل إلا بالنية].

فحين يقول الرازي. وقال أبو مسلم*: معاذ الله أن يكون في القرآن زيادة أو لغو، والأصح قول أبي مسلم، لأن الله تعالى وصف القرآن بكونه هدى وبيانا، وكونه هدى ينافي ذلك(١).

يقول البرهان النسفي: ومنهم من أنكر ذلك، وقال: لا يمكن أن يكون في القرآن زيادة البتة وكيف وقد كان الله تعالى وصف القرآن بكونه هدى وبيانا، والزيادة مما ينافي ذلك!، والكلام في أنها من جملة ما يمكن أو ليس منها يجيء(٢) في موضعه ـ ان شاء الله ـ (٣).

وحين يقول الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿من شر ما خلق﴾.

ورابعها: أراد به ما خلق من الأمراض والأسقام والقحط وأنواع المحن والآفات، وزعم الجبائي(٤) والقاضي(٥) أن هذا التفسير باطل... الخ(٦).

---

* هو محمد بن بحر الاصفهاني المعتزلي، وال، من أهل اصفهان، كان عالماً بالتفسير وبغيره من صنوف العلم، من كتبه جامع التأويل في التفسير أربعة عشر مجلداً، توفي سنة ٣٢٢ هـ ـ رحمه الله تعالى ـ الاعلام ٦/ ٥٠.

١ ـ انظر التفسير الكبير ٢/ ١٤٧. ٢ ـ في الأصل : يجيب ، وهي غير واضحة.

٣ ـ انظر الكشف ل ١٣٢.

٤ ـ هو الإمام المعتزلي محمد بن عبدالوهاب بن سلام الجبائي ـ بضم الجيم وتشديد الباء ـ نسبة الى جبى من قرى البصرة ـ كان رئيس علماء الكلام في عصره، له تفسير حافل مطول، توفي سنة ٣٠٣ هـ ـ رحمه الله تعالى ـ.

انظر وفيات الاعيان ١/ ٤٨٠، البداية والنهاية ١١/ ١٢٥، اللباب ١/ ٢٠٨، الاعلام ٦/ ٢٥٦.

٥ ـ هو عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار الهمذاني الاسد ابادي، أبو الحسين، كان شيخ المعتزلة في عصره ولي القضاء بالري، له عدة مؤلفات، من أشهرها تنزيه القرآن عن المطاعن والمغني في ابواب التوحيد والعدل، والأمالي وغيرها، توفي بالري سنة ٤١٥ هـ ـ رحمه الله تعالى ـ.

انظر تاريخ بغداد ١١/ ١١٣، طبقات المعتزلة ١١٢، الرسالة المستطرفة ١٢٠، الأعلام ٣/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

٦ ـ انظر التفسير الكبير ٣٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣.

ورابعها : من شر ما خلق يعني من شر الأمراض والأسقام والقحط وغير ذلك من جميع أنواع المحن والآفات، وهذا من جملة ما لا يصحّ على مذهب المعتزلة... الخ(١).

وقد تكرر مثل هذا كثيراً(٢).

٣ ـ وقد يقدم بعض الأوجه التي أخرها الرازي ، ويبين ما لم يبينه:

مثاله: ذكر الرازي أن من صفات القرآن: العزيز وقال :

وللعزيز معنيان، أحدهما: القاهر، والقرآن كذلك، لأنه هو الذي قهر الأعداء وامتنع [ممن]* أراد معارضته، والثاني: ان لا يوجد مثله(٣).

فقال البرهان النسفي: العزيز: هو الذي لا يوجد مثله، والقرآن كذلك، وقد يجيء بمعنى القاهر ـ أيضاً ـ والقرآن هو الذي قهر الأعداء وأعجزهم عن معارضته(٤).

ـ ومثل قول الرازي ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾.

اعلم أن قوله ﴿الذي يوسوس﴾ يجوْز في محله الحركات الثلاث، فالجر على الصفة، والرفع [على الابتداء](٥)، والنصب على الشتم ويحسن أن يقف القارىء على الخناس ويبتدىء: الذي يوسوس على أحد الوجهين(٦).

---

١ ـ انظر كشف الحقائق ل ل ٣ ٧٤ ب.

٢ ـ انظر ـ مثلا في الرازي ٢ / ١٤٥ وفي الكشف ل ٣٣ أ، وفي الرازي ٢ /١٧ وفي الكشف ل ٢١ ب، وانظر ـ أيضا ـ ٦٠ أ، وفي الرازي ٣ /١٨٩ وفي الكشف ل ٥١ أ.

٣ ـ انظر التفسير الكبير ٢ / ١٩.

٤ ـ انظر كشف الحقائق ل ٢١ ب.

٥ ـ سقطت من الطبعة الثالثة ـ دار الفكر ـ وأثبتها من كشف الحقائق، والسياق يقتضيها.

٦ ـ انظر التفسير الكبير ٣٢ /١٩٧.

* في الأصل: من، وهو خطأ مطبعي صوابه ما أثبت.

فانه لما لم يبين أي الوجهين أراد، بينه البرهان النسفي بقوله :

ذكروا في الذي يوسوس أنه يجري في محله الحركات الثلاث، فالجر على الصفة، والرفع على الابتداء، والنصب على الذم، ويحسن أن يقف القارىء على الخناس ويبدأ بالذي يوسوس بالوجه الثاني(١).

٤ ـ يعبر عن المسائل التي يذكرها الرازي بالمباحث أو الابحاث، وقد يقدم بعضها على بعض، ويوصل اللاحق بالسابق ويسوقها مساق مبحث واحد.

فمثلا حين نجد الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ يذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾(٢) تسع مسائل. نجد البرهان النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول :

وفيه من المباحث: الأول.. ثم ذكر المسألة الثالثة وعبر عنها بالثاني، ثم الثانية وعبر عنها بالثالث، ثم أوصل الرابعة بالمبحث الثالث، وكذا الخامسة، وسمى السادسة بالمبحث الخامس، وأدرج فيه السابعة والثامنة والتاسعة، كل ذلك باختصار شديد، لم يتجاوز الصفحة الواحدة(٣)، في حين أنها بلغت عند الرازي تسع صفحات من القطع الكبير(٤).

وقد يفعل مثل هذا في الوجوه المتعددة، فيسوقها بكلام متصل دون أن يقول: الوجه الأول والثاني.... الخ(٥).

---

١ ـ انظر كشف الحقائق ل ١٧٢٢أ. ٢ ـ سورة البقرة، آية : ٣٧.

٣ ـ انظر كشف الحقائق ل ٤٠ ـ ٤١أ. ٤ ـ انظر التفسير الكبير ٣/ ١٩ ـ ٢٧.

٥ ـ انظر ما ذكره الرازي في تفسير سورة الفلق ٣٢/ ١٩٠ و١٩١، وما فعله البرهان النسفي في ذلك ل ١٧٤٤أ.

٥ ـ قد يكمل النصوص التي ينقلها الرازي من التفاسير المتقدمة.

وذلك أن الرازي قد تسقط عنده بعض الكلمات أو الجمل من تلك النصوص، فنجد البرهان النسفي يعنى بنقلها كاملة(١).

كما انه قد يذكر المرجع الذي نقل منه الرازي وأغفله(٢)، وقد ينقل ما لم ينقله(٣).

٦ ـ ربما غاير الأصل في عد آيات بعض السور، وفي كونها مكية أو مدنية(٤).

٧ ـ له تعليقات وتعليلات في اماكن متعددة.

من ذلك: ما نقله الرازي عن الغزالي ـ رحمهما الله تعالى ـ في تحقق التوبة، ثم قال في الآخر. فهذا هو الذي لخصه الشيخ الغزالي في حقيقة التوبة وهو كلام حسن(٥).

فبدل قول الرازي: فهذا هو الذي... الخ قال البرهان النسفي ـ بعد أن اختصر كلام الغزالي الذي نقله الرازي ـ رحمهم الله تعالى ـ:

ثم لقائل ان يقول: ما ذهب اليه الغزالي ـ رحمه الله ـ أمور مترتبة ترتبا ضرورياً لم يكن ذلك تحت قدرته فاستحال ان يكون مأموراً به، فيقال: العلم السابق الذي يترتب عليه غيره من تلك الأمور داخل تحت قدرته فيكون الأمر باعتبار ذلك(٦).

---

١ ـ انظر ـ مثلا ـ ما نقله الرازي عن الكشاف ٢/ ٢٠ و٢٥، وما نقله عنه البرهان النسفي ل ٢١ ب و٢٢ أ و٢٢ ب

٢ ـ انظر المسألة الأولى عند الرازي ٣/ ١٨٩، والمبحث الأول عند البرهان النسفي ل ١٥١.

٣ ـ انظر في التفسير الكبير ١/ ١٠٨، وفي الكشف ل ٨ ب، وانظر في التفسير الكبير ٢/ ١٠٦، وفي الكشف ل ٢٩ ب، وانظر في التفسير الكبير ٤/ ٩٥، وفي الكشف ل ٦١ ب.

٤ ـ انظر ـ مثلا ـ سورة الناس، حيث قال الرازي ان عدد آياتها ست، بينما قال البرهان النسفي سبع، وقال الرازي: إنها مكية، بينما قال البرهان النسفي: انها مكية وقيل: مدنية.

٥ ـ انظر التفسير الكبير ٣/ ٢١.

٦ ـ انظر كشف الحقائق ل ٤١ أ.

وحين ذكر الرازي وجهين في فائدة تكرير الأمر بالهبوط من الجنة ثم قال: وعندي وجه ثالث أقوى من هذين الوجهين وذكره(١).

لخص البرهان النسفي تلك الوجوه ثم قال:

فان قيل: تلك الخطيئة لا يمكن أن تكون(٢) كبيرة لما مر، بل هي صغيرة لا محالة، ولو كانت صغيرة فلم جزاها جزاء الكبيرة من نزع اللباس والاخراج من الجنة والاهباط من السماء؟

فيقول: الصغيرة من الانبياء بمنزلة الكبيرة من غيرهم، ولان فيه من التنبيه لأولاده في اجتناب الخطايا واتقاء المآثم، والتنبيه على أنه أخرج بخطيئة واحدة فكيف يدخلها ذو خطايا جمة؟(٣).

٨ ـ لا يعنى بالأشعار التي يستشهد بها الرازي في شرح الآيات وهذا بين في طريقته، حتى في المواضع التي يكثر فيها الاستشهاد. انظر ـ مثلا ـ تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ الآية(٤).

فقد ذكر الرازي في تفسيرها أربعة عشر بيتاً(٥)، بينما لم يذكر البرهان النسفي من ذلك ولا بيتاً واحدا(٦)، وربما عدل عنه الى الاستشهاد بالآية(٧).

---

١ ـ انظر التفسير الكبير ٣/٢٨.

٢ ـ في الأصل «يكون»، ومثل هذا التعبير يتكرر في التفسير.

٣ ـ انظر كشف الحقائق ل ١٤١ أ، وانظر في التفسير الكبير ما ذكره الرازي في قضية تفضيل الشمس على القمر ٢/١١٩، وتعليق البرهان النسفي وتعليله لذلك ل ١٣٠أ ـ ٣٠ ب.

٤ ـ سورة البقرة، الآيتان: ٢١ و٢٢.

٥ ـ انظر التفسير الكبير ٢/٩٠ ـ ١٢٥. ٦ ـ انظر كشف الحقائق ل ٢٨ أ ـ ٣١ أ.

٧ ـ انظر التفسير الكبير ٢/٩٥ وكشف الحقائق ل ٤٥ ب.

٩ ـ وقد يكون الاختصار شديدا، فيبينُ سببه.

انظر ـ مثلاً ـ تفسير قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها﴾ الآية(١).

فقد ذكر الرازي في تفسيرها تسع مسائل، تشتمل على أقوال ووجوه وآيات وأخبار وآثار متعددة، بلغت احدى عشرة صفحة من القطع الكبير(٢). فلخصها البرهان النسفي في نحو نصف صفحة ثم قال:

وليقتصر على هذا القدر، فان فيه من الآيات والأخبار والآثار ما لا يمكن ذكره في هذا الموضع(٣).

١ ـ سورة البقرة، آية : ١١٤.

٢ ـ أنظر التفسير الكبير ٤/ ٩ ـ ١٩.

٣ ـ انظر كشف الحقائق ل ٥٧ أ، وانظر ـ أيضا ـ في التفسير الكبير ٤/ ٣٦ ـ ٤٩. وفي كشف الحقائق ل ٥٨ ب ـ ٥٩ أ.

الخاتمـــــة :

وبعد دراسـة هذا الإمام الجليل ـ التي يعلم الله تعـالى كم بذلت فيها من الجهـد والوقت لما ذكرته من قلة مـا كتب عنه ـ وبعد دراسـة تفسيره «كشف الحقـائق» ومقـارنتـه بالتفسير الكبير للامـام الرازي ـ رحمهما الله تعـالى ـ ألخص ذلك بنقاط محددة، أضمنها بعض مزايا هذا التفسير وخصائصه:

ـ ان البرهان النسفي كان إماما في المعقول، وشيخ الفسلفة ببغداد، بارعا في فن الجدل والمنطق والخلاف.

ـ لم يأخذ حظه من الدراسة، فلم أقف على من كتب فيـه بحثا أو رسالة، سوى أسطر معدودة في كتب التراجم.

ـ له ثلاثة عشر مؤلفا ـ حسبما وقفت عليـه من مؤلفاته ـ أهمها تفسيره «كشف الحقائق»، الذي يعد تهذيبـا للتفسـير الكبير للرازي، وقد كان من لوازم ذلك التلخيص والاختصـار لكثير من مسائله وفروعه وأبحاثه.

ـ لم يكن جهده في تفسـيره منحصراً في التلخيص كما ذكر مترجموه، ولم يكن ذلك هدفه، انما كـان باعثه كشف الحقائق وشرح الدقـائق في تفسير كلام رب العالمين ـ كما سمّـاه ـ .

ـ وان تلخيص البرهـان النسفي لكثير من عبـــارات الرازي في تفسيره الكبير، يعتبر بحد ذاته جهـدا علميا كبيراً، ويزيده جهداً وعلو كعب مـا أضاف اليه من نكات وتعليـلات وتعليقات وتتمات وتوضيحات وإفـادات، وما أدخل عليه من ترتيب وتهذيب مما أجاد فيه وأفاد.

ـ ومن مـزايا هذا التفسير: مقدمتـه القيمة التي تعـرض فيها للمبـاحث المتعلقة بعلمي المعاني والبيان، مما يدل على طول باعه وقوة تمكنه.

ـ إجابته على الاسئلة التي يثيرها الرازي ، ثم يتركها بدون جواب.

ـ اعـراضـه عن الاستطرادات الـواسعـة التي زخـر بها التفسير الكبير للرازي، سواء في ذلك المسائل النحويـة أو الكونية أو الاشارية، والاقتصار من ذلك على ما لابد منه في تبيين المراد.

ـ عنايته باللطائف والدقائق التفسيرية التي قد يغفلها الرازي، وادراجها ضمن مـا يهذبه من عباراته، وهي كثيرة متناثرة في ثنايا التفسير، لا تظهر إلا بالمقارنة الدقيقة.

ـ تعـد نسخة تفسير «كشف الحقـائق» للبرهان النسفي نسخة يتيمـة، حيث لم يسعفني التتبع الدقيق بالوقوف على نسخة ثانية، غير أنها ـ بحمد الله تعـالى ـ نسـخة كـاملة، لم يسقـط منها سـوى ورقـة واحدة ـ كما تقـدم في وصفها ـ.

ـ والمخطوط بحـاجـة الى دراسـة وتحقيق، حيث لم يسبق نشره ولا تحقيقه، وأنا بصدد ذلك ـ بعون الله وتوفيقه ـ وسيرى القارىء الكريم حيئنذ مزيدا من خصائص هذا التفسير ومزاياه، مما لا يتسع لذكره مثل هذا البحث، المقيد بصفحات محددة.

فهرس أهم المراجع :

المراجع المخطوطة :

- الأثمار الجنية في طبقات الحنفية للامـام ملا علي بن سلطان محمد القارى ت ١٠١٤ هـ ـ ميكروفلم بمركـز جمعة الماجد ـ دبي ـ رقم ١٥١ ـ مصور عن عارف حكمت بالمدينة المنورة.

- تراجم الأعـاجم ـ مخطـوط في الظاهرية بدمشق بـرقم ٢٢٥٨ [من ١٤٨ ـ ١٥٥] ق ـ مؤلفه غير معروف.

- طبقات الحنفيـة للإمام علي جلبي بن أمر الله بن عبدالقـادر الحميدي الشهير بابن الحنـائي ت ٩٧٩ هـ ـ مخطوط في الظاهـرية بدمـشق برقم ٧١٤٩ [٩ ب ـ ٣٩].

- الغرف العليـة في تراجم متأخري الحنفية للإمـام شمس الدين محمد بن علي ابن أحمد بـن طولون الصـالحي الدمشقـي ت ٩٥٣ هـ ـ ميكروفيلم بمـركـز البحث العلمي بجـامعـة أم القـرى بمكة المكرمـة برقم ١٥٣٣ / تاريـخ وتراجم ـ مصـور عن مكتبـة شهيد علي بتركيا برقم ١٩٢٤.

- كشف الحقـائق وشرح الدقـائق في تفسير كلام رب العـالمين للإمـام برهان الدين محمد بن محمـد النسفي ت ٦٨٧ هـ ـ مخطوط بمكتبة كوربلي زاده ـ استنبول برقم ١٢٣.

المراجع المطبوعة :

- أبجد العلوم للإمام محمد صديق حسن خان القنوجي ت ١٣٠٧ هـ ـ المكتبة القدوسية ـ لاهور ـ باكستان.

- الاعلام للاستاذ خير الدين الزركلي ـ دار العلم ـ للملايين.

- ايضاح المكنون بذيل كشف الظنون ـ وسيأتي ـ.

- البداية والنهاية للإمام الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤ هـ - تحقيق الدكتور أحمد أبي مسلم وغيره - دار الكتب العلمية - بيروت.

- تاج التراجم للإمام زين الدين قاسم بن قطلوبغات ٨٧٩ هـ - تحقيق إبراهيم صالح - دار المأمون للتراث - دمشق - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ هـ - سنة ١٩٩٢. ورجعت - أيضا - الى النسخة التي حققها محمد خير رمضان يوسف - دار القلم - دمشق.

- تاريخ العروس من جواهر القاموس للإمام اللغوي محب الدين ابي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ت ١٢٠٥ هـ - دار الفكر - بيروت - سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - الطبعة الثانية - سنة ١٩٤٣م.

- تاريخ العراق بين احتلالين بقلم المحامي الاستاذ عباس العزاوي - مطبعة بغداد سنة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م.

- تذكرة الحفاظ للإمام شمس الدين محمد الذهبي ت ٧٤٨ هـ - دار احياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه للإمام الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب ت ٧٧٩ هـ - تحقيق الدكتور محمد محمد أمين - مطبعة دار الكتب بمصر - القاهرة - سنة ١٩٧٦م.

- الجواهر المضية في طبقات الحنفية للإمام محيي الدين أبي محمد عبدالقادر ابن محمد بن محمد القرشي الحنفي ت ٧٧٥ هـ - تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.

- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة للإمام المؤرخ الكبير أبي الفضل عبدالرزاق بن الفوطي البغدادي ت ٧٢٣ هـ.

تحقيق مصطفى جواد ـ طبع المكتبة العربية بغداد سنة ١٣٥١ هـ ـ مطبعة الفرات.

ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن محمد الشهير بابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ هـ ـ مطبعة دار المعارف العثمانية ـ الهند. سنة ١٣٤٨ هـ ـ الطبعة الأولى.

ـ دول الإسلام للإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي ت٧٤٨ هـ ـ مطبعة دائرة المعارف النظامية ـ حيدر أباد الدكن ـ الطبعة الثانية سنة ١٣٦٤ هـ.

ـ الرازي مفسراً رسالة دكتوراه بقلم الدكتور محسن عبدالحميد ـ دار الحرية ـ بغداد ـ سنة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م.

ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب للإمام أبي الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي ت ١٠٨٩ هـ ـ نشر مكتبة القدس ـ القاهرة ـ سنة ١٣٥٠ هـ.

ـ الطبقات السنية في تراجم الحنفية للمولى تقي الدين بن عبدالقادر التميمي الداري ت ١٠٠٥ هـ، تحقيق الدكتور عبدالفتاح محمد الحلو ـ دار الرفاعي للطباعة والنشر ـ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م ـ الرياض.

ـ طبقات الفقهاء لمولانا عصام الدين أحمد بن مصلح الدين مصطفى بن خليل المشهور بطاش كبرى زاده ت ٩٦٧ هـ ـ مطبعة نينوى ـ الموصل ـ العراق ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤م.

ـ طبقات المفسرين للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي ت ٩٤٥ هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

ـ العبر في خبر من غبر للإمام الحافظ الذهبي ت ٧٤٨ هـ ـ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ـ مطبعة حكومة الكويت سنة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م.

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للإمام بدر الدين محمد العيني ت ٨٥٥ هـ - تحقيق الدكتور محمد محمد أمين - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

- فؤاد الفؤاد - وهو باللغة الفارسية والاردية ويعني سلطان المشايخ - حضرت خواجة نظام الدين أولياء محبوب الهي - طبع ونشر دار أكاديمي - دهلي - الهند.

- الفوائد البهية في تراجم الحنفية للعلامة أبي الحسنات محمد عبدالحي اللكنوي الهندي ت ١٣٠٤ هـ - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

- الفهرس الشامل - مؤسسة آل البيت - المجمع الملكي - عمان - الأردن.

- فهرس مخطوطات مكتبة كوربلي - استنبول - تركيا.

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ت ٨٤٥ هـ - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٢٧٦ هـ - ١٩٥٦م.

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للعالم الفاضل الاستاذ مصطفى ابن عبدالله الشهير بحاجي خليفة ت ١٠٦٧ هـ - دار احياء التراث العربي - بيروت.

- لسان الميزان للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ هـ - من منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان.

- مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين للإمام محمد بن أبي بكر المشهور بابن قيم الجوزية ت ٧٥١ هـ - تحقيق محمد حامد الفقي - دار الفكر - بيروت - سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٩١م.

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان للإمام محمد عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي اليمني المكي ت ٧٦٨ هـ - مطبعة دائرة المعارف النظامية - حيدر أباد الدكن - الطبعة الأولى سنة ١٣٣٩ هـ.

- معجم شيوخ الذهبي للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ - تحقيق وتعليق الدكتورة روحية عبدالرحمن السيوفي - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

- معجم المؤلفين عمر رضا كحالة - دار احياء التراث العربي - بيروت لبنان.

- معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر للأستاذ عادل نويهض - مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة والنشر - الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

- مفتاح السعادة ومصباح السيادة تأليف أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده ت ٩٦٧ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي تأليف يوسف بن تغري بردى الأتابكي ت ٨٧٤ هـ - تحقيق الدكتور محمد محمد أمين - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤م.

- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر للعلامة الشريف عبدالحي بن فخر الدين الحسيني الندوي ت ١٣٤١ هـ - دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد الدكن - الطبعة الأولى سنة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م.

- نيل السائرين في طبقات المفسرين للشيخ العلامة مولانا محمد طاهر الفنجفيري - طبع في المطبعة العربية - دار القرآن - باكستان.

ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين تأليف اسماعيل باشا البغدادي ت ١٣٣٩ هـ ـ استنبول.

ـ الوافي بالوفيات تأليف صلاح الدين خليل ايبك الصفدي ت ٧٦٤ هـ ـ استنبول ـ مطبعة الدولة سنة ١٩٣١ م.

مؤمنو أهل الكتاب ومكانتهم في الإسلام

د. عمر وفيق الداعوق *

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد،

فقد تنوع البيان القرآني، وتعددت طرقه وأساليبه وذلك في معرض إقامة الحجة على الناس، وامتازت خصائصه بعدة أساليب منها: الخطابي والبرهاني والجدلي.

ويعنينا منها في هذا المقام ما يتعلق بأهل الكتاب، إلا أنه لابد من الاعتراف بالعجز عن الإحاطة بكل ما يخصهم، لكثرة القضايا التي عالجها القرآن الكريم لهم.، والدارس لأسلوب الخطاب القرآني لأهل الكتاب يجد منهج الترهيب والترغيب فيه من أبرز الأساليب نفعا في القضايا الدينية، وعليه فإن محور هذا البحث ينطلق منه، إذ أنه ثمرة من ثماره، وأثر من آثاره.

---

* مدرس العقيدة في قسم أصول الدين بكلية الدراسات الإسلامية والعربية ـ دبي.

ففي جانب الترهيب نجد النصوص الشرعية تتضافر لإلزام أهل الكتاب بمنهج الحق والصواب، وترك الشك والارتياب، وبيان عقم العقائد التي ينتحلها القوم، والدعوة إلى ضرورة التخلي عنها، والتحلي بعقيدة التوحيد، وتنزيه الباري عز وجل عن كل ما لا يليق بذاته العلية، والبعد عن التجسيم والتشبيه، وتحذيرهم من مغبة الاستمرار والعكوف على العقائد ذات الأصول الوثنية. وإنذار المعاندين منهم بالعذاب الشديد والعقاب الأليم، خاصة لمن نسب لله تعالى الصاحبة والولد.

أما في جانب الترغيب، فإن القرآن الكريم يخاطبهم بأوفى عبارة وأجلى إشارة وبأسلوب يبعث على ترقيق القلوب القاسية، وتليين الطباع الجافة والرقاب الغليظة، مبينا محاسن الإسلام، مظهرا ما أعده الله تعالى من أجر وثواب لمن آمن من أهل الكتاب. ولفت الانتباه إلى الصفات التي يتحلى بها المؤمنون، والمناقب الأخلاقية والسلوكية التي يتمتعون بها.

هذه الفئة المؤمنة، أسلمت قيادها لله تعالى لما جاءتها البينات، وهي في حد ذاتها حجة على المعاندين المكذبين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

ووقع اختياري على هذا البحث لعدم توفر مؤلف مفرد يلم بأحوال وخصائص ومناقب مؤمني أهل الكتاب وفق ما جاء به الشرع الحنيف، وقد وجدت بعض المؤلفات عن الداخلين في الاسلام بشكل عام، إلا أنها لم تتطرق إلى إبراز مكانة مؤمني أهل الكتاب في الإسلام على وجه الخصوص، ومقدار الأجر والثواب المعد لهم، وواجب المسلمين نحوهم، وواجبهم نحو الإسلام، وربما كان التذكير بأحوالهم في الماضي والحاضر وما ينبغي أن يكون عليه مستقبلهم هو المهم والمقصود من إثارة هذه القضية، وطرحها على بساط البحث، وقسمت الموضوع على النحو التالي:

المبحث الأول: «مؤمنو أهل الكتاب في القرآن الكريم، والسنة، وأقوال العلماء ويشمل:

١ ـ التعريف بهم.
٢ ـ الأدلة من القرآن الكريم.
٣ ـ الأدلة من السنة النبوية.
٤ ـ أقوال العلماء فيهم.
٥ ـ صفاتهم ومناقبهم وما أعد الله لهم من أجر وثواب.

المبحث الثاني: «مؤمنو أهل الكتاب» والطريق إلى الإسلام، ويشمل:

ـ أسباب دخولهم في الإسلام، ويشمل:
١ ـ ذكر صفات النبي صلى الله عليه وسلم في كتبهم.
٢ ـ ذكر القرآن الكريم لقصص أنبياء بني إسرائل وتكريمهم.
٣ ـ ذكر القرآن الكريم لحقيقة عيسى عليه السلام.
٤ ـ صفاء العقيدة الإسلامية وخلوها من الشرك والوثنية.
٥ ـ سماحة الإسلام.
٦ ـ التدرج في التشريع.
٧ ـ لا واسطة بين الخلق والخالق تبارك وتعالى.
٨ ـ دعوة الإسلام إلى تحرر الشعوب المقهورة.

ـ **الخاتمة:** وفيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: «مؤمنو أهل الكتاب» في القرآن الكريم والسنة وأقوال العلماء وفيه:

أولا: التعريف بهم:

للعلماء أقوال في مفهوم أهل الكتاب، فمنهم من قال: «إن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على وجه الخصوص» وهذا مذهب الشافعية والحنابلة.

قال ابن قدامة: «وأهل الكتاب... هم أهل التوراة والإنجيل، قال تعالى: (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا)«١»

فأهل التوارة اليهود والسامرة. وأهل الإنجيل النصارى، ومن وافقهم في أصلهم... أما ما سوى هؤلاء من الكفار المتمسك بصحف إبراهيم وشيث وزبور داود فليسوا بأهل كتاب«٢»

أما الأحناف فمفهوم أهل الكتاب عندهم: كل من يعتقد دينا سماويا وله كتاب منزل. قال الزيلعي:

«كل من يعتقد دينا سماويا وله كتاب منزل كصحف إبراهيم وشيث وزبور داود عليهم السلام فهو من أهل الكتاب، فتجوز مناكحتهم وأكل ذبائحهم خلافا للشافعي«٣»

كما بين الجصاص ـ من الأحناف ـ اختلاف الأقوال في هذا الشأن ونفى أن يكون المجوس من أهل الكتاب وأوضح رأي الإمام أبي حنيفة في الصابئة«٤». ويعود سبب الخلاف بين الفقهاء لكثرة الفرق الموجودة آنذاك، وقد كان من الضروري التعريف بهم لتحديد قيمة الجزية المفروضة.

١ ـ الأنعام: ١٥٦

٢ ـ المغني لإبن قدامة، ٦/ ٥٩٠ ـ ٥٩١ وانظر المجموع شرح المهذب للنووي في معرفة أقوال الشافعية ١٦/ ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

٣ ـ تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين عثمان الزيلعي، ٢/ ١١٠.

٤ ـ انظر: أحكام القرآن للجصاص، ٢/ ٣٢٧، و٣/ ٩١. وللمزيد يراجع «أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام»، د. عبد الكريم زيدان ص ١١ ـ ١٢.

أما التعريف بمؤمني أهل الكتاب:

فهم الذين دخلوا في دين الله تبارك وتعالى المنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وآمنوا بما أنزل عليه، عقيدة وشريعة والتزموا به قولا وعملا. وقد كانوا من قبل على شريعة سماوية وعلى وجه الخصوص اليهود والنصارى. لقوله صلى الله عليه وسلم: من أسلم من أهل الكتابين«١».

ومن المعلوم أن الحوار مع أهل الكتاب لم ينقطع منذ بزوغ فجر الإسلام الحنيف وذلك للعوامل الخصبة والمقومات التي يرتكز عليها دين التوحيد الخالص. وعليه فقد أخذ علماء الأمة الإسلامية على عاتقهم حوار اليهود والنصارى على اعتبار أنهم أصحاب كتب سماوية مستندين إلى قوله تعالى: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون)«٢» وقوله تعالى (إدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)«٣».

ومن المقطوع به أن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا ما أنزل الله إليهم، ولهذا دار الجدال بين المسلمين وبينهم حول القضايا العقدية في المقام الاول، وقد وجد بين القوم من لم يرتض هذا التحريف وذاك التزييف، وبقي على إيمانه بالتوحيد الخالص، متمسكا بتعاليم الأنبياء والرسل عليهم السلام..

وقد بين الحق تبارك وتعالى هذا الأمر فقال: (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)«٤»وقال تعالى: (... ولتجدن أقربهم مؤدة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما

---

١ ـ رواه الإمام أحمد في المسند: ٥/٣٢٦، وسياتي فيما بعد إن شاء الله تعالى.

٢ ـ العنكبوت: ٤٦.

٣ ـ النحل: ١٢٥.

٤ ـ الاعراف: ١٥٩.

عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين)«١».

وقد نجم عن الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب دخول العديد من كبار علماء وأعلام النصارى واليهود في دين الله تبارك وتعالى كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وابني سعنة، وابن يامين، وكعب الأحبار، وكان ذلك في عهد الرعيل الأول«٢»، ثم توالت هذه المواكب فيما بعد فنجد إسرائيل بن شموئيل الأورشليمي والسموأل بن يحيى المغربي وأشباههم من علماء اليهود، في العصور الوسطى«٣» ثم كوكبة ممن فتح الله قلوبهم للتقوى في العصر الحاضر «٤». أما من النصارى فنجد: تجيرا، ونسطورا، وصاحب بصرى، وأسقف الشام، والجارود العبدي، وسلمان الفارسي، ونصارى الحبشة، وأساقفة نجران وكان هذا في فترات مختلفة من الماضي«٥»، أما في الحاضر فهناك الكثيرون ممن دخلوا في الدين أفواجا«٦» هذا هو المقصود بمؤمني أهل الكتاب والذي يدور البحث حولهم.

---

١ ـ المائدة: ٨٢ ـ ٨٤.

٢ ـ انظر منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب، عبد العزيز بن حمد بن ناصر آل معمر، ص١٠٠.

٣ ـ انظر «الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية، للأورشليمي، ت عبد الوهاب طويلة. وكذا «إفحام اليهود» للسموأل المغربي، ت: د. محمد عبد الله الشرقاوي.

٤ ـ انظر: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبد الصمد، ١/١٩٧.

٥ ـ انظر: منحة القريب المجيب، ص ١٠٠.

٦ ـ انظر الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبد الصمد، بأجزائه الثلاثة. وكذا: رجال ونساء أسلموا، لعرفات كامل العشي، دار القلم، ط٢، ١٣٩٢هـ وكذا حوارات مع مسلمين أوروبيين، د. عبد الله أحمد قادري الأهدل. وينشر العديد من الدوريات والصحف، مقابلات ومقالات حول الداخلين الجدد في الإسلام، انظر على سبيل المثال: «جريدة المسلمون»، الصادرة في ٢/٨/١٩٩١م ومجلة الفيصل، عدد سبتمبر ١٩٩٢م، ومجلة اليمامة السعودية الصادرة في ١٦ ذي الحجة ١٤٠٩هـ إلى جانب العديد من هذه الصحف والمجلات في الاقطار العربية والإسلامية.

ثانيا: الآيات القرآنية الدالة عليهم:

ورد في القرآن الكريم آيات عديدة عن أهل الكتاب، فرقت بين عامتهم وبين من آمن منهم، وبينت الأسباب التي دعتهم إلى الإسلام ونبذ العقائد البالية. فمن ذلك قوله تعالى:

(فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما. لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر، أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما)«١»

كما قال تعالى في حقهم:

(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة، ومما رزقناهم ينفقون، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين)«٢»

وعن اتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم يقول الحق تبارك وتعالى:

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون)«٣»

---

١ ـ النساء: ١٦٠ ـ ١٦٢.

٢ ـ القصص: ٥٢ ـ ٥٥.

٣ ـ الأعراف ١٥٧ ـ ١٥٩

وعن السجايا التي يتمتعون بها جاء قوله تعالى:

(قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قلبه إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا)«١»

ويقول أيضا: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب)«٢»

وعن حبهم لكتاب الله: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين)«٣»

ثالثا: الأحاديث الشريفة الواردة في حقهم:

أما السنة النبوية المطهرة فقد ورد فيها العديد من الأحاديث التي تبين اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بأولئك المؤمنين ومن ذلك ما جاء في قوله:

«ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، والعبد المملوك إذا أدى حق الله تعالى وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»«٤»

---

١ ـ الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.

٢ ـ آل عمران: ١٩٩.

٣ ـ آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥.

٤ ـ صحيح الإمام البخاري، كتاب العلم، باب ٣١، تعليم الرجل أمته وأهله. ١/ ٣٢ ـ ٣٣.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:

«ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه وصدقه، فله أجران وعبد مملوك أدى حق الله وحق سيده، فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن أدبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران»«١»

وروي الإمام أحمد عن أبي أمامة قال:

«إني لتحت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، فقال قولا حسنا جميلا، وقال فيما قال: «من أسلم من أهل الكتابين، فله أجره مرتين، وله ما لنا وعليه ما علينا. ومن أسلم من المشركين فله أجره، وله ما لنا وعليه ما علينا»«٢» وفي هذا الحديث بيان واضح من النبي صلى الله عليه وسلم لمقدار الأجر والثواب المضاعف لمن آمن من أهل الكتاب. أي من اليهود والنصارى لتخصيص الكتابين بالذكر.

رابعا ـ آراء العلماء وأقوالهم في مؤمني أهل الكتاب:

يجمع أهل السنة والجماعة على أن الآيات السابقة نزلت في حق مؤمني أهل الكتاب، وقد ذكر العلماء ذلك في الكثير من كتب التفسير، قال ابن كثير: «والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن اسحق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس، أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبه بن سعنة وشعبة وغيرهم»«٣»

ففي قوله تعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب...): «أي:» لا يستوي من

---

١ ـ صحيح الإمام مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث (٢٤١ ـ ١٥٤)، ١/ ٤٦٤. ورواه الترمذي بلفظ مقارب في كتاب النكاح، رقم الحديث (١١١٦)، ٣/ ٤٢٤ والنسائي في كتاب النكاح أيضا رقم الحديث (٣٣٤٤)، ٦/ ١١٥ وابن ماجه، ١/ ١٩٥٦

٢ ـ مسند الإمام أحمد، رقم الحديث، ٢٢٢٣/٩٨، ٥/٣٢٦.

٣ ـ تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٩٧.

تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا ولهذا قال تعالى: (ليسوا سواء) أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: (من أهل الكتاب أمة قائمة) أي: قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه متبعة نبي الله فهي قائمة يعني مستقيمة«١»

وجاء في قوله تعالى: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) الآية«٢»

قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة: نزلت في النجاشي، وذلك لما مات«٣» نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم، فقالوا: ومن هو؟ فقال: «النجاشي» فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البقيع، وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي، وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له، وقال لأصحابه: استغفروا له، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا، يصلي على علج حبشي نصراني لم يره قط، وليس على دينه، فأنزل الله تعالى هذه الآية)«٤»

قال الشوكاني: «سيقت لبيان أن بعض أهل الكتاب لهم حظ من الدين وليسوا كسائرهم في فضائحهم التي حكاها الله عنهم فيما سبق وفيما سيأتي فإن هذا البعض يجمعون بين الإيمان بالله وبما أنزل الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل على أنبيائهم حال كونهم خاشعين (لله لا يشترون) أي: لا يستبدلون بآيات الله ثمنا قليلا) بالتحريف والتبديل كما يفعله سائرهم

١ ـ تفسير القرآن العظيم ١/٣٩٧.

٢ ـ آل عمران: ١٩٩.

٣ ـ انظر نعي النبي صلى الله عليه وسلم للنجاشي في صحيح البخاري، كتاب الجنائز، ٢/٩٠ وفي صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الجنائز، رقم الحديث ٦٤ ـ ٩٥٢، ٤/٣٦.

٤ ـ أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، ت: د. مصطفى ديب البغا، ص ١٠١.

بل يحكمون كتب الله سبحانه وتعالى كما هي، والإشارة بقوله (أولئك) أي: هذه الطائفة الصالحة من أهل الكتاب«١»

وتعرض الإمام الرازي في تفسيره للحديث عن هذه الطائفة الصالحة، وبين المسائل المتعلقة بالآيات التي تحدثت عن مناقبهم وصفاتهم فقال في قوله تعالى: (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما)«٢». «اعلم أنه تعالى لما وصف طريقة الكفار والجهال من اليهود وصف طريقة المؤمنين منهم فقال: (لكن الراسخون في العلم منهم...) الآية وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المراد من ذلك عبد الله بن سلام وأصحابه الراسخون في العلم الثابتون فيه، وهم في الحقيقة المستدلون بأن المقلد يكون بحيث إذا شكك يشك وأما المستدل فإنه لا يتشكك البتة، فالراسخون هم المستدلون والمؤمنون، يعني: المؤمنين منهم، أو المؤمنين من المهاجرين والأنصار...

المسألة الثانية: اعلم أن العلماء على ثلاثة أقسام..... «وذكر من القسم الثالث» أنه تعالى وصفهم بكونهم راسخين في العلم ثم شرح ذلك فبين أولاً: كونهم عالمين بأحكام الله تعالى وعاملين بتلك الأحكام، فأما علمهم بأحكام الله فهو المراد من قوله (والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك...)«٣»

وبين الإمام القرطبي رحمه الله تعالى أن أهل الكتاب كانوا يعلمون أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق وأنه مرسل من عند الله تبارك وتعالى،

---

١ ـ فتح القدير للشوكاني، ١/ ٤١٤.

٢ ـ النساء: ١٦٢.

٣ ـ تفسير الفخر الرازي: ٦/١٠٧ ـ ١٠٨.

وفسر قوله تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)«١» بقوله:

(أي يعرفون نبوته وصدق رسالته والضمير عائد على محمد صلى الله عليه وسلم، قال مجاهد وقتادة وغيرهما، وقيل نزلت في أمر تحويل القبلة عن بيت المقدس)«٢»

وخص الأبناء في المعرفة بالذكر دون الأنفس وإن كانت ألصق لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيها ابنه، وروي أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه)«٣»

وقد بين الحق تبارك وتعالى ما لهؤلاء المؤمنين من أجر وثواب حيث يقول: (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين)«٤»

روى الطبري عن مجاهد قال قوله: (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) إلى قوله: (الجاهلين) هم مسلمة أهل الكتاب قال ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار بسنده إلى ابن رفاعة: قال: خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم أبو رفاعة يعني أباه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا، فأوذوا فنزلت: (الذين آتيناهم الكتاب من قبله)

---

١ ـ البقرة: ١٤٦.

٢ ـ تفسير القرطبي: ٢/ ١٦٢.

٣ ـ تفسير القرطبي: ٢/ ١٦٣.

٤ ـ القصص: ٥٢ ـ ٥٥.

وبسنده عن قتادة قال: (كنا نحدث أنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها وينتهون إليها حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، فآمنوا به فأعطاهم الله أجرهم مرتين بصبرهم على الكتاب الأول واتباعهم محمداً صلى الله عليه وسلم وصبرهم على ذلك وذكر أن منهم سلمان وعبد الله بن سلام)«١»

أما ما جاء في قوله تعالى:

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والأنجيل...)«٢» فهذه «صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم»«٣»

وجاء في آخر الآيات:

(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون).

«أي المنعوتون بتلك النعوت الجليلة هم المفلحون الفائزون بالمطلوب، لا يتصفون بأضداد صفاتهم، وفيه الإشارة إلى علية تلك الصفات للحكم، وكاف البعد للإيذان ببعد المنزلة، وعلو الدرجة في الفضل والشرف، والمراد من الموصول المخبر عنه بهذه الجملة عند ابن عباس رضي الله عنهما: اليهود الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل. ما يعمهم وغيرهم من أمته عليه الصلاة والسلام المتصفين بنعوت الصلة إلى يوم القيامة. وهو الأولى)«٤»

---

١ ـ تفسير الطبري ١١ / ٨٩ وهناك أقوال أخرى ذكرها ابن جزي في التسهيل ٣ / ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

٢ ـ الأعراف: ١٥٧.

٣ ـ تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٥١.

٤ ـ روح المعاني، للألوسي، ٩/ ٨٢.

أما ما جاء في قوله تعالى:

(وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) أي: «إذا يتلى هذا القرآن على الذين آتيناهم الكتاب من قبل نزول القرآن (قالوا آمنا به). يقولون: صدقنا به (إنه الحق من ربنا) أي: من عند ربنا نزل قبل مجيء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الكتب وفي كتبهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته فكانوا به وبنعته مصدقين قبل نزول القرآن، فكذلك قالوا: (إنا كنا من قبله مسلمين)»[1]

وفي قوله تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون)[2]

روى الإمام القرطبي عن قتاده قوله: (هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والكتاب على هذا التأويل القرآن. وقال ابن زيد: هم من أسلم من بني إسرائيل والكتاب على هذا التأويل التوراة والآية تعم)[3]

أما في السنة النبوية الشريفة

فقد جاءت أحاديث كثيرة تبين معرفة أهل الكتاب بصفات النبي صلى الله عليه وسلم فمن ذلك ما رواه البخاري بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن هذه الآية التي في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) قالَ في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ولا يدفع السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه حتى

---

١ ـ تفسير الطبري، ١١/ ٨٩.

٢ ـ البقرة: ١٢١.

٣ ـ تفسير القرطبي ٢/ ٩٥ ـ ٩٦.

يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله يفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا)«٣»

وروى الإمام أحمد بسنده عن صخر العقيلي: حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه، قال فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت أجمل الفتيان وأحسنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟ فقال برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فقال: أقيموا اليهودي عن أخيكم ثم تولى كفنه والصلاة عليه»«١»

وأخرج البيهقي في دلائل النبوة: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب في الإنجيل: لا فظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ولا يجزىء بالسيئة مثلها بل يعفو ويصفح»«٢»

كما أخرج ابن سعد في الطبقات عن سهل مولى عتيبه أنه كان نصرانيا من أهل مريس، وأنه كان يتيما في حجر أمه وعمه، وأنه كان يقرأ الإنجيل، قال: فأخذت مصحفا لعمي فقرأته حتى مرت بي ورقة، فأنكرت كتابتها حيث مرت

---

٣ ـ صحيح الإمام البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الفتح (٤٨)، باب ٣، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، ٦/ ٤٤ ـ ٤٥ وكذا في كتاب البيوع (باب ٥٠) كراهية السخب في السوق، ٣/ ٢١ وفي سند الإمام أحمد ٢/ ١٧٤.

١ ـ المسند ٥/ ٤١١، قال ابن كثير في سنده: هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس، انظر تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٥٠ والدر المنثور للسيوطي ٣/ ١٣١ وفي تاريخ ابن عساكر ١/ ٣٣٧، بلفظ مقارب، والتفسير المأثور عن عمر بن الخطاب ص ٣٨٦.

٢ ـ دلائل النبوة للبيهقي، ١/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨. وفي الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٦٣. والبداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٦١. وفي تاريخ ابن عساكر ١/ ٣٣٧.

بي ومسستها بيدي، قال: فنظرت فإذا فصول الورقة ملصق بغراء، قال ففتقتها فوجدت فيها نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أنه لا قصير ولا طويل، أبيض، ذو ضفيرين، بين كتفيه خاتم، يكثر الاحتباء، ولا يقبل الصدقة ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة، ويلبس قميصا مرقوعا، ومن فعل ذلك فقد بريء من الكبر وهو يفعل ذلك، وهو من ذرية إسماعيل أسمه أحمد ، قال سهل. فلما انتهيت إلى هذا من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم، جاء عمي، فلما رأى الورقة ضربني، وقال: مالك وفتح هذه الورقة وقراءتها؟ فقلت فيها نعت النبي صلى الله عليه وسلم، أحمد، فقال إنه لم يأت بعد»[1]

وأخرج ابن سعد عن جرير بن حازم، حدثني من سمع الزهري يحدث أن يهوديا قال: ما كان بقي شيء من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة إلا رأيته إلا الحلم.

وإني أسلفته ثلاثين دينارا إلى أجل معلوم، فتركته حتى إذا بقى من الأجل يوم أتيته فقلت. يا محمد اقض حقي، فإنكم معاشر بني عبد المطلب مطل، فقال عمر: يا يهودي الخبيث أما والله لولا مكانه لضربت الذي فيه عيناك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«غفر الله لك يا أبا حفص، نحن كنا إلى غير هذا منك أحوج إلى أن تكون أمرتني بقضاء ما علي، وهو إلى أن تكون أعنته في قضاء حقه أحوج، قال: فلم يزده جهلي عليه إلا حلما. قال: يا يهودي إنما يحل حقك غدا، ثم قال: «يا أبا حفص اذهب به إلى الحائط الذي كان سأل أول يوم فإن رضيه فأعطه كذا وكذا صاعا وزده لما قلت له كذا وكذا صاعا فإن لم يرض فأعطه ذلك من حائط كذا وكذا.

فأتى به الحائط فرضى تمره، فأعطاه ما قال رسول الله صلى الله عليه

---

١ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١/ ٣٦٣ وفي تاريخ ابن عساكر، ١/ ٣٣٨ واورد الآلوسي العديد من الروايات حول هذا الموضوع، انظر روح المعاني ٩/ ٨٠ ـ ٨١.

وسلم، وما أمره من الزيادة، قال: فلما قبض اليهودي تمره قال: أشهد أن لا أله إلا الله وأنه رسول الله ما حملني على ما رأيتني صنعت يا عمر إلا أني قد كنت رأيت في رسول الله صلى الله عليه وسلم صفته في التوراة كلها[1] إلا الحلم فاختبرت حلمه اليوم فوجدته على ما وصف في التوراة. وإني أشهدك أن هذا التمر وشطر مالي في فقراء المسلمين، فقال عمر، فقلت: أو بعضهم، فقال: أو بعضهم، قال: وأسلم أهل بيت اليهودي كلهم إلا شيخا كان ابن مائة سنة فعسا على الكفر»[2]

خامساً: صفاتهم ومناقبهم:

من خلال استقراء آيات القرآن الكريم تتضح السمات العقدية والسجايا الخلقية والسلوكية لمؤمني أهل الكتاب، شأنهم في ذلك شأن جميع الذين اتخذوا دين الله تعالى طريقا ومنهاجا، فالإيمان الفطري المتغلغل في حنايا

---

١ ـ ومما يؤيد هذا الكلام ذلك الاكتشاف الذي تم في سنة ١٩٤٧ ويعود إلى فرقة من بني إسرائيل كانت تسمى «بالأسانيين» أو «القمرانيين» والتي نشأت في القرن الثاني قبل الميلاد وانقرضت حوالي سنة ٧٠ ميلادية بعد أن خلفت وراءها مخطوطات وسميت فيما بعد بمخطوطات البحر الميت، أو مخطوطات كهوف قمران، وكانت هذه الفرقة تتهم الفرق اليهودية الاخرى بتحريف التوراة وقتل الانبياء وتعذيبهم، وأن هذه الفرقة كانت تؤمن بمبعث نبي آخر الزمان ومن صفاته أنه يحمل في كتفه خاتم النبوة، وانها تنتظر مجيئه لتحارب الفرق الضالة، وله صفات أخرى موجودة في التوراة، يراجع في هذا الصدد:

أ ـ حياة المسيح، عباس محمود العقاد المجموعة الكاملة ٢١٦/١١، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.

ب ـ مخطوطات البحر الميت، محمود العابدي، الأردن، ط: ١٩٦٧.

ج ـ مخطوطات البحر الميت ، حسين عمر حمادة، الأردن ١٩٨٢م.

د ـ مخطوطات البحر الميت والبحث في أصول النصرانية الأولى د. فاروق عمر عبد الله. ١٤٠٦هـ محاضرة في جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة.

هـ ـ كنز قمران، مدارج البحر الميت، اثناسيوس يشوع صموئيل. ط١٩٨٥.

إلى جانب من المراجع الأخرى.

٢ ـ الطبقات الكبرى، ١ / ٣٦١. وانظر التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إبراهيم ابن حسن ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

قلوبهم يلقي عليهم ظلال محبة اللـه تعالى فلا يصـدر عنهم إلا ما يوافق شرع الله.

وفضلا عن إيمانهم بـالأنبياء والرسل والملائكة والكتب واليـوم الآخر، فقد تحلوا بصفات لا تفارقهم، سطرها كتاب الله عز وجل ومنها:

١ ـ الاستسلام لأمر الله والإقرار بدينه الحنيف:

قال تعـالى في حقهم: (الذين آتيناهم الكتـاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين)«١»

وقال أيضا: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي.....) الآية.

فإيمانهم بالقرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم جاء بعد إيمانهم بالكتب السماوية المنزلة على الأنبيـاء السـابقين. فقد كـانوا مسلمين منقـادين لدعـوة الحق، وإيمانهم بمحمـد صلى الله عليـه وسلم نابع من تعـاليم كتبهم الصحيحة الأولى التي خلت من التحريف والتزييف والتي بشرت بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

٢ ـ الصبر على إذاية قومهم لهم:

وذلك لما أسلمـــوا لله تعـالى قيـادهـم، أو غير ذلك من أنواع الصبر«٢» كـالصبر على اتباع الحق وتجشم مثل هذا شـديد على النفوس«٣». ولهذا قـال الحق تعالى:

(أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا)«٤»

١ ـ القصص: ٥٥.

٢ ـ التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٣/ ٢٣٤.

٣ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٢٩٣.

٤ ـ القصص: ٥٤.

والشواهد كثيرة في عصرنا الحاضر، إذ أن هذه النماذج البشرية، لا زالت إلى الآن تتعرض للإرهاب الفكري والجسدي من قبل أعداء الحق«١»

٣ ـ تقديم النافع على الضار:

إن قوة التحمل لدى المؤمنين قادرة على العطاء والبذل، وفوق ذلك تظهر الصورة الناصعة لعباد الرحمن، ليكونوا مثلا يحتذى به، فهم يقدمون النافع على الضار ولهذا وصفهم الحق تبارك وتعالى بقوله: (ويدرؤون بالحسنة السيئة)«٢» وذلك لما يقال لهم من الكلام القبيح، أو أن المراد بالحسنة ما يجاوبون به من الكلام الحسن، أو يريد بذلك سيئات أعمالهم وحسناتهم كقوله (إن الحسنات يذهبن السيئات)«٣»

وتبعا لهذا مدحهم الحق تبارك وتعالى، بالترفع عن الدنايا، والإعراض عن السفهاء (واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) إن إعراضهم عن اللغو تكرما وتنزها وتأدبا بآداب الشرع ومثله قوله تعالى: (واذا مروا باللغو مروا كراما) واللغو هنا هو ما يسمعونه من المشركين من الشتم لهم ولدينهم والاستهزاء بهم«٤» وهو ساقط الكلام«٥»

(وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أي: لا يلحقنا من ضرر كفركم شيء، ولا يلحقكم من نفع إيماننا شيء«٦»

١ ـ انظر كتاب: «لماذا وكيف أسلمت» للشهيد أحمد سامي عبد الله، الذي يروي فيه قصة إسلامه والعذاب الذي مر به، ثم ما أفيد عن استشهاده فيما بعد على يد أحد افراد أسرته ضمن سلسلة كتب دعوة الحق السنة السادسة ـ العدد ٦٥، شعبان ١٤٠٧ هـ ـ إبريل ١٩٨٧، والعدد ٧٨ السنة السابعة، رمضان ١٤٠٨ هـ، مايو ١٩٨٨ ـ وللمزيد يراجع كتاب: «الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء» ١/ ٥١ ـ ٥٢، للوقوف على مدى المعاناة التي يتعرض لها الداخلون في دين الله تعالى.

٢ ـ القصص: ٥٤.

٣ ـ هود: ١١٤.

٤ ـ فتح القدير للشوكاني، ٤/ ١٧٨.

٥ ـ التسهيل لابن جزي ٣/ ٢٣٤.

٦ ـ فتح القدير ٤/ ١٧٨ والتسهيل ٤/ ٢٣٤.

(سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) معناه المتاركة والمباعدة لا التحية أو كأنه سلام التطرف والبعد»[١]

قال ابن كثير:

روى محمد بن اسحق في سيرته: أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة. فلما فرغوا من مساءلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، عما أرادوا، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتبهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم، من أهل دينكم، ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال، ما نعلم ركبا أحمق منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرا) ويقال إن هؤلاء النفر النصارى من أهل نجران»[٢]

٤ ـ البذل والإنفاق في سبيل الخير:

الاعتراف بفضل الله تعالى يوجب عليهم الإسراع في تزكية أموالهم بعد تزكية النفوس، فأبواب المنعم مفتوحة لهم، سواء كانت مادية أو معنوية، وعليه فإنهم ينفقون أموالهم في الطاعات وفيما أمر به الشرع«٣» في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات

---

١ ـ التسهيل ٣/ ٢٣٤.

٢ ـ تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٤.

٣ ـ فتح القدير ٤/ ١٧٨.

٤ ـ تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٩٤.

وصدقات النفل والقربات«٤» قال تعالى (ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون)«١» سورة القصص ٥٢ ـ ٥٥

٥ ـ الخشوع في العبادة:

من السجايا الحميدة ما جبلوا عليه وميزوا من الخشوع والخضوع لله تبارك وتعالى وذلك في صلواتهم، والتضرع إليه سبحانه ليمن عليهم بفضله وإحسانه وإنعامه ومغفرته. ولهذا فإن البكاء الصادق النابع من أعماق القلوب دليل على رهافة إحساسهم ورقة قلوبهم وهذا هو الفرق بينهم وبين الذين وصفهم الله تبارك وتعالى «بالقاسية قلوبهم»

ولهذا مدحهم الحق تبارك وتعالى بقوله: (إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا)«٢»

هذه الصفات العامة هي فيوضات الإيمان الناصع الذي لا تشوبه شائبة، «فإذا كان الإيمان بالله تعالى صحيحا منسجما مع الوحي الثابت الصحيح، سهل التقاء رافدي الإيمان، وتيسر الدمج بين الإيمانين، إن تجرد الإنسان عن العصبية والهوى، والمصلحة الذاتية، والنفع المادي وهذا ما تحقق لجماعة من أهل الكتاب من بني إسرائيل، آمنوا بالله ربا واحدا لا شريك له قبل القرآن بمقتضى كتابهم السماوي، ثم آمنوا بالقرآن، لمطابقته مع أصل ذلك الكتاب المتقدم، وهؤلاء كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي، ومن أسلم من علماء النصارى، وهم أربعون رجلا قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة، وثمانية نفر أقبلوا من الشام، وكانوا أئمة النصارى، منهم بحيرا الراهب وأبرهة، والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع، وقيل أكثر من ذلك.«٣»

---

١ ـ القصص ٥٢ ـ ٥٥.

٢ ـ الإسراء: ١٠٧.

٣ ـ التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي، ٢٠/١٢٨.

ويمكننا القول أيضا إن مسيرة الإيمان تلك لم تنقطع ولم تتوقف على مر التاريخ الإسلامي، وإلى يومنا هذا نرى ونسمع ونقرأ عن أناس من أهل الكتاب ـ وما أكثرهم ـ دخلوا في دين الله تعالى، وأسلموا وحسن إسلامهم وكتبوا وألفوا ورووا المشاهدات التي رأوها وتحدثوا عن انطباعهم عن الإسلام وما وجدوا فيه بروايات مشابهة لقصص من سبقهم من مؤمني أهل الكتاب.

إذا كانت هذه هي أهم صفاتهم ومناقبهم فما الذي أعده الله لهم من جزاء؟

ـ الأجر والثواب في ثمرات الإيمان:

إن هذا الإيمان المفعم بالصدق والإخلاص من أصحابه، له من الله تعالى الجزاء الحسن والأجر العظيم، وهذا بدوره يجعل هؤلاء المؤمنين في حبور وانشراح لما في الصدور.

إن مضاعفة الأجر والثواب لهؤلاء، المعلن عنها في كتاب رب العالمين لا يتغير ولا يتبدل فهو تقرير من لدن حكيم خبير، (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا)«١»

ويقول: (وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين)«٢»

ويقول (أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما)«٣» ويقول: (أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب)«٤»

إن الجزاء في الإسلام من جنس العمل، وهؤلاء أراد الله تعالى أن يكرمهم

---

١ ـ القصص: ٥٤.

٢ ـ آل عمران: ١١٤ ـ ١١٥.

٣ ـ النساء: ١٦٢.

٤ ـ آل عمران: ١٩٩.

لقاء ما قدمت أيديهم من طاعـات، ولهذا فإن الحق جل وعلا يمن عليهم بالأجر والثواب على ما بدر منهم والنبي صـلى الله عليهم وسلم يؤكد هذا الأمر فيقول:

ثلاثة لهم أجـران.. و(عد منهم): رجل من أهل الكتـاب آمن بنبيه وأدرك النبي صـلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران)«١»

المبحث الثاني: «مؤمنو أهل الكتاب والطريق إلى الإسلام، وفيه:

ـ اسباب دخولهم في الإسلام

ختم الله تعالى الرسالات السماوية برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، والتي تعتبر بحق أعظم حـدث في التاريخ على الأطلاق، إذ أنها عـامة وشـاملة، وصـالحة لكل زمان ومكان قـال تعالى (ومـا أرسلناك إلا كافـة للناس بشيرا ونذيرا)«٢». وهي من عند اللـه تعـالى (إن الدين عند الله الإسـلام)«٣» وأنها ناسخـة لما قبلها من الشرائع، (وإذ أخـذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتـاب وحكمة ثم جـاءكم رسول مصـدق لمامعكم لتؤمنن به ولتنصرنه قـال أأقررتم وأخـذتم على ذلكم إصري قـالوا أقـررنـا قـال فـاشهـدوا وأنا معكم من الشاهدين)«٤»

قـال علي وابن عباس رضي الله عنهما: «مـا بعث الله نبيا من الأنبيـاء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمـداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته«٥»

وهناك العديد من الأسباب وراء دخول هؤلاء في الدين منها:

---

١ ـ صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، رقم الحديث ٢٤١ (١٥٤)، ١/٤٦٤.

٢ ـ سبأ. ٢٨

٣ ـ آل عمران: ١٩.

٤ ـ آل عمران: ٨١.

٥ ـ تفسير القرآن العظيم، ١/٣٧٨.

أولا: ذكر صفات النبي صلى الله عليه وسلم في كتبهم:

إن علماء أهل الكتاب يعـرفون هذه الحقـائق كما يعرفـون صفات النبي صلى الله عليـه وسلم في كتبهم، وقـد كشف الحق تبـارك وتعـالى ذلك بقـوله: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعـرفون أبنائهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)«١»

قال الإمـام قرطبي «٠: أي: يعرفـون نبوته وصدق رسـالته، والضمير عائد على محمد صلى الله عليه وسلم««٢»

ويؤيد هذا ما تقدم من رواية عمـر رضي الله عنه حينما قال لعبد الله بن سـلام رضي الله عنه، «أتعرف محمـدا صلى الله عليه وسلم كما تعـرف ابنك؟ قـال: نعم وأكثر، بعث اللـه أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضـه بنعتـه فعرفتـه وابني لا أدري ما كان من أمه»«٣»

وجاء في قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون)«٤»

أي: يعرفـون النبي صلى الله عليه وسلم .. وقيل يعـود على الكتاب، أي: يعرفـونه على ما يدل عليـه، أي: على الصفة التي هو بها، من دلالتـه على صحة أمر النبي صلى الله عليه وسلم«٥»

وقال تعالى: (الذيـن آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون)«٦»

---

١ ـ البقرة ١٤٦

٢ ـ تفسير القرطبي ٢/١٦٢، وقيل نزلت في تحويل القبلة عن بيت المقدس.

٣ ـ المصدر السابق ٢/١٦٣.

٤ ـ الأنعام: ٢٠.

٥ ـ تفسير القرطبي ٦/٤٠٠.

٦ ـ البقرة ١٢١

«قال قتادة: هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والكتاب على هذا التأويل: القرآن. وقال ابن زيد: هم من أسلم من بني إسرائيل، والكتاب على هذا التأويل: التوراة، والآية تعم»«١»

والأدلة على ذكر صفة النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة، مبثوثة في كتب العلماء الذين تناولوا هذه القضية بالبحث والتقصي«٢»

ثانيا: ذكر القرآن الكريم لقصص أنبياء بني إسرائيل:

استعرض القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام عامة، وعرض للواقع الذي عايشه هؤلاء المصطفين الأخيار مع أقوامهم، وما لاقوه من العذاب والعنت أثناء دعوتهم ومدى الصبر الذي تحملوه إزاء هذه الغاية، كما بين المعجزات التي أيدهم الله تعالى بها عند تحدي المنكرين لهم، ووصفت السور والآيات الكريمة ما جلبوا عليه من حب الطاعة والانقياد لأمر الله تعالى، وما تحلوا به من طيب النفس ورقة القلب، والشجاعة في قول الحق والإقدام رغم المخاطر كقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

ويجد الوعاة من أهل الكتاب في قصتي موسى وعيسى عليهما السلام على وجه الخصوص ما يشد المؤمنين منهم إلى جانب الحق فيتمسكون به، وحينما يذكر الحق تبارك وتعالى المنصفين من النصارى، فإنه يعطينا انطباعا أكثر واقعية حيث يصف الباري تعالى هؤلاء بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا وأن

---

١ ـ تفسير القرطبي: ٢/ ٩٥ ـ ٩٦

٢ ـ انظر على سبيل المثال كتاب «الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية للحبر الأعظم الذي أسلم: «شموئيل الأورشليمي»، ت: عبد الوهاب طويلة، وكتاب: محمد في الكتاب المقدس «للقسيس داقيد بنجامين الكلداني، الذي أسلم وعرف باسم «عبد الأحد داود»دون فيه أسباب إسلامه ومنها: ذكر صفات محمد صلى الله عليه وسلم، انظر ص ٢٩ منه، ت: فهمي شما. وانظر كذلك كتاب: «محمد رسول الله» إتيين دينييه» الذي سمى نفسه: سليمان ابن إبراهيم.، ت: د. عبد الحليم محمود، ومحمد عبد الحليم محمود.

عاطفتهم الجياشة تظهر حينما يستمعون إلى ما يعرفون من الحق. قال تعالى:(... ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق....)«١»

ومما يشد هؤلاء إلى التمسك بالعروة الوثقى ذلك الخطاب الإلهي الدائم: (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)«٢»

ثالثا: ذكر القرآن الكريم لحقيقة عيسى عليه السلام:

بين الحق تبارك وتعالى حقيقة عيسى عليه السلام وأوضح أنه بشر نبي مرسل من عنده تعالى. كما بين قصة مولده والحوادث التي صاحبت هذا الحدث الهام في مسار النبوة، وقص علينا ما كان بشأن أمه الصديقة مريم البتول: (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين)«٣» ويقول عن ولادته: (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا،«٤» وعن صفاته: (وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا)«٥» وغيرها من الصفات الأخرى. كما أن الآيات التي تحدثت عن ظلم

١ ـ المائدة: ٨٢ ـ ٨٣.

٢ ـ المائدة: ١٥ ـ ١٦.

٣ ـ آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦.

٤ ـ مريم ٢٣ ـ ٢٤

٥ ـ مريم ٣٢

اليهود لعيسى عليه السلام وتقولهم عليه وعلى والدته والموقف المعادي له في دعوته يلقى آذانا صاغية من قبل أولئك الذين يعرفون الحق من النصارى«١»

كما تتجلى الحقائق لهم عندما يعرفون مدى تكريم القرآن الكريم لعيسى وأمه عليهما السلام حيث يقول: (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعان انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون)«٢»

كما أن تبرئة القرآن للسيدة مريم مما نسبه إليها اليهود يوضح دفاع الإسلام عن الحق ورد كيد الحاقدين: (فأتت به قومها تحمله، قالوا يا مريم، لقد جئت شيئا فرياً، يا أخت هارون ما كان أبوك أمرأ سوء وما كانت أمك بغيا، فأشارت إليه، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياقال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا، وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا سقيا، والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا)«٣» وهكذا جعل الله تعالى دليل براءتها من دليل الاتهام وذلك من خلال نطق عيسى عليه السلام وهو في المهد، معلنا براءتها، ومسكتاً لأقوال الطاعنين.

وطهارة مريم عليها السلام وتكريمها وارد في قوله تعالى: (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم اقنتي لربك وأسجدي واركعي مع الراكعين)«٤»

---

١ ـ ومن ذلك قوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) النساء: ١٥٥ ـ ١٥٦.

٢ ـ المائدة: ٧٥.

٣ ـ مريم: ٢٧ ـ ٣٣، انظر أثر هذه السورة في أسماع هؤلاء المؤمنين وذلك في كتاب «رسالة إلى الأخت سوزان»، لمحمد عيسى داود، ص٧٢

٤ ـ آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣ وقد عالج الشيخ محمد أبو زهرة ـ رحمه الله تعالى هذا الجانب بدقة علمية بارعة، انظر: محاضرات في النصرانية، ص ١٨ ـ ١٩.

هذا التكريم من الباري عز وجل بين الصورة الناصعة التي أراد اليهود تشويهها طعنا في دعوة عيسى عليه السلام الذي دعاهم إلى نبذ الشرك واصلاح العقيدة، وترقيق القلوب كما مر سابقا، وجاء في قوله. (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين)«١»

ففي ذلك دعوة لهم للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ولهذا أيضا عاندوه ورفضوا الانصياع إلى الحق. رغم أنه جاءهم بالبينات: (ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون، إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم)«٢»

ثم إن الحقائق الإيمانية تظهر من خلال بيان الحق تبارك وتعالى لحقيقة عيسى عليه السلام في أنه:

١ ـ رسول من عند الله تبارك وتعالى: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً)«٣»

٢ ـ أنه منزه عن ادعاء الألوهية والبنوة:

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون

---

١ ـ الصف: ٦.

٢ ـ الزخرف: ٦٣ ـ ٦٥.

٣ ـ النساء ١٧١

الحق من ربك فلا تكن من الممترين)«١»

(إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل)«٢»

ويتضح موقفه عليه السلام وبراءته من دعوى الألوهية في قوله تعالى: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال: سبحانك، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا علم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد)«٣»

ويقول الحق تبارك وتعالى: (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون)«٤»

وذلك ردا على من زعم أن عيسى ابن الله: (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)«٥»

ولهذا فإن الحكم على هؤلاء جاء في قوله تعالى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم)«٦»

---

١ ـ آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠.

٢ ـ الزخرف ٥٩

٣ ـ المائدة: ١١٦ ـ ١١٧.

٤ ـ مريم: ٣٤ ـ ٣٥.

٥ ـ التوبة : ٣٠ ـ ٣١.

٦ ـ المائدة : ٧٣.

ومن ذلك الحكم على من قال إن الله هو المسيح ابن مريم: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم..)«١»

٣ ـ أنه لم يقتل ولم يصلب، قال تعالى: (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)«٢»

رابعا: صفاء العقيدة الإسلامية وخلوها من الشرك والوثنية:

إن دين الله تبارك وتعالى دين الفطرة، البشرية التي فطر الناس عليها: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه فطرة الله التي فطر الناس عليها. الآية»«٣»

وجاء في الحديث القدسي(.. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما احللت لهم وامرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا أهل الكتاب...)«٤»

وعليه فإن النفس البشرية مهما تقلبت وتبدلت فإن أصل الفطرة يبقى كامنا في حناياها، ومؤمنو أهل الكتاب لم تتأثر فطرتهم قط بلوثة الإلحاد أو غشاوة الإشراك بالله تعالى، وقد فهموا جليا أن العقائد الوثنية قد تسربت إلى بني إسرائيل عبر التيارات القديمة، كما وجدوا في اليهود من يعبد الذهب

---

١ ـ المائدة ٧٢ وانظر أثر هده الأيات في مؤمني أهل الكتاب وذلك فيما كتبه محمد مجدي مرجان في كتابه «المسيح إنسان أم إله» الذي أسلم حديثا وكتب في الرد على النصارى، انظر ص ١٧٩ منه.

٢ ـ النساء: ١٥٧.

٣ ـ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ٨٠، إذا أسلم الصبي فمات ٢/٩٧ وفي كتاب القدر٣، وراوه مسلم في كتاب القدر، رقم الحديث ٢٢ـ٢٦٥٨، ٨/٤٥٨.

٤ ـ صحيح مسلم بشرح النووي، باب الصفات التي يعرفها بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم الحديث ٦٣ ـ ٢٨٦٥، ٩/٢١٤ ـ ٢١٥.

والفضة ويغرقون في حمأة الرذيلة والشهوة. (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)«١»

كما وجدوا في تحريف النصارى لعقيدة التوحيد التي جاء بها عيسى عليه السلام انحرافا خطيرا عن جادة الحق، ومعلوم أن هذا التحريف والتبديل كان بسبب الأثر البالغ الذي أحدثه بولس في الديانة المسيحية«٢»

وقد وجه الحق الخطاب إلى أهل الكتاب ونهاهم عن تلك المزاعم وذلك في قوله تعالى: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا)«٣»

ويقول أيضا: «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل)«٤»

إن غلوهم في الدين أدى إلى انحرافهم نحو العقائد«٥» الوثنية كالقول بالتثليث «والأبوة والبنوة»، والصلب والفداء، وجلها موروث عن الديانات الوضعية القديمة كالبوذية والجينية والهندوسية، إلى جانب تأثرهم بالفلسفة

---

١ ـ المائدة: ٧٨ ـ ٧٩.

٢ ـ انظر أثر بولس في تحريف النصرانية في كتاب: المسيحية نشأتها وتطورها، شارل جنيبير وكذلك معالم تاريخ الإنسانية، هـ ج ولز ٣/٧٠٥، وكتاب الإنجيل والصليب لعبد الأحد داود، ص ١٦٠.

٣ ـ النساء: ١٧١

٤ ـ المائدة ٧٧ وانظر أثر هذا في قصة إسلام عميد يهود مصر «زكي عريبي» وذلك في كتاب: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، ١/١٩٨ ـ ١٩٩.

٥ ـ انظر بتوسع كتاب: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر التنير، ص ١١٩ ـ ١٤٦ وكتاب المسيحية نشأتها وتطورها، ص ١٥٢ ـ ١٥٥.

الإغريقية اليونانية القديمة، وقد كشف الحق تبارك وتعالى عن هذه المحاكاة إذ يقول (وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)«١»

أما العقيدة الاسلامية فهي تخلو من الوثنية، والفلسفات المغرقة في الخيال، البعيدة عن الواقع. وتتلخص بكلمة التوحيد الدائمة: (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)«٢». وهذا ما يشد السائرين في موكب الهدى والنور. من غير تعقيد أو تلفيق«٣»

خامسا: سماحة الاسلام.

السماحة والتسامح من المبادىء الهامة التي نادى بها الإسلام، والتطبيقات العملية للسلف الصالح تشهد على حسن معاملة المسلمين لأهل الكتاب، وتبرز هذه الحقائق من خلال الصفحات المشرقة التي سطرها التاريخ بأحرف من نور، عبر مسيرة الإسلام منذ مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وإلى الآن، ومن ذلك ما نجده من احترام الإسلام لاصول الديانات السماوية التي أنزلت فيها كتب، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)«٤»

وعن التوراة يقول الحق تبارك وتعالى: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى

١ ـ التوبة: ٣٠ ـ ٣١.

٢ ـ الإخلاص: ١ ـ ٤.

٣ ـ انظر أثر ذلك في كلام إبراهيم خليل أحمد في كتابه «لماذا أسلمت» ص ٢٥.

٤ ـ البقرة: ١٣٦.

ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء)«١». والمقصود بالكتاب هنا التوراة الأصلية التي لم يلحقها التزوير.

وعن الإنجيل يقول تعالى: (وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور مصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)«٢»

وبناء على ذلك فإن المسلمين يقرون بجميع أنبياء بني إسرائيل المذكورين في القرآن الكريم وينزلونهم المكانة السامية البعيدة عن الإفراط والتفريط، كما أن تكريم القرآن الكريم لكل من موسى وعيسى عليهما السلام وتنزيههما عما نسب إليهما دليل على الإحترام والتقدير، كما أن المسلمين ملزمون بتكفير من ينكر رسالتيهما، وعليه فليس في الإسلام أي تعصب ضد أحد«٣» وليس فيه أي اتهام لنبي من الأنبياء، ولا تهجم على رسول من الرسل، وليس فيه أي حقد على فئة أو طائفة من الناس لأنه دين السماحة والتسامح، جاء لهداية البشر بالحكمة والموعظة الحسنة، والتاريخ حافل بالكتب التي تحدثت عن معاملة المسلمين لغير المسلمين في الإسلام«٤» ورب سائل يسأل. فما أساس العداء القائم الآن بين المسلمين وأهل الكتاب؟ ولا يحار المرء في الإجابة على مثل هذا التساؤل، «لأننا نجد عداء بين اليهود والنصارى. ولأن اليهود يدينون بأن موسى نبي وأن بني إسرائيل هم شعب الله المختار، ويزعمون أن عيسى

---

١ ـ المائدة: ٤٤.

٢ ـ المائدة: ٤٦ ـ ٤٧.

٣ ـ سماحة الإسلام، د. أحمد محمد الحوفي، ص ٥١ ـ ٥٢، بتصرف، وقارن ذلك بكلام مريم جميلة الصحفية الامريكية اليهودية التي أسلمت وأسباب إسلامها وذلك في كتاب «الجانب الخفي ٣/١٧ ـ ١٨ وكلام واصف الراعي في كتابة «كنت نصرانيا» ص ٤٤، وقد تحدث فيه عن قصة إسلامه

٤ ـ انظر بتوسع: «معاملة غير المسلمين في الإسلام»، مؤسسة آل البيت، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية.

ومحمدا كاذبان، وأتباعهما ضالون فلا قيمة في نظرهم للمسيحية ولا للإسلام ولا حرمة.

والمسيحيون يقرون بنبوة موسى وبالتوراة، لكنهم ينقمون على اليهود، إنهم يجرحون نسب عيسى ويجحدون رسالته، وينقمون على المسلمين أيضا لأن الإسلام في زعمهم دين افتراه عربي ادعى النبوة، وادعى أن دينه ينسخ ما قبله وفي زعمهم أن الدين الناسخ لما قبله إنما هو المسيحية. فيجب أن تنفرد بالبقاء والسيادة.

لهذا توالت هجمات المسيحيين واليهود على الإسلام وعلى النبي صلى الله عليه وسلم وما زالت تتوالى حتى اليوم«١»

على أن التسامح في الإسلام يعلو على ترهات أهل الكتاب وما نسبوه إليه من مزاعم لا تكاد تنهض بحجة. فأين مزاعمهم من قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ولاصحابه: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)«٢»

ومن قوله تعالى: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون)«٣»

ويدعو القرآن محمدا صلى الله عليه وسلم لتذكير الناس وأنه ليس عليهم بمسيطر: (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر)«٤»

ويقول (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)«٥» ويقول أيضا

---

١ ـ سماحة الإسلام، ص ٥٢.

٢ ـ النحل ١٢٥

٣ ـ العنكبوت: ٤٦.

٤ ـ الغاشية: ٢١ ـ ٢٢.

٥ ـ البقرة: ٢٥٦.

(وما أرسلناك عليهم وكيلا)«١». ثم يدعو إلى قمة الحوار مع أهل الكتاب ليزيح عن أفكارهم تلك العقائد البالية فيقول: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)«٢»

وأين تقول أهل الكتاب على الإسلام والمسلمين من قوله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)«٣»

والمسلمون مطالبون بمراعاة الحقوق والعهود ومنهيون عن نكثها: (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا)«٤». ويقول أيضا (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا)«٥»

كما جاء في قوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين«٦»

وجاء في قوله صلى الله عليه وسلم: ("ألا من قتل نفسا معاهدة، له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر ذمة الله فلا يراح رائحة الجنة وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين خريفا"«٧»

وأخرج الإمام مسلم بسنده عن هشام بن حكيم بن حزام قال، مر

---

١ ـ الإسراء: ٥٤

٢ ـ آل عمران: ٦٤.

٣ ـ التوبة: ٦

٤ ـ الإسراء: ٣٤.

٥ ـ النحل: ٩١

٦ ـ الممتحنة: ٨.

٧ ـ رواه الترمذي في كتاب الديات، باب ١١، رقم الحديث ١٤٠٣، باب ما جاء فيمن يقتل نفسا معاهدة ٤/١٣، وقال: حديث حسن صحيح.

بالشام على أناس، وقد أقيموا في الشمس، وصب على رؤوسهم الزيت، فقال: ما هذا؟ قيل: يعذبون في الخراج فقال. أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله يعذب الذين يعذبون في الدنيا" «١»

واتبع الخلفاء الراشدون المهديون سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، فها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوصي المسلمين حينما وجههم بقيادة أسامة بن زيد إلى الشام بقوله:

" أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر، فاحفظوا عني: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له... " «٢»

وتشهد كتب التاريخ مرة أخرى على مدى التسامح عند المسلمين وذلك من خلال العهدة العمرية لأهل بيت المقدس وهي جديرة باسكات مزاعم وأكاذيب الطاعنين في الإسلام، ومما جاء فيها. "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم" «٣»

---

١ ـ صحيح الإمام مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس، رقم الحديث (١١٧ ـ ٢٦١٣)، وفي بعض الروايات أناس من الانباط بالشام، ٨/ ٤١٤، وجاء في رواية أبي داود، «ناس من القبط في اداء الجزية». انظر: مختصر سنن أبي داود للمنذري، رقم الحديث ٢٩٢٣ باب التشديد في جباية الجزية، ٤/٢٥٣.

٢ ـ تاريخ الرسل والملوك، للطبري، ٣/٢١٣، وراجع تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٧٦، وانظر كتابه إلى أهل نجران في: الخراج، لإبي يوسف، ص ٧٣.

٣ ـ تاريخ الرسل والملوك، للطبري، ٤/١٥٨.

ومن وصاياه رضي الله تعالى عنه: أنه " يوصي بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم" «١»

أما عن التسامح في أمر الجزية، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يكتب في وثيقة الصلح مع أهل الحيرة ما يلي "... وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفه من الآفات أو كان غنيا فافتقر، حتى صار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام.." «٢»

وعلى هذا الهدى نرى عمر بن الخطاب يسير، فقد روي أنه رأى شيخا كبيرا عاجزا من أهل الكتاب، يسأل الناس الصدقة، فقال له "فما ألجاك إلى ما أرى، قال. الجزية والحاجة والسن. قال فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم" «٣» ثم وضع الجزية عنه وعن أمثاله.

كما كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عامله في البصرة "عدي بن أرطاة" يقول. ".... وانظر من قبلك من أهل الذمة كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت المسلمين ما يصلحه" «٤»

ويعترف بعض الكتاب الغربيين بهذا التسامح، فمن ذلك ما قاله آدم متز: "ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة، أي باب من أبواب

---

١ ـ صحيح الإمام البخاري، ورد في عدة كتب منها فضائل الصحابة، باب ٨، قصة البيعة، ٤/٢٠٦.

٢ ـ الخراج، لابي يوسف. ١٥٥ ـ ١٦٥.

٣ ـ المصدر السابق، ص ١٣٦.

٤ ـ الاموال، لابي عبيد، القاسم بن سلام، ١٢١ ـ ١٢٢.

الأعمال... فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء... وكان رئيس اليهود ببغداد هو طبيب الخليفة' . ويقول في موضع آخر: "ومن الأمور التي نعجب لها كثـــرة عـــدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية"«١»

سادسا: التدرج في التشريع الإسلامي ويسر العبادات:

امتاز التشريع الاسلامي باليسر في أحكام العبادات، حيث راعى أحوال الناس وظروفهم واختلاف أوضاعهم، وامتلأت المكتبة الاسلامية وزخرت بالمصنفات والمؤلفات الفقهية التي شرحت أحكام العبادات والمعاملات وغيرها مما يتعلق بأمور الناس وحاجاتهم.

كما ساير التشريع الاسلامي الفطرة البشرية وميولها منذ بزوغ فجر الإسلام إذ أنه جاء والعرب في إباحة واسعة، يكرهون كل ما يقيد حريتهم ويحد من شهواتهم، وقد تمكنت من نفوسهم عادات كثيرة وغرائز متنوعة لا يستطيعون التحول عنها دفعة واحدة، فاقتضت الحكمة الإلهية ألا يفاجئوا بالإحكام جملة، فتثقل بها كواهلهم وتنفر منها نفوسهم، فلذلك نزل القرآن نجوما ووردت الأحكام التكليفية شيئا فشيئا، ليكون السابق من الاحكام معدا للنفوس، ومهيأ لقبول اللاحق، وكان أغلب هذه الأحكام ينزل... بعد أسباب تقتضيه فيكون أوقع في النفس وأقرب إلى الانقياد.

من ذلك تحريم الخمر، فإنها كانت قد تمكنت من نفوس العرب تمكنا اقتضت منه الحكمة الإلهية أن يتدرج القرآن في تشريع أحكامها، فلم يصرح لهم بتحريمها بادىء ذي بدء، بل قال في الجواب عنها وعن الميسر: (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما)«٢»

ولا يفهم طلب الكف عنهما من هذه الآية إلا الخبير بسر التشريع. لأن ما

---

١ ـ الحضارة الإسلامية، آدم متز، ١/٨٦ـ و١/١٠٥.

٢ ـ البقرة: ٢١٩.

أكثر إثمه ينبغي تركه، إذ لا يوجد في الأفعال شر محض، فالعبرة في الحل والحرمة بغلبة جهة المصلحة أو المفسدة.«١» وإن كان المراد منافع المال بالتجارة فيها لا في شربها.

وبعد أن أشار إلى أنه ينبغي تركها لغلبة إثمها نهى الناس عن الصلاة في حالة سكر: (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى)«٢» ثم صرح بالنهي عنها نهيا عاما مؤكدا فقال: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون)«٣»

ولم يقتصر الأمر على التدرج في قضية الخمر والميسر والانصاب والأزلام، بل نجد الكثير من المسائل الأخرى التي لوحظ فيها التوسعة والرفق بالعباد، ومن ذلك ما يتعلق بعدد ركعات الصلاة، والامر بالكف عن القتال لضعف حال المسلمين، وعقوبة الزاني . وهناك الكثير من الامور التي استقرأها الفقهاء المسلمون ووضعوا لها الشروح والتعليقات. «٤»

سابعا: عدم وجود واسطة بين الخلق والخالق في الإسلام.:

إن أعظم رتبة يرتقي إليها الإنسان ، هي رتبة العبودية لله تعالى، بها يكون متحررا من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وجميع الفلسفات والاديان الوضعية والمحرفة لها جذور في تأصيل عبادة البشر واتخاذهم أربابا من دون الله تعالى.وهي انتكاسة خطيرة لا يعرفها إلا الذين تحرروا من ربقة الجاهية.

١ ـ تاريخ الفقه الإسلامي، محمد علي السايس، ص ٢٧.

٢ ـ النساء: ٤٣.

٣ ـ المائدة ٩٠ ـ ٩١

٤ ـ تاريخ الفقه الإسلامي، ص ٢٧ ـ ٢٨ بتصرف.

وفي الإسلام ليس بين الله تبارك وتعالى وسيط يلجأ إليه الناس، وليس أحد أحق بالوساطة من أحد، بل الناس سواسية كأسنان المشط، وكلهم عبيد الرحمن، أقربهم إليه أتقاهم، وباب رحمته تعالى مفتوح لكل تقي صالح راغب بفضل الله ولكل مذنب عاص يرجو رحمة ربه وغفرانه. فالله تعالى أقرب إلى عباده من حبل الوريد، ليس بينهم وبينه حجاب وليس على بابه سدنة ولا كهان«١»

يقول الحق تبارك وتعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)«٢» وهو تعالى. «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها «٣»

إن الإسلام يربي في نفوس أبنائه المؤمنة الطهارة في القول والعمل، ويدعوهم إلى التقرب إلى الله العزيز الغفار، في جميع أحوالهم، في المنشط والمكره، وفي السراء والضراء، فهو الذي يعطي ويمنع، وهو الذي يغفر ويرحم، ويتجاوز عما هو به أعلم، وهو الذي يقبل توبة عبده الأبق، مهما كانت ذنوبه حتى ولو بلغت مياه البحر فإنه يغفرها له إلا الشرك· (قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له)«٤» فغفران الذنوب وقبول التوبة بيد الله تعالى وحده، لا يشاركه فيها أحد، فهو الغني عن كل ما سواه، والمفتقر إليه كل ما عداه.

---

١ ـ انظر بتوسع كتاب: «المسيح إنسان أم إله» لمحمد مجدي مرجان ص ١٤١

٢ ـ البقرة: ١٨٦.

٣ ـ أخرجه الإمام مسلم في كتاب التوبة، باب (٥) قبول التوبة من الذنوب رقم الحديث (٣١ ـ ٢٧٥٩) ٩/٨٨، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/٣٩٥ و٤٠٤.

٤ ـ الزمر ٥٣ وانظر أثر ذلك في قصة إسلام أشهر اقتصادي في العالم «كيستوفر شاموبت» وذلك في كتاب الجانب الخفي ١/٤٧.

وهذه المفاهيم من شأنها أن تحرر الإنسان من الوصايا التي يفرضها رجال الدين على أهل الكتاب. كما أن من شأنها تحريره من فكرة الخطيئة الأولى التي انتقلت إلى النصارى عبر الديانات الوضعية والوثنية، وقد نادت بأن الإنسان منذ أن خلق وهو باق في ظل الخطيئة التي أقدم عليها آدم ـ أبو البشر ـ

أما العقيدة الإسلامية فإنها تضع الموازين بالقسط وتدعو إلى عدم تحمل الإنسان خطيئة غيره، قال تعالى: (ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى)«١»

ولم يترك الحق تبارك وتعالى عباده حيارى، تنهب عقولهم عقيدةفاسده، وتنهش ضمائرهم أوهام بالية. بل أراح العباد من ظلمة العناد والفساد إذ يقول (وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى)«٢»

لقد تاب آدم عليه السلام وتقبل الله تعالى توبته وهداه إلى صراطه المستقيم، وأفاء عليه وعلى ذريته من بعد بالخير العميم، فلا خطيئة تعم البشر، بل مغفرة من لدن غفور رحيم وتكريم من لدن عزيز كريم (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)«٣»

فالله أعلم بعباده وهو أعلم بمن اتقى وبمن عصى، وهو الذي يجزي المحسنين بما كسبت أيديهم ويجزي المسيئين على ما اقترفوا من الكبائر والذنوب يقول تعالى:

(ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا

---

١ ـ النجم: ٣٨ ـ ٤١، وانظر أثر ذلك في كلام واصف الراعي في كتابه «كنت نصرانيا» ص ٥٤.

٢ ـ طه: ١٢١ ـ ١٢٢.

٣ ـ الإسراء: ٧٠.

اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الارض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى)«١»

وعليه فإن الأنسان في ظل الأسلام يحاسب عن نفسه: (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسول)«٢».

ويقول أيضا: (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد)«٣».

وقد وجه الحق تبارك وتعالى خطابا عاما للناس يدعوهم إلى التبصر بمآل الإنسان وحذرهم من التعلق بالدنيا والركون إلى غرور الشيطان إذ يقول: (يا أيها الناس اتقو ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور)«٤»

هذا إلى جانب العديد من الأسباب الاخرى، كالإعجاز في القرآن الكريم«٥» والإعجاز اللغوي فيه «٦» واهميه الإسلام في أنه دعوة إلى تحرر الشعوب«٧»

---

١ ـ النجم: ٣١ ـ ٣٢.

٢ ـ الإسراء: ١٣ ـ ١٥.

٣ ـ فصلت: ٤٦.

٤ ـ لقمان: ٣٣.

٥ ـ راجع قصة إسلام الطبيب «موريس بوكاي» واسباب إسلامه وذلك في كتاب الجانب الخفي ١/٢٤١

٦ ـ انظر أثر ذلك في قصة إسلام د. أحمد سوسة، المصدر السابق ٢/٢٠٢.

٧ ـ قارن هذا الكلام بكلام «روجيه جارودي» وقصة إسلامه، المصدر السابق ١/٨٧ وللمزيد يراجع كتاب «حوارت مع مسلمين اوروبيين» د. عبد الله أحمد قادري الأهدل، وكذا كتاب «الحوار مع أهل الكتاب» أسسه ومناهجه. خالد عبد الله القاسم.

ثامنا: دعـوة الاسـلام إلى تحرر الشعـوب المقهـورة سيـاسيـا واقتصاديا..

ينطلق هذا المفهـوم من مبـدأ حقـوق الإنسـان في الشريعة الإسـلاميـة سيـاسيـاً واجتماعيـا والتي يستطيع الإنسـان أن يعيش في ظلهـا بعيـدا عن الاستعبـاد والرق، ويتخـذ هذا المنحى شكلا عمليـا وطابعا مـرنا حينما نجـد " الدولة الإسلامية ملتزمة بكفالة تلك الحقوق وضمانها..

وعليـه فـإنها ليست مسـؤوليـة سلبيـة تكتفي بالنـص على الحقـوق وتقريرها والنهـي عن المساس بها نظريا، ولكنها مسـؤولية إيجابيـة تمتد إلى تهيئة الوسـائل اللازمـة لكفـالة ممارسـة هذه الحقـوق عمليـا والعقـاب على الاعتداء عليها»[١]

وبالرجوع إلى الأسس التي بنيت عليها هذه المبـادىء، نجد أنها مستمدة من إقرار الإسلام لحق الإنسـان في الحياة الكريمة، وهي ما حـرصت الشريعة الغراء على صيـانتها وجعلها من أوائل مقاصـدهـا، وعملت على إقرارها لجميع الناس سواء في دولة الإسلام أو خارجهـا، فقتل النفس وإزهاق الروح جريمة كبرى في نظر التشريع الإسلامي يعـاقب عليها سواء كان المعتـدي عليه مسلما أو غير مسلم.... ولا يستثنى من ذلـك إلا المحـارب... ومن ذلك أيضـا حـرية الإنسـان الشخصيـة في الإقـامـة والسفـر والتنقل واختيـار السكن والعمل والتصرفات الأخلاقية كل ذلك حـر ولا تحد فيه الحرية إلا في أحوال استثنائية معروفـة لمصلحة عـامة، كمنع السفر دخـولا وخروجـاً حين انتشار الوباء... وكـاختيـار عمل ممنوع في الإسـلام كصنع الخمـر والاتجار بها بالنسبـة للمسلمين، وكترويج المخـدرات ومـا هـو ضـار بالمجتمـع ككل... كما أعطى الإسلام الانسـان أي أنسان مسلماً أو غير مسلم ـ من مواطني الدولة القـائمة على الإسـلام الحق في ممارسـة الحيـاة الاقتصـادية وذلك بأن يسلك طريقـا للكسب المشروع في حـدود أحكام الشريعـة، ويمارس سـائـر المعـامـلات الاقتصـادية من بيع وإجارة وشركـة وتجارة وزراعة وغيرها، على أن يتقيـد

١ ـ من أصول الفكر السياسي في الإسلام. د. محمد فتحي عثمان، ص ٢٠٠.

بأحكام الإسلام المتعلقة بهذه المعاملات والتي هدفها منع الظلم والاستغلال في شتى صورها كالربا والاحتكار والغش وسائر العقود الباطلة كالقمار ونحوه«١»

كما أسهمت الشريعة الغراء في العمل على تحرير الشعوب المقهورة من ربقة العبودية واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان وذلك عبر إزالة الفوارق الطبقية في المجتمع اعتمادا على مبدأ تكريم الإنسان المنصوص عليه في الآية الكريمة (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهن على كثير ممن خلقنا تفضيلا)«٢»

وكانت الطرق التي اتخذها الإسلام لتحرير العبيد والأرقاء وحتى الشعوب الواقعة تحت نير الظلم، متعددة ومتنوعة «٣»... وكان من حكمة الإسلام أنه لم يبح الاسترقاق إلا في الحرب الشرعية، لأن فيه المعاملة بالمثل، وبعد ذلك خير المسلمين بين إطلاق الإرقاء بعوض مالي أو بغير عوض، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سبي هوازن، وتنافس المسلمون في عتق الأرقاء، وفي شرائهم من مالكيهم لاعتاقهم، ليقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم الدي كان يوصي بهم، ويضرب المثل الحسن في ذلك، كي يقضي على عوامل الكراهية، والحفيظة، ويزرع المحبة والرفق وقد حض الإسلام على العتق تقربا إلى الله تعالى. قال سبحانه: (فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة)«٤»

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أعتق رقبة، أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار، حتى فرجه بفرجه)«٥»

---

١ ـ انظر بتوسع: نظام الإسلام، الحكم والدولة، محمد المبارك، ص ١١٥ ـ ١١٦، دار الفكر، بيروت وكذا «من أصول الفكر الإسلامي ص ٢١٧ ـ ٢١٩.

٢ ـ الإسراء: ٧٠.

٣ ـ من أصول الفكر الإسلامي ٢٠٢ وما بعدها.

٤ ـ البلد: ١١ ـ ١٣.

٥ ـ صحيح مسلم بشرح النووي كتاب العتق، باب فضل العتق رقم الحديث ٢٢، ٥/ ١٤٠.

وبهذا التشريع الذي لا عوض فيه، امتاز المسلمون عن الأمم الأخرى، لأن العبرانيين كانوا يطلقون أرقاءهم، بعد أن يتموا في الرق ست سنوات، وكان الأثينيون يطلقون أسراهم اذا ما أدوا ثمن الإطلاق«١»

ومن المفاتيح التي أطلقها الإسلام لتحرير الرق، هو فتح خزائن الدولة إذ جعل فيها سهما مقررا في كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين

ومنها قانون الكفارات، سواء كان ذلك في مسألة الظهار أو كفارة اليمين. أو غير ذلك مما هو مبسوط في كتب الفقة حول هذا الموضوع«٢» ككفارة إفطار يوم رمضان عمدا. وكفارة اليمين المعقودة والمكاتبة، وأم الولد، والتدبير«٣»

إن فتح باب التحرر أمام الارقاء والعبيد جعل الكثير من الناس يدخلون في هذا الدين الحنيف خاصة من قبل الشعوب التي ذاقت مرارة القهر والاستعباد، سواء في ذلك ما كان من أمر الاقباط في مصر إبان الفتوح الإسلامية الأولى، وما كان من أمر الشعوب في شرق أفريقيا وغربها حيث كان الرق متفشيا بشكل بشع، إلى غيرها من الامم التي تاقت إلى التحرر من ظلم أباطرة الرومان وقياصرتها وبطش الاكاسرة وعنتهم.

---

١ ـ الإسلام والعلاقات الدولية د. محمد الصادق عفيفي ص ١٤٦ ـ ١٤٧ رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٤م.

٢ ـ من أصول الفكر السياسي ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

٣ ـ الإسلام والعلاقات الدولية، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

الخاتمة

إن الجوانب المضيئة والمشرقة من تكريم الإسلام لمؤمني أهل الكتاب، وانزالهم المنزلة الرفيعة اللائقة بهم تلامس شغاف قلوب الذين يحبون أن يروا أنفسهم في مرآة الإسلام ويتشوقون لمعرفة مكانتهم عند الله تبارك وتعالى.

وبعد ذلك كله لا بد لنا من خاتمة نقف فيها على بعض ما يجب في حق هؤلاء من جانب إخوانهم المسلمين، وبالتالي الوقوف على بعض ما يجب على هؤلاء من حق تجاه الإسلام.

ذلك لإن الأوضاع التي يعيش في ظلها إخواننا الجدد مختلفة بحسب ظروفهم والبيئة التي تحيط بهم، فمنهم من يلاقي العنت والاضطهاد والقتل بعد نطقه بالشهادتين«١»

وعليه فإن من واجب المسلمين تجاه إخوانهم الجدد النظر في أحوالهم ومد يد العون والتأييد المادي والمعنوي لهم«٢»، وهذ العمل جدير بأن تتكفل به الدول الأسلامية مجتمعة، وكذا الهيئات التي تعنى بالأعمال الخيرية وكذا الثقافية، للنظر في أوضاع الداخلين في دين الله تعالى ودراسة أحوالهم دراسة

---

١ ـ انظر حالات الاضطهاد التي يعيشها الداخلون في الإسلام وذلك في:

ـ كتاب الجانب الخفي ١/ ٥٢.

ـ وكتاب «كنت نصرانيا» لواصف الراعي، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

ـ وكتاب «لماذا أسلمت» بقلم إبراهيم خليل أحمد، وقصة معاناته.

ـ وكتاب «لماذا وكيف أسلمت» أحمد سامي عبد الله وما كان من مصيره ـ رحمه الله تعالى.

٢ ـ يبين واصف الراعي مدى المعاناة والشدة التي يعيشها الداخلون في الإسلام والصادرة من قبل اقوامهم وما يتعرضون له من تشكيك واتهامات، ويقول عن ذلك: «ويحز في نفسي أن اقول إن تقصير المسلمين في رعاية إخوانهم الجدد ودعمهم معنويا يعطي فرصة أكبر لأعداء الإسلام للخوض في هذا التشكيك «انظر كتاب كنت نصرانيا» ص ١٥١. وهذه همسة عتاب يوجهها واصف الراعي إلى إخوانه المسلمين.

ميدانية جدية تمهيدا لتقديم كل ما يلزمهم، وعلى الرغم من وجود بعض الدراسات إلا أنها لم تغط جميع الحالات المطلوبة والقائمة فعليا.

وفي هذه المناسبة أوصي بضرورة إيجاد وسائل حديثة مبتكرة للتقرب من المدعوين إلى الإسلام أو الذين يتحرقون للهداية والدخول في دين الحق تبارك وتعالى، على أن يكون الخطاب الإسلامي واضحا مبسطا لحقائق ومبادىء الإسلام وأباطيل خصومه، ومستخدما أساليب العلم الحديث في عملية التواصل. كما ينبغي على الدعاة تجنب الارتجال في الدعوة أو التعصب لمذهب معين، وعدم إثارة الخلافات المذهبية المثيرة للحقد والكراهية في المدعوين الجدد. وهذا ما ينفرهم ويجعلهم مشتتين.

وعلى الداعي أيضا أن يتحلى بجملة من الصفات التي تؤهله للنجاح في دعوته ومنها:

١ ـ الإيمان بالدعوة إلى الله تعالى خالصا قولا وعملا.
٢ ـ القدوة الحسنة.
٣ ـ الاستقامة.
٤ ـ التضحية والإيثار وإخلاص الحب في الله.
٥ ـ الصبر على الأذى.
٦ ـ الحلم وعدم اليأس.
٧ ـ العفو والتسامح.
٨ ـ العفة والزهد عما في أيدي الناس.
٩ ـ التواضع.
١٠ ـ أداء العبادة ومتابعتها(١)

أما حديثو العهد بالإسلام فعليهم الترفق في الولوج في أمر هذا الدين،

١ ـ انظر بتوسع تبصير المسلمين لغيرهم بالإسلام، وأحكامه وضوابطه وآدابه. د. وهبة الزحيلي، ضمن كتاب «معاملة غير المسلمين في الإسلام» ٢/ ٥٢٠ وما بعدها.

وتجنب الغلو والتنطع، قولا وعملا. وما يخص المعاملات والأحكام الشرعية، فالتفقه في الدين على أيدي العلماء الأثبات من أولويات ما يجب الإلمام به.

وعليهم أن يعلموا أن الوسطية مطلوبة فلا إفراط ولا تفريط، بل يجب رد الأمر إلى الله تعالى وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى أولي الأمر والعلماء: (.. فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)«١»

ومما ينبغي كذلك الحرص على عدم الإسراع في الإجابة على أي سؤال يتعلق بأمر الدين إن لم يكونوا على دراية وعلم أكيدين.

أما أولئك الذين يكتمون إيمانهم ولم يشهروا إسلامهم بعد خشية الاخطار المحدقة بهم، فما عليهم سوى الصبر من جانبهم حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا. فعسى الله أن يهيىء لهم من أمرهم رشدا، ويفتح عليهم أبواب فضله

كما ينبغي عليهم اجتناب بؤر الفساد والإلحاد، لانها بريد الوقوع في المهالك، وبدلا عنها عليهم اقتناص الفرص ومتابعة البحث عن المحاضن الإسلامية الكفيلة بإزالة ما يعترضهم من فتن ومحن، فهي ترعاهم وتسهل لهم طريق التعمق في دراسة الإسلام وشرح مفاهيمه عقيدة وشريعة وأسلوب حياة عبر الكتب العلمية النافعة ووسائل الإعلام الهادفة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين.

---

١ ـ النحل: ٤٣.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت ط: ٢ ١٤٠٢ هـ.

٣ ـ أحكام القرآن، أبو بكر، أحمد بن علي الرازي، الجصاص دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٤ ـ أسباب النزول، أبو الحسن علي الواحدي، ت: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ط ١٤٠٨ هـ.

٥ ـ الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، ت د محمد عمارة، دار الشروق، ط١، ١٤٠٩ هـ.

٦ ـ البداية والنهاية، الحافظ إسماعيل بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت ط٢، ١٩٧٧م.

٧ ـ تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م

٨ ـ تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٩ ـ تاريخ الفقه الإسلامي، محمد علي السايس، مكتبة محمد علي صبيح، مصر، ١٣٧٦ هـ

١٠ ـ تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن عساكر، ت: نشاط غزاوي، دار الفكر، دمشق ط، بالاوفست.

١١ ـ تبيين الحقائق، شرح كنز الدقائق، فخر الدين عثمان الزيلعي، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، بالأوفست.

١٢ ـ التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم محمد بن جزي الكلبي الغرناطي، ت. محمد اليونسي دار الكتب الحديثة، القاهرة.

١٣ ـ تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر ط: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
١٤ ـ تفسير الفخر الرازي، التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي. ط: دار الفكر بيروت. ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
١٥ ـ تفسير القرآن العظيم، أبو الفدا إسماعيل بن كثير، المكتبة الشعبية.
١٦ ـ تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد القرطبي. ط: دار الفكر بيروت، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م وط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٧ ـ التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب، إبراهيم بن حسن. ط: الدار العربية للكتاب، ١٩٩٤م.
١٨ ـ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١١ هـ، ط١.
١٩ ـ الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبد الصمد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط: ١٤١٦هـ.
٢٠ ـ الحضارة الإسلامية، آدم متز، ت: محمد أبو رية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.
٢١ ـ حوارات مع مسلمين أوروبيين، د. عبد الله الأهدل، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ.
٢٢ ـ الحوار مع أهل الكتاب، خالد القاسم، الرياض، ط: ١٤١٤هـ.
٢٣ ـ الخراج، أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، ط: ١٣٠٢هـ.
٢٤ ـ الدر المنثور، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
٢٥ ـ دلائل النبوة، أبو بكر البيهقي، ط١: ١٤٠٥هـ. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٥م.
٢٦ ـ رسالة إلى الأخت سوزان، محمد عيسى داود، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، ١٩٩١م.

٢٧ ـ الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية، إسرائيل بن شموئيل الأورشليمي، ت: عبد الوهاب طويلة، دار القلم، دمشق، ١٤١٠هـ.
٢٨ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، السيد محمود شكري الآلوسي: ط٤ دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
٢٩ ـ سماحة الإسلام، د. أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٧م.
٣٠ ـ سنن الترمذي، أبو عيسى محمد الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣١ ـ سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط٤، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
٣٢ ـ صحيح الإمام البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا، ١٩٧٩م.
٣٣ ـ صحيح الإمام مسلم بشرح النووي، ط١، ت: عصام الصبابطي، وآخرون، ١٤١٥هـ دار أبي حيان، مصر.
٣٤ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، محمد بن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر ط: ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م.
٣٥ ـ العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر التنير، ط١، مكتبة ابن تيمية، الكويت، ١٤٠٨هـ.
٣٦ ـ فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ط٢، ١٣٨٢هـ.
٣٧ ـ كنت نصرانيا، واصف الراعي، مطبعة الفرزدق، الرياض، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٣٨ ـ «لماذا أسلمت»، إبراهيم خليل أحمد، ت: د. عبد الله آلصباغ، دار القلم، دبي، ط٢، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٣٩ ـ «لماذا وكيف أسلمت»، أحمد سامي عبد الله، ط: رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٤٠ ـ المجموع شرح المهذب، الإمام، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، ط: دار الفكر، بيروت.

الحديثة، ط ١٩٨٤م.
٤٢ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، ط ٤، ١٤٠٣هـ وط: ١، ت: د. سمير المجذوب، وآخرون، ١٤١٣هـ.
٤٣ ـ «المسيح إنسان أم إله»، محمد مجدي مرجان، ت: عبد الرحمن دمشقية، مكتبة الحرمين ١٤٠٦هـ.
٤٤ ـ المسيحية نشأتها وتطورها . شارل جنيبير، ت عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية، صيدا بيروت.
٤٥ ـ معاملة غير المسلمين في الإسلام، مؤسسة آل البيت، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ـ عمان الأردن ١٩٨٩م.
٤٦ ـ المغني، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض المملكة العربية السعودية.
٤٧ ـ منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب، عبد العزيز بن حمد بن ناصر آل معمر منشورات دار ثقيف، الطائف المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م

لباس المرأة وزينتها

الشيخ وهبي سليمان غاوجي *

١ـ تمهيـــد

خلق الله تعـــالى البشر من نفس واحــدة، وجعل مـن تلك النفس زوجها وبث منهما ملايين البشر ويبث إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فـالناس كلهم من أب واحد وأم واحـدة ﴿كلكم لآدم وآدم من تراب﴾. ولقـد قـدر الله تعـالى لصلاح الحيـاة وجمالها واعطائهـا ثمارها نظماً وترتيبـات معينة، فخلق من كل زوجين اثنين، وجعل في كل منهما صفات عديدة مناسبـة لا تكمل في أحدهما الا مع صفات الآخر من أجـل أن تستقيم الحياة، فجعل في الرجل قـوة وخشونة، وقـــوة إرادة وعـــزيمـــة، وصبراً، وحب الخـروج، وجعل في المرأة اللطافة وضعفاً، وحياء، وحبـاً للزينة، والأطفال، وإيثاراً للبقاء في البيت والعناية به وغيرها وبتفـاوت تلك الصفـات على اختـلافهـا عـادة تستقيم الحياة الصـالحة في الأرض، وباتحاد تلك الصفـات بأن يكون الرجـل رجـلا وامـرأة، أو تكون المرأة امـرأة ورجـلاً لا تستقيم الحياة الصـالحة في الأرض. لقد جعل الله تعـالى في كل من الرجل والمرأة صفات ومـزايا ليست في الآخر، فعلى كل أن يـعيش لما خلق له وفطر عليـه إن أراد صلاح الحيـاة وفق مـا قدر الله تعـالى الذي خلق وسوى والذي هو أرحم بخلقه من الوالدة بولدها، وحين

* مدرس الفقه المساعد في قسم الشريعة في كلية الدراسات الإسلامية والعربية ـ دبي.

تمنت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن تكون مثل الرجل تغزو كما يغزو الرجال وأن يكون للنسـاء مثل ميراث الرجال، وحين قال الرجـال إنا لنرجو أن نفضـل على نسائنا بحسناتنا في الآخـرة كما فضلنا عليهم في الميراث انزل الله تعـالى قوله ﴿ولا تتمنوا مـا فضل الله به بعضكم على بعض للرجـال نصيب مما اكتسبـوا وللنسـاء نصيب مما اكتسبن واسألوا اللـه من فضله ان الله كـان بكل شيء عليما﴾ (١).

من أجل اختـلاف طبيعة المرأة ووظيفتهـا في صفات وأمـور عن الرجل، ومن أجل ما جعـل الله تعالى في الرجل والانثى من الميل الفطري أحـدهما نحو الآخر، فقـد حصن الإسلام كـلا منهما بحصانة مـراقبة الله تعـالى والتقوى، وجعل لكل منهما ستراً وثياباً تتفق مع طبيعتـه ووظيفته، ومن أجل قطع دابر الفساد ـ بإذن الله تعـالى ـ شرع سبحانه ـ والله أعلم ـ حجـاب المرأة ولزومها بيتهـا إلا لحاجـة، وعـدم مخالطة الـرجـال والخلوة بهم، لما في ترك الحجـاب ومخالطة الرجال من عواقب لا يرضاها الله تعالى في أغلب الأحيان.

٢ ـ حجاب المرأة :

إذن يعـود إلى طبيعتها ووظيفتهـا في الحياة ـ هي مخلوقـة لتكون لرجل واحـد ـ وأمـا لأولاد ينسبـون إلى أب واحـد ـ وفي ترك الحجـاب والاختـلاط مفاسد قـد يكون منها ضياع الأنساب وخـراب الأسرة، والعياذ بالله. في حفلة رسميـة في بريطانيا كـان يحضرها سفير الدولة العثمانية، قـال أحد الانكليـز لصـاحبه بحضـور السفير العثماني: هؤلاء العثمانيـون لا يأذنون بمخـالطة نسائهم الأجـانب من الرجال، فقـال السفير العثماني: نعم، لانا نريد أن لا تلد نساؤنا إلا أولاداً منا، **فبهت الذي كفر.**

---

١ ـ تفسير القرطبي ٥ ـ ١٦٢ ـ ومختصر تفسير ابن كثير ١ ـ ٣٨٢.

أ ـ نصوص قرآنية في الحجاب وتفسيرها: قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحى من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ان ذلكم كان عند الله عظيماً﴾.

روى أحمد والبخاري وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال قال عمر رضي الله عنه قلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله تعالى آية الحجاب(١).

قال القرطبي رحمه الله تعالى: في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض أو مسألة يستفتين فيها ـ ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى ـ وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة(٢). وقال الجصاص رحمه الله تعالى في هذه الآية: وهذا الحكم وان نزل خاصا في النبي ﷺ وأزواجه فالمعنى عام فيه وفي غيره إذ كنا مأمورين باتباعه والاقتداء به الا ما خصه الله به دون أمته(٣).

وقال شيخ المفسرين في العصر الحاضر محمد أمين الشنقيطي رحمه الله تعالى: قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك ان من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولا ـ وتكون في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول ـ ومن أمثلته قول كثير من الناس ان آية الحجاب. أعنى قوله تعالى ﴿وإذا سالتموهن متعا فاسألوهن من وراء حجاب﴾ خاصة بأزواج النبي ﷺ، فان تعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو ايجاب الحجاب بكونه أطهر

---

١ ـ البخاري ٨ ـ ١٦٨، ٥٦٧ من فتح الباري، وأحمد ١ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٣٦.

٢ ـ الجامع لاحكام القرآن ١٤ ـ ٢٢٧.

٣ ـ احكام القرآن ٣ ـ ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

لقلوب الرجال والنساء من الريبة في قوله تعالى ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين إن غير أزواج النبي ﷺ لا حاجة إلى أطهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة منهن، وقد تقرر في الأصول أن العلة قد تعمم مدلولها... الخ(١) ومما يدل على أن آية الحجاب المذكورة هنا تعم جميع نساء المؤمنين قول شيخ المفسرين الامام الطبري رحمه الله تعالى ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب﴾ يقول وإذا سألتم أزواج النبي ﷺ ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج متاعاً ﴿فاسألوهن من وراء حجاب﴾ يقول من وراء ستر بينكم وبينهن، ولا تدخلوا عليهن بيوتهن ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ يقول تعالى ذكره: سؤالكم اياهن المتاع إذا سألتموهن ذلك من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من عوارض العين فيها التي تصدر في صدور الرجال من أمر النساء وفي صدور النساء من أمر الرجال، وأحرى من أن لا يكون للشيطان عليكم وعليهن سبيل(٢).

ب ـ ما هو الحجاب؟: الحجاب لغة هو الستر جاء في لسان العرب: الحجاب: الستر، حجب الشيء... يحجبه حجبا وحجابا وحجبه ستره.. وامرأة محجوبة: قد سترت بستر ـ وجاء في المصباح المنير: حجبه حجبا من باب قتل منعه، ومنه قيل للستر حجاب لأنه يمنع المشاهدة والأصل في الحجاب: جسم حائل بين جسدين. أهـ.

وشرعاً: لباس شرعي سابغ تستتر به المرأة المسلمة ليمنع الرجال الأجانب من رؤية شيء من بدنها(٣).

ويأتي عرض أقوال فقهاء المذاهب في حدود الحجاب وطبيعته.

١ـ أضواء البيان ٦ ـ ٥٨٤.

٢ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٢ ـ ٣٩.

٣ ـ انظر حجاب المسلمة ـ الدكتور محمد فؤاد البرازي ص ٢٧ ـ ٢٨.

المرأة زينة كلهـا، وفي فطـرة الرجـال الميل إليهـا وطلبهـا، وفي فطرتها الخضوع له في ذلك، وفي ذلك مفـاسد إذا لم تقيد بحـدود الشرع ـ وقد رأينا في الشرائع السابقـة ـ بل الأديان الوثنية نصـوصا عـديدة في حجاب المرأة، فكان المصلحة الشرعيـة في تقرير الحجاب. قال الامـام الشاطبي: ان وضـع الشرائع انما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً.

قـال الله تعـالى ﴿وقل للمـؤمنات يغضضن من أبصـارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهـر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن...﴾ الآية سورة النور ٣١.

٣ ـ أقوال العلماء في كشف الوجه أو ستره :

١ ـ ذهب المتقدمـون من الحنفية والمالكيـة وبعض الشافعيـة (في القول المرجوح عندهم) إلى أن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها، وحد الوجه من منبت شعر الرأس إلى أسفل الذقن طـولا، وما بين شحمتي الأذنين عرضـا. وقد نقل عن بعض الصحابة هذا القول وهم ابن عباس وابن عمر، وعن بعض التابعين مثل سعيد بن جبير وعطاء.

أ ـ قـال الله تعـالى ﴿ولا يبـدين زينتهن إلا ما ظهـر منهـا﴾ قـال شيخ المفسرين بعـد استقصائه لما قيل في الآيـة... وأولى الأقوال بالصواب قـول من قـال، عُني بذلك الوجـه والكفـان ـ ويـدخل في ذلك ـ إذا كـان كـذلك ـ الكحل والخاتم والسوار والخضاب(١).

ب ـ وقـال الإمام الجصـاص الحنفي ﴿ولا يبـدين زينتهن إلا ما ظهـر منهـا﴾ روى عن ابن عباس ومجاهد وعطـاء في معنى هذه الآية أن ما كـان في الوجه والكف من خضاب أو كحل فهو من ظاهر الزينة ـ وعن ابن عمر مثله ـ

---

١ ـ جامع البيان عن تأويل القرآن ٢٣٢ ـ ٣٩. وانظر القرطبي ١٢ ـ ٢٢٨.

وروى عن ابن عباس أيضا أن ما ظهر من الزينة الكف والوجه والخاتم ـ وقالت عائشة رضي الله عنها الزينة الظاهرة القُلب ـ السوار ـ والفتخة ـ خاتم كبير يلبس في اليد ـ وقال أبو عبيدة الخاتم، وقال الحسن: وجهها وما ظهر من ثيابها، وقال سعيد بن المسيب، وجهها ما ظهر منها وروى الأحوص عن عبدالله ـ يعني ابن مسعود ـ الزينة زينتان ـ زينة باطنة لا يراها إلا الزوج وهي الاكليل والسوار والخاتم، وأما الظاهرة فالثياب. وقال إبراهيم: الزينة الظاهرة: الثياب(١) ثم قال الجصاص وقال أصحابنا ـ أي الحنفية ـ المراد بالزينة الظاهرة التي يجوز ابداؤها الوجه والكفان ـ لأن الكحل زينة الوجه ـ والخضاب والخاتم زينة الكف فإذا أباح النظر إلى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك لا محالة اباحة النظر إلى الوجه والكفين.... إلخ(٢).

ج ـ وقال الامام أبو بكر بن العربي المالكي في تفسيره عند قوله تعالى ﴿إلا ما ظهر منها﴾ الزينة على قسمين خلقية ومكتسبة فالخلقية وجهها أصل الزينة وجمال الخلقة ـ وأما الزينة المكتسبة فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خلقتها بالتصنع كالثياب والحلي والكحل والخضاب، ومنه قوله تعالى: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ يعني الثياب، وقوله تعالى ﴿إلا ما ظهر منها﴾ اختلفوا في الزينة الظاهرة على ثلاثة أقوال الأول انها الثياب يعني انه يظهر من المرأة ثيابها خاصة قاله ابن مسعود رضي الله. الثاني الكحل والخاتم ـ قاله ابن عباس. الثالث الوجه والكفان وهما بمعنى القول الثاني لأن الكحل والخاتم في الوجه والكفين الا انه يخرج بمعنى آخر وهو أن الذي يرى الوجه والكفين هي الزينة الظاهرة يقول ذلك ما لم يكن فيها كحل أو خاتم، فإن تعلق بها الكحل والخاتم وجب سترها ـ وكانت من الزينة الباطنة وقال ابن القاسم عن مالك: الخضاب ليس من الزينة الظاهرة. ا هـ (٣).

---

١ ـ الطبري ١٨ ـ ٩٤.

٢ ـ أحكام القرآن للجصاص ٣ ـ ٣١٥.

٣ ـ المصدر السابق ٣ ـ ٣١٥ ـ ١٦ وانظر القرطبي ١٢ ـ ٢٢٨.

د ـ وقال ابن كثير الشافعي مذهبا ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ أي لا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن اخفاؤه ـ قال ابن مسعود رضي الله عنه كالرداء والثياب، وقال بقول ابن مسعود الحسن وابن سيرين والنخعي وغيرهم ـ وقال الأعمش عن ابن جبير عن ابن عباس في معنى ﴿إلا ما ظهر منها﴾ قال يعني وجهها وكفيها والخاتم ثم قال ابن كثير: ويحتمل ان ابن عباس ومن تابعه أراد تفسير ﴿إلا ما ظهر منها﴾ بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: (يا اسماء ان المرأة إذا بلغت المحيض لا يصح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه(١).

أ ـ أقوال جمهور الفقهاء في اباحة كشف المرأة وجهها ويديها:

جاء في القدوري من الفقه الحنفي ـ ولا يجوز أن ينظر الرجل من الأجنبية إلا إلى وجهها وكفيها وان كان لا يأمن الشهوة لا ينظر الى وجهها إلا لحاجة(٢) وجاء في الهداية: ولا يجوز أن ينظر الرجل إلى الأجنبية إلا إلى وجهها وكفيها لقوله تعالى ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾(٣).

وجاء في المجموع شرح المهذب للنووي قال الشافعي رحمه الله تعالى ان الحرة عورة ما عدا الوجه والكفين(٤).

---

١ ـ تفسير ابن كثير ٣ ـ ٢٨٣ ويأتي التعليق على حديث أسماء.

٢ ـ أبو الحسين أحمد بن محمد الفقيه الحنفي المعروف بالقدوري شرح اللباب ٣ ـ ٢١٧

٣ ـ مؤلفه الإمام علي بن أبي بكر المرغيناني ت ٥٩٣. هامش العيني على الهداية ٤ ـ ٢٢٣.

٤ ـ ٤ ـ ١٥٨ . وانظر مختصر المزني على هامش الام ٨ ـ ١٦٣.

وجـاء في الشرح الصغير للدردير المالكي وعـورة الحرة مع رجل أجنبي غير الوجه والكفين(١).

ب ـ متأخروا الفقهاء يرون ستر المرأة وجهها لخوف الفتنة.

جـاء في نـور الايضـاح في المذهب الحنفي وجميع بـدن الحرة عـورة إلا وجهـها وكـفيها ـ قال الطحـطاوي في حـاشيته على مـراقي الفلاح بشرح نور الايضـاح ومنـع الشـابة من كشفـه ـ أي الوجـه ـ لخوف الفتنة لا لأنه عورة(٢).

وجـاء في مجمع الأنهر: وفي المنتقى: تمنع الشابة عن كشف وجهها لئلا يؤدي إلى الفتنة، وفي زماننا واجب بل فرض لغلبة الفساد ـ وعن عائشة رضي الله عنها: جميع بدن الحرة عورة إلا عينيها فحسب لاندفاع الضرورة(٣).

وجاء في الدر المختـار: وتمنع الشابة من كشف الوجـه بين رجال لا لأنه عـورة بل لخوف الفتنة ـ قال ابن عـابدين والمعنى تمنع من الكشف لخوف أن يرى الرجـال وجههـا فتقع الفتنة، لأنـه مع الكشف قـد يقع النظر إليهـا بشهوة(٤) وقال الشيخ الحطاب من المالكية واعلم انه إذا خشي من المرأة الفتنة يجب عليهـا ستر الوجه والكفين. قـال القـاضي عبدالوهاب، ونقله عنه الشيخ أحمد زروق في شرح الرسالـة ـ وهو ظاهر التوضيح. هذا مـا يجب عليها.(٥) وجاء في الشرح الصغير: عورة الحرة مع أجنبي منها اي ليس بمحرم لها جميع البـدن غير الوجه والكفين وامـا هما فليسا بعـورة وان وجب سترهما لخوف فتنة(٦).

وجاء في /المنهج/ للنووي الشافعي عـورة الحرة غير وجه وكفين.. قال

---

١ ـ الشرح الصغير ١ ـ ٨٩ ومواهب الجليل ١ ـ ٤٩٩.

٢ ـ ١ ـ ١٦٦. ٣ ـ ١ ـ ٨٨. ٤ ـ الدر المختار ١ ـ ٢٧٢.

٥ ـ مواهب الجليل ١ ـ ٤٩٩. ٦ ـ الشرح الصغير ١ ـ ٨٩.

الشيخ سليمان الجمل في حاشيته على الكتاب السابق (غير وجه وكفين) وهذه عورتها في الصلاة أما عورتها عند النساء المسلمات مطلقا وعند الرجال المحارم فما بين السرة والركبة وأما عند الرجال الأجانب فجميع البدن، وأما عند النساء الكافرات فقيل جميع بدنها وقيل: ما عدا ما يبدو عند المهنة(١) وقال الشيخ زكريا الانصاري: وعورة الحرة ما سوى الوجه والكفين/ فكتب الشيخ الشرقاوي في حاشيته على هذه العبارة: وعورة الحرة.. أي في الصلاة ـ أما عورتها خارجها بالنسبة لنظر الأجنبي إليها فجميع بدنها حتى الوجه والكفين ولو عند أمن الفتنة(٢).

ج ـ القول الثاني من أقوال العلماء منع كشف المرأة وجهها، وحرمة ذلك وهو قول الحنابلة، وبعض الشافعية.

قال الشيخ يوسف بن عبدالهادي المقدسي الحنبلي: ولا يجوز للرجل النظر إلى أجنبية الا العجوز الكبيرة التي لا يشتهى منها ـ والصغيرة التي ليست محلا للشهوة ـ ويجب عليه صرف نظره عنها، ويجب عليها ستر وجهها إذا برزت(٣).

وقال الشيخ منصور بن يونس بن ادريس البهوتي. والحرة البالغة كلها عورة في الصلاة حتى ظفرها وشعرها لقول النبي ﷺ (المرأة عورة) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح...(٤).

وقوله ﷺ (لا تنتقب المحرمة ولا تلبس القفازين) رواه البخاري والحديث يعني ان غير المحرمة تلبس النقاب وتحتجب وتستر اليدين...

---

١ ـ حاشية الجمل على المنهج ١ ـ ٤١.

٢ ـ تحفة الطلاب شرح تحرير تنقيح اللباب ١ ـ ١٧٤.

٣ ـ مغني ذوي الافهام ص١٢٠.

٤ ـ كشف القناع ١ ـ ٣٠٩.

قـال رسـول الله ﷺ (من جـر ثوبه خيـلاء لم ينظر الله تعالى اليـه يوم القيامـة) قالت ام سلمـة فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قـال (يرخينه شبرا). قالت اذن تكشف اقدامهن قال (يرخينه ذراعاً)(١) فستر الوجه أولى لأن القدم اقل فتنة من الوجه.

عن أم عطيـة رضي الله عنها قـالت (امـرنا رسول الله ﷺ ان نخـرج في الفطر والاضحى العـواتق والحيض وذوات الخدور امـا الحيض فيعتـزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين، قلت يارسول الله احدانا لا يكون لها جلبـاب؟ قال صلى الله عليـه وسلم لتلبسهـا أختها جلبـابها(٢). قلت وكمال الجلباب بستر الوجه مع الرأس والصدر.

قال ابن كثير في تفسير آية ٥٩ من سورة الاحزاب امر الله نساء المؤمنين اذا خرجن من بيوتهن ان يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن، وقد فسر محمد ابن سيرين هذه الآية عمليا بأن غطى وجهه وأظهر عينه(٣).

قـال النيسـابوري في غـرائب القـرآن على هامش تفسير الطبري كـانت النساء في اول الاسـلام على عادتهن الجاهليـة مبتذلات فأمـرن بلبس الأردية وستر الوجه والرأس(٤).

ذكر ابن كثير في حادثة وفاة رسول الله ﷺ [اقبل ابو بكر من السنح على دابتـه حتى نزل ببـاب المسجد واقبل مكروبـا حزينا فـاستأذن في بيت ابنتـه عائشـة رضي الله عنها فأذنت له، فدخل ورسول الله ﷺ قـد توفى على الفراش والنسـوة حـوله فخمـرن وجـوههـن واستترن من أبي بكر رضي الله تعـالى عنه(٥).

---

١ ـ رواه البخاري ومسلم / كتاب اللباس.

٢ ـ رواه البخاري / كتاب الحيض.

٣ ـ تفسير ابن كثير.

٤ ـ تفسير الطبري ٢٢ ـ ٣٢.

٥ ـ البداية والنهاية ٦ ـ ٢٤٣.

٤ ـ اتفاق الأقوال :

اتفقت أقوال أئمة المذاهب الاربعة على وجوب ستر المرأة وجهها لخوف الفتنة لطرو الفساد ـ أو لأنه عورة ـ كما تقرر. قال الإمام الكوثري رحمه الله تعالى في وجوب ستر المرأة وجهها أيامنا هذه وأما ما يروى عن أئمة الأمصار من جواز كشف المرأة وجهها وكفيها فمقيد بعدم الخوف من الفتنة عند خروج المرأة سافرة(١) أي كاشفة الوجه. وقال الشيخ محمد علي السايس مدرس تفسير آيات الأحكام في الأزهر الشريف وينبغي أن يكون القول بهذا خاصا بالحالات التي تؤمن فيها الفتنة، وفي الأوقات التي يكثر فيها الفساق في الاسواق والطرقات فلا يجوز للمرأة أن تخرج سافرة عن وجهها ولا أن تبدي شيئاً من زينتها(٢) أقول لسنا هنا بصدد ذكر الأدلة للقولين والترجيح بينها، فقد اتفق القولان كما رأينا على وجوب ستر المرأة وجهها عند خوف الفتنة. ولكني أذكر ما سبق أن أشرت إلى التعليق عليه وهو حديث أسماء، لأن الناس كثيرا ما يذكرون ذلك الخبر. فأقول هذا الحديث أخرجه أبو داود وقال هذا مرسل خالد بن دريد لم يدرك عائشة.

وقال الزيلعي بعد أن ذكر الأثر السابق. قال ابن القطان: ومع هذا فخالد مجهول الحال، وفي سند الحديث سعيد بن بشير وهو ضعيف عند نقاد الحديث قال يعقوب بن سفيان سألت أبا مسهر عنه فقال: لم يكن في جندنا أحفظ منه وهو ضعيف منكر الحديث.... وقال ابن حبان كان رديء الحفظ فاحش الخطأ يروي عن قتادة مالا يتابع عليه، وعن عمرو بن دينار: مالا يعرف من حديثه(٣).

فهذا الخبر مما لا يجوز أن يوقف عليه فضلا عن الاستدلال به. والله اعلم(٤).

---

١ ـ مقالات الكوثري ٣١١ ـ ٣١٢.

٢ ـ تفسير آيات الأحكام ٣ ـ ١٦٢. وانظر المرأة المسلمة ص٢٠٢.

٣ ـ حجاب المرأة المسلمة للبرازي ـ عن تهذيب التهذيب ٤ ـ ١٠.

٤ ـ انظر احكام المرأة المسلمة في (المرأة المسلمة) ص ١٧٧ ـ ٢١٢.

٥ ـ متى يجوز للمرأة أن تظهر وجهها؟ :

يجوز لها ذلك عند وجود الضرورة، وذلك:

أ ـ الخطبة إذا قصد الرجل خطبة المرأة وحصل الاتفاق المبدئى على الزواج جاز للرجل وللمرأة ان ينظر إليها وتنظر إليه. قال أبو الفرج المقدسي: ولا خلاف بين أهل العلم في اباحة النظر إلى وجهها لأنه ليس بعورة ـ وهو مجمع المحاسن ـ وموضع النظر ـ ولا يباح النظر إلى ما يظهر عادة(١).

ب ـ المعاملة : يجوز لها كشف وجهها وكفيها عند حاجتها إلى بيع أو شراء كما يجوز للبائع أن ينظر إليها لتسليم المبيع ما لم يؤد إلى فتنة، فيمنع.

ج ـ المعالجة يجوز للمرأة كشف وجهها وكفيها وأي موضع من جسمها عند المعالجة من داء أو علة، وتقدر الضرورة بقدرها.

د ـ الشهادة عند القاضي، يجوز للمرأة أن تكشف وجهها في اداء الشهادة وتحملها ـ كما يجوز للقاضي النظر إليها لمعرفتها صيانة للحقوق من الضياع، ومثلها معاملات جوازات السفر وأمثالها.

هـ ـ القضاء. يجوز للمرأة كشف وجهها أمام قاض ليحكم لها أو عليها، وله كذلك النظر صيانة للحقوق من الضياع.

و ـ التعليم. يجوز للمرأة كشف وجهها أمام من يعلمها العلم الضروري وما تحتاج إليه من أمر دينها، أو دنياها من الصنائع التي قد تضطر إليها في حياتها، ما لم يؤد إلى فتنة.

ز ـ أمام الصبي الصغير غير ذي الشهوة أو الذي لا يعرف النساء.

ح ـ عند الإحرام، ولها الاسدال على وجهها عند قرب الرجال منها.

ط ـ العجوز التي لا تشتهي ولا تشتهى أي القواعد من النساء(٢).

---

١ ـ الشرح الكبير على متن المقنع ٧ ـ ٣٤٢.

٢ ـ انظر حجاب المرأة المسلمة ص ٢٣٩ ومابعدها.

لباس المرأة: يشترط في لباس المرأة عند خروجها أمور:

١ ـ أن يكون ثوبا واسعاً سابغاً ساتراً للبدن كله (جلبابا).

٢ ـ أن يكون ثخيناً لا يشف عما تحته ذلك لأن الستر لا يتفق بالثوب الرفيق، وإنما يتفق بالثوب الصفيق. قال رسول الله ﷺ (صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا...)(١).

قال الحافظ ابن عبدالبر: وأما معنى قوله: كاسيات عاريات فانه أراد اللواتي يلبسن من الثياب الشيء الخفيف يصف ولا يستر، فهن كاسيات بالاسم عاريات في الحقيقة، مائلات عن الحق مميلات أزواجهن عنه(٢).

٣ ـ ان لا يكون ضيقا يصف البدن أو مواضع منه. قال الإمام مالك رحمه الله تعالى. بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى النساء عن لبس القباطي، قال وان كانت لا تكشف ولكنها تصف لأن الضيق من الثياب يصف ما تحته. فيصف من المرأة أكتافها وثدييها وغير ذلك(٣). ولا شك أن الثياب الضيقة التي تبرز دقائق الجسد وتفاصيل الأعضاء قد أصبحت من أدوات الاغراء ـ وداعية من دواعي الاثارة وسببا من أسباب الفتنة سواء قصدت ـ المرأة ذلك أو لا.

٤ ـ أن لا يكون لباس شهرة قال الدكتور عبدالكريم زيدان ويمكن أن نقول ان لباس الشهرة ما هو يتميز به لابسه عن ألبسة الناس بلون أو شكل أو بهيئة بحيث يجلب انتباه الناس وانظارهم إليه ـ ويختال عليهم صاحبه بالعجب والكبر(٤).

---

١ ـ رواه مسلم ٦ ـ ١٨٦ وأحمد ٢ ـ ٣٥٦.

٢ ـ التمهيد لما في الموطا من المعاني والأسانيد ١٣ ـ ٢٠٤.

٣ ـ المدخل لابن الحاج ١ ـ ٢٣٤. ٤ ـ المفصل في أحكام المرأة ٣ ـ ٣٣٥.

٥ ـ أن لا يكون لباسها شبيها بلباس الرجل ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال(١)، وعنه لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وقال اخرجوهم من بيوتكم، قال فاخرج النبي ﷺ فلاناً وأخرج عمر فلاناً(٢).

قال الامام ابن حجر رحمه الله تعالى فأما هيئة اللباس فتختلف باختلاف عادة كل بلد فرب قوم لا يفترق زي نسائهم من رجالهم في اللبس، لكن يمتاز النساء بالاحتجاب والاستتار(٣).

٦ ـ أن لا يكون من لباس الكافرات الذي يتميزن به في بلادنا ـ لئلا تجر هذه المشابهة إلى مشابهة بما يستحسنون أو يستقبحون مما هو مخالف للشرع، وقد يؤدي هذا إلى استحسان ما يعتقدون من عقائد باطلة، قال رسول الله ﷺ (من تشبه بقوم فهو منهم)(٤).

٧ ـ أن لا يكون الثوب مطيبا أو الجسم عند الخروج من البيت للحديث المشهور.

٦ ـ عورة المرأة:

عورة المرأة في بيتها وحجابها به. لا عورة مستورة بين الزوجين، وان كان يكره شرعا تعريهما لبعض، بل الاغتسال دون ستر، فان الله تعالى حيي ستير، فإذا اغتسل احدكم فليستتر، كما قال رسول الله ﷺ.

---

١ ـ البخاري فتح الباري ١٠ ـ ٣٣٢.

٢ ـ ابو داود

٣ ـ فتح الباري ١٠ ـ ٣٣٢.

٤ ـ ابو داود

وعورتها أمام محارمها من الرجال والنساء [ولو أبوها وأخوها وأختها] هو ما بين سرتها وركبتها فلا إثم على المرأة هنا في لبس الضيق أمام هؤلاء الا إذا خيفت الفتنة من محارم الرجال، فيكره أو يحرم عليها إذا وصفت الثياب ما بين السرة والركبة كالبنطلونات لما في ذلك من تجسيد عورتها، والناس عن هذا غافلون، وكذا إذا كانت رقيقة تظهر ما فوق سرتها، فربما اثار الفتنة.

فلا يحق لأحد أن ينظر من المرأة إلى ما بين سرتها وركبتها كائناً من كان إلا زوجها، وإلا حالة الضرورة الشرعية، وانظر تفسير قوله تعالى ﴿ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم﴾ سور النور.

٧ ـ زينة المرأة :

قالت الأستاذة مهدية الزميلي : يباح للمرأة تحمير الوجه وتزيينه بالمساحيق وتطريف الأصابع(١) والتجميل بالاصباغ وما شابه ذلك فلا يوجد من النصوص ما يمنع ذلك، وليس هو تغييراً لخلق الله تعالى، لانه تغيير مؤقت يزول بالغسل بالماء فهو مباح، وقالت الزينة في قول الله تعالى ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ يراد بها أمور ثلاثة :

أحدها : الاصباغ والخضاب بالوسمة في حاجبها والحمرة في خديها والحناء في كفيها وقدميها.

ثانيها : الحلي كالخاتم والسوار والخلخال والدملج والقلائد والاكليل والوشاح والقرط.

ثالثها : الثياب(٢).

---

١ ـ بغير ما يكون طبقة فوق الظفر فيمنع وصول الماء إليه في الوضوء والغسل إليه فحينئذ لا يجوز.

٢ ـ لباس المرأة وزينتها ص ١٥٧ ـ ١٦٦.

قيل لعائشة رضي الله عنها يا أم المؤمنين ما تقولين في الخضاب والصباغ والتمائم والقرطين والخلخال وخاتم الذهب ورقاق الثياب؟ فقالت يا معشر النساء قصتكن قصة امرأة واحدة، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكن ان يروا منكن محرما(١). وقال العلامة الالوسي عند قول الله تعالى ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ ثم اعلم أن عندي مما يلحق بالزينة المنهي عن ابدائها ما يلبسه اكثر مترفات النساء في زماننا فوق ثيابهن ويستترن به إذا خرجن من بيوتهن وهو غطاء منسوج من حرير ذي عدة ألوان، وفيه من النقوش الذهبية والفضية ما يبهر العيون وأرى أن تمكين أزواجهن ونحوهم لهن من الخروج بذلك، ومشيهن به بين الأجانب، من قلة الغيرة وقد عمت البلوى به(٢). قال الله تعالى مخاطبا نساء الرسول ﷺ وهو خطاب لعامة النساء المسلمات ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى...﴾ الاحزاب ٣٣. قال التابعي مجاهد بن جبر: كانت النساء تمشين بين الرجال فذلك التبرج. وقال مقاتل.. التبرج أن تلقي الخمار على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها(٣) قلت ما أشبه الليلة بالبارحة في حق نساء يضعن الايشارب على رؤوسهن أو بعضها ثم يبدو منهن ما يبدو، من عنق وصدر، وذراع وساق، ولون جسم، ووصف جسم، ويزعمن انهن متحجبات! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الله تعالى: ﴿أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ الزخرف ١٨، قال الدكتور عبدالكريم زيدان: الإسلام دين الفطرة، فليس في أحكامه شيء قط يخالف الفطرة، فكل أحكامه وتشريعاته بلا استثناء تلائم الفطرة السليمة وتناسبها، بل وانها تستدعي هذه التشريعات، فاباحة زينة المرأة تلبية لفطرتها، فكل انثى مولعة بأن تكون جميلة وأن تبدو جميلة،

---

١ ـ تفسير القرطبي ١٢ ـ ٣١.

٢ ـ روح المعاني ١٨ ـ ١٤٦.

٣ ـ تفسير البغوي ٥ ـ ٢٥٨ والجصاص ٥ ـ ٢٣٠.

والزينة تختلف من عصر إلى عصر، ولكن أساسها في الفطرة واحد وهو الرغبة في تحصيل الجمال أو استكماله، والإسلام لا يقاوم هذه الفطرة، ولكنه ينظمها ويضبطها ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد هو شريك الحياة ـ أي زوجها ـ يطلع منها على مالا يطلع عليه أحد سواه.

والزينة مستحبة للمرأة لزوجها ـ وإذا طلب ذلك وجب عليها، وله تعزيرها على ترك الزينة ـ وحكمة زينتها له ظاهرة. وهي أن تحلو في عين زوجها وتشعره بأنها تحبه وتتزين له، وبهذا ونحوه تدوم المودة والمحبة بين الزوجين ودوام المودة والمحبة بينهما من مقاصد الشرع، والمسلمة الفاهمة لمقاصد الإسلام لا تغفل عن هذا المقصد فهي تتزين لزوجها في بيتها، ولا تتركه لتتزين لخروج فقط وعند لقاء الآخرين، ولا ترفض مطلبا يباح له منها ولو كانت في حاجة خاصة بها ويستحب كذلك للزوج أن يتزين لزوجته، ليصح بذلك الغناء لكل منهما عن نساء الناس ورجالهم بما أحل الله تعالى(١).

٨ ـ صورة من زينة المرأة :

أ ـ الحَلي : ما تتزين به المرأة من ذهب وفضة وغيرهما والجمع حلي.

منه الذهب والفضة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (حرم لباس الحرير والذهب على ذكور امتي واحل لاناثها) رواه الترمذي قال شارحه والمراد بالذهب حليه وكذا حلي الفضة مختص بالنساء إلا ما استثنى للرجال كالخاتم من الفضة ونحوه(٢) قال الدكتور زيدان ويباح للنساء من الذهب والفضة كل ما جرت عادتهن بلبسه مثل السوار والخلخال والقرط والخاتم ـ وما يلبسنه على وجوههن وفي أعناقهن وايديهن وأرجلهن

---

١ ـ عن ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ١٨ ـ ٥٩.

٢ ـ تحفة الأحوذي للقاضي أبي بكر بن العربي ٥ ـ ٣٨٣ ـ ورواه أبو داود في سننه ١١ ـ ١٠٧.

وأذانهن وغيره، فأما ما لم تجر عادتهن بلبسه كالمنطقة وشبهها من حلي الرجال فهو محرم عليهن(١). ولكن لا يباح للمرأة استعمال الذهب والفضة في غير الحلي من أدوات وأواني طعام وشراب، فعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال (الذي يشرب في آنية الذهب والفضة انما يجرجر في بطنه نار جهنم)، «رواه مسلم».

ويحرم الادهان والتطيب من اناء ذهب أو فضة وما أشبه ذلك من الاستعمال كمكحلة ومرآة وقلم ودواة ونحوها إذا استعملت ابتداء فيما خصت له كما في الدر المختار.

قال الزرقاني: وفيه حرمة استعمال الذهب والفضة في الأكل والشرب والطهارة ـ والأكل بملعقة من احدهما، والتجمر بمجمرة منهما ـ والبول في اناء، وحرمة الزينة واتخاذه، لا فرق بين رجل وامرأة في ذلك. وانما فرق بينهما في التحلي بما يقصد من الزينة للزوج(٢) قال الإمام النووي اجمعت الأمة على تحريم الأكل والشرب وغيرهما من أدوات الاستعمال... يعني على الرجال والنساء/ انظر المجموع ١ ـ ٢٤٨ أقول فقول الصنعاني اليماني في / سبل السلام/ ١ ـ ٢٨ / من كلام: ودعوى الإجماع غير صحيحة. وهذا من شؤم تبديل اللفظ النبوي بغيره، فانه ورد بتحريم الأكل والشرب فقط فعدلوا عن عبارته إلى الاستعمال، وهجروا العبارة النبوية وجاءوا بلفظ عام من تلقاء أنفسهم ولها نظائر. في عباراتهم أ هـ أقول هذا رد للإجماع والأمر المتفق عليه في المذاهب الأربعة، وهو من سوء الأدب مع الأئمة وله مثيلات في سبل السلام وغيره. قال الإمام الذهبي في ترجمة الإمام الأوزاعي (لا يكاد يوجد الحق فيما اتفق أئمة الاجتهاد الأربعة على خلافه، مع اعترافنا بان اتفاقهم على مسألة لا يكون اجماع الأمة ـ ونهاب أن نجزم في مسألة اتفقوا عليها بأن الحق في خلافها. أ هـ / سير أعلام النبلاء / ٧ ـ ١٧ /.

---

١ ـ ص ٣٥٠ ـ ٣ وانظر المغني ٣ ـ ١٣ ـ والمجموع ٤/٣٣٣.

٢ ـ الزرقاني على الموطأ. ثم قال وأخرجه البخاري ومسلم. ٢٩٢٤.

وعلى المسلمة البالغة أن تؤدي زكاة الذهب والفضة إذا بلغ نصابا ولو كان الذهب أو الفضة خاتماً أو سواراً ـ روى الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة أتت النبي ﷺ ومعها ابنة لها، وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب، فقال اتعطين زكاة هذا! قالت لا، قال: أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟ فخذفتهما فالقتهما إلى النبي ﷺ وقالت هما لله ورسوله، ورواه أحمد وأبو داود واللفظ له والدارقطني(١).

قلت وللشيخ إسماعيل الأنصاري عضو لجنة الافتاء في الرياض رسالة لطيفة في اباحة تزين المرأة بالذهب محلقا وغير محلق يرد فيها على معاصر زعم حرمة تحلي المرأة بالذهب المحلق، فخالف الجمهور. قال الشيخ علي الطنطاوي في فتاويه /١ ـ ١٥٩/ والذي يقول بأن هذا الحديث حديث الذهب المحلق منسوخ هو الإمام ابن حجر ـ قلت وسبقه النووي ـ في فتح الباري، ولا أظن أن احداً يدعي أن الشيخ ناصراً أعلم بالحديث من ابن حجر العسقلاني. وهذا قول الفقهاء، والمذاهب الأربعة متفقة على أن تحلي المرأة بالذهب محلقا وغير محلق كله جائز ومشروع. وإذا كان للشيخ ناصر عذر إذا اجتهد فأخطأ فما عذر من يقلده ويترك جماعة الفقهاء والأئمة المحققين من المحدثين؟ أليس خيرا له لو مشى مع القافلة على الجادة الواضحة، ولم يسلك الطريق الذي انفرد بسلوكه واحد، والدين النصيحة، وانا أرجو أخي الشيخ ناصر أن لا يفرق جماعة المسلمين باجتهادات فردية في مسائل فرعية بصرفهم بهذه المعارك الجانبية عن المعركة الأصلية معركة الالحاد، ومعركة الكفر والايمان..... إلخ(١).

---

١ ـ انظر هذا الحديث وأحاديث أخر في تحي المرأة بالذهب محلقا كان أو مصاغاً، الترغيب والترهيب ١ ـ ٥٥٥ ومابعدها. والمسكة سورة من ذبل أو قرن أو عاج فإذا كانت من غير ذلك اضيفت إليه كما جاء هنا: من ذهب.

٢ ـ انظر التعليق الميسر على ملتقى الأبحر للكاتب ٢ ـ ٢٣٣.

ويجوز للمــــرأة ـ كما يجوز للرجـل التحلي بغير الذهب من اللـؤلؤ والياقـوت والزمرد، ويجوز لها التحلي بالفضـة من غير الاستعمال، فلا يصح استعمالها الفضـة في ملعقـة أو صحن، أو قـاعـدة فنجـان، لأنها استعمال، والتحلي تابع(١).

ب ـ الكحل والخضاب: الكحل ما يكتحل به، والكحل ما وضع في العين يستشفى به، وهو مسحـوق ناعـم جـدا يوضـع في العين فيعطي العين سـواداً وهو مباح للمرأة، لأنه من الزينة المباحة للمرأة والرجل سواء ـ قال رسول الله ﷺ (من اكتحل فليوتر، من فعل فقد أحسن ومن لا فلا حرج) ابن مـاجه ٢ ـ ١١٥٧.

والخضـاب. مـا يخـتضب به يقـال اختضب بالحناء، ويقـال اخضب الشيء يخضبه خضبـا وخضبـه إذا غير لونه بحمـرة أو صفـرة أو غيرهما ـ فالخضاب مـا يصبغ به ويتغير به لون الشـيء المصبوغ إلى حمرة أو صفرة أو غيرهما.

عن جـابر بن عبدالله رضي الله عنهما قـال اتى بأبي قحافـة ـ والد أبي بكر الصديق ـ يوم فتح مكـة ورأسه كالثغـامة بياضـاً ـ فقال ﷺ (غيروا هذا بشيء واجتنبـوا السواد) مسلم بشرح النووي / ٧٩١٤ ـ الثغـامـة نبت أبيض الزهر.

واخــرج مسلم أيضـا عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قـال (ان اليهـود والنصارى لا يصبغون فخـالفوهم) قال النووي بعد ذكـر الحديثين ومذهبنا استحبـاب خضـاب الشيب للرجـل والمرأة بصفرة أو حمرة، ويحرم خضـابه بالسواد على الأرجح الأصح ـ وقيل يكره كراهة تنزيه والمختار التحريم لقوله ﷺ ـ واجتنبوا السواد(٢) وقد أباح بعض المعاصرين للزوجة الصبغ بالسواد

---

١ ـ رد المحتار ٥ ـ ٢٦١.

٢ ـ شرح مسلم ١٤ ـ ٨٠.

سـواء كـان لتغيير لون شعـرها أو ازالة شيبـه ـ إذ ليس في الأمـر تدليس ولا خداع فهو يعـرفها ويعرف عمرها، وانما تفعل ذلك لتتـزين له ـ جاء في المغني: ورخص فيه: أي الصبغ بالسواد ـ اسحاق للمـرأة تتزين به لزوجها،(١) ولها ان تخضب يديها ورجليها، وكره ذلك للرجال لما فيه من التشبه بالنساء إلا إذا دعت ضرورة إليه.

ج ـ الثياب :

الأصل في اتخاذ الثيــاب ستر العــــورة، ودفع البرد، والتلطف في الحر، والتزين به، وكل ذلك جائز. ويزاد أن للمرأة أن تلبس ثياب حرير القز، وتتخذ منه مناديل وأدوات زينة، ثم يبــاح لها اتخاذ الألوان المختلفـــة لثيـــابها من الأبيض والأحمر، والأصفر والأخضر، وغير ذلـك ـ ولها أن تبدو بها وبدونها لزوجها، مع ستر الواجب ستره من المحارم، أمـا مع الأجانب فلا تتخذ الألوان المغرية من الثيـاب لما يخشى على ذلك من الفتنة، وقد مضى الكلام على شروط الحجاب الشرعي.

ولا يجوز أن يكون في ثوب المرأة، والرجل والطفل تصـاليب وما سـواه مما هو من شعار الكفرة، عن عمران بن حطان أن عائشة رضي الله عنها حدثته أن النبي ﷺ لم يترك في بيتـه شيئا فيـه تصاليب إلا نقضــه(٢) وعن دفـرة أم عبدالرحمن بن أذينـة قالت. كنا نطوف بالبيت مع أم المؤمنين فـرأت على امرأة برداً فيه تصليب فقـالت ام المؤمنين اطرحيه اطرحيه فان رسـول الله ﷺ كان إذا رأى نحـو هذا قضبه(٣). والقضب : القطع وعـن ابن عون، عن محمـد أن النبي ﷺ رأى على بعض أزواجـه ستراً فيـه تصـاليـب فأمـر به فقضب.(٤)

---

١ ـ المغني ١ ـ ٩٢ انظر التفصيـل في المفصل في احكام المرأة ٣ ـ ٣٥٧ وانظر رد المحتــار على الدر المختار ٥ ـ ٢٧١.

٢ ـ رواه البخاري ١٠ ـ ٣٨٥ فتح الباري، وأحمد ٦ ـ ٥٢.

٣ ـ رواه أحمد ٦ ـ ١٤٠. ٤ ـ ابن أبي شيبة ٨ ـ ١٩٨.

والواجب على المسلم إزالة التصاليب في الثياب والأشياء، والدعايات من صور وإعلانات لأن ذلك من المنكر الواجب إزالته.

ولا يجوز أن يكون في ثوب المرأة والرجل والطفل صور لذي روح من إنسان أو حيوان، ولا أن يكون في ستار أو مقاعد جلوس. عن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ قال (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة)(١)

قالت عائشة رضي الله عنها قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت بقرام لي على سهوة لي فيها تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه، وقال (أشدّ الناس عذابا يوم القيامة الذي يضاهون بخلق الله) قال فجعلناه وسادة أو وسادتين(٢). قال الإمام الخطابي رحمه الله تعالى. والصورة التي لا تدخل الملائكة البيت الذي هو فيه ما يحرم اقتناؤه، وهو ما يكون من الصور التي يكون فيها الروح مما لم يقطع رأسه أو يمتهن(٣).

د ـ العناية بالشعر قال رسول الله ﷺ (من كان له شعر فليكرمه) رواه أبو داود فعلى هذا فمن المستحب للمرأة أن تتعهد شعرها بالغسل والتنظيف والتمشيط والتدهين، وكل هذا مرغوب فيه شرعاً، وهو من معاني اكرام الشعر. قالت عائشة رضي الله عنها خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع فاهللنا بعمرة ثم قال رسول الله ﷺ (من كان معه هدي فليهلّ بالحج مع العمرة ثم لا يحلّ حتى يحلّ منهما جميعاً)، قالت فقدمت مكة وأنا حائض لم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال (انقضي رأسك وامتشطي وأهلي بالحج ودعي العمرة) الحديث(٤). وقال أنس رضي الله عنه [كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته](٥). ولكن

---

١ ـ البخاري ومسلم في مواضع.

٢ ـ البخاري ١٠ ـ ٣٨٦ فتح الباري ومسلم ١٤ ـ ٨٨ بشرح النووي.

٣ ـ فتح الباري ١٠ ـ ٣٨٢.

٤ ـ رواه مسلم في الحج ٤ ـ ٣٩٤ شرح النووي، ورواه البخاري.

٥ ـ شرح شمائل الترمذي للاستاذ عبدالجواد الدومي ص ٧٢.

يكره نتف الشيب للمرأة والرجل سواء، قال رسول الله ﷺ (لا تنتفوا الشيب ما من مسلم يشيب شيبة في الإسلام إلا كانت له نوراً يوم القيامة)(١).

ويجوز للمتزوجة أن تحف شعر وجهها وتزيل شعره تزينا لزوجها، ولانعدام التزوير والتدليس.

ذهب الحنفية إلى أن المنماص المحرم ـ يأتي الكلام عليه ـ هو ما تفعله المرأة للتبرج والتزين للاجانب وكذا ما تفعله بلا حاجة ولا ضرورة لما في نتفه بالمنماص من الإيذاء، اما ما تفعله بقصد التزين لزوجها فلا يحرم فإذا كان في وجهها شعر يؤدي إلى نفور زوجها عنها جاز لها إزالة ما نبت في وجهها من لحية أو شارب أو عنفقه، بل يستحب ذلك، وهو غير داخل في النهي عن المنماص، وكذا يجوز لها الأخذ من شعر الحاجبين وشعر الوجه ما لم تتشبه في ذلك بالمخنثين(٢).

في / التتار خانية / عن المضمرات، ولا بأس بأخذ الحاجبين وشعر وجهه ما لم يشبه المخنث / عن الدرر المباحة في الحظر والاباحة للنحلاوي.

عن أبي اسحاق عن امرأته انها دخلت على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وكانت امرأة أبي اسحاق شابة يعجبها الجمال، فقال المرأة تحف جبينها؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: (أميطي عنك الأذى ما استطعت...) فتح الباري / ١٠ ـ ٣٧٨ / . وجاء في (المغني) من الحنابلة فأما حف الوجه فقال مهنا سألت أبا عبدالله أي الإمام أحمد ـ عن الحف، فقال ليس به بأس للنساء واكرهه للرجال. والحف هو ازالة الشعر بالموسى (المغني) ١ ـ ٩٤ ـ وقال الإمام العيني من الحنفية: (ولا تمنع الأدوية التي تزيل الكلف وتحسن الوجه للزوج وكذا أخذ الشعر منه) عمدة القاري (٢ ـ ٩٣).

---

١ ـ أبو داود ١١ ـ ٢٥٦ من عون المعبود.

٢ ـ حاشية ابن عابدين ٥ ـ ٢٣٩ ومصادره.

قال الإمام النووي: واما الأخذ من الحاجبين إذا طالا فلم أر فيه شيئا لاصحابنا وينبغي أن يكره لانه تغيير لخلق الله لم يثبت فيه شيء فكره وذكر بعض أصحاب أحمد انه لا بأس به، وكان أحمد يفعله، وحكى أيضا عن الحسن البصري(١) [قال الدكتور عبدالكريم زيدان: ليس في قص شيء من الشعر الطويل للحاجبين تغيير لخلق الله ـ ولو كان فيه هذا المعنى لما جاز تقصير أو حلق الرجل أو تقصير شعر المرأة في التحلل من الحج أو العمرة، ولما جاز أن يقصر الرجل شعره أو يحلقه في الأحوال العادية، فعلى هذا يحل للمرأة أن تأخذ من الحاجبين الشعر الزائد الخارج عن استقامة الحاجبين من غير مبالغة فيه، لأنه لا تدليس فيه، ولا تغيير لخلق الله تعالى(٢) النماص هو الأخذ من شعر الحاجبين لترقيقهما حتى يصيرا كالقوس أو الهلال بقصد الحسن والتجمل إذا كان بدون إذن الزوج أما إذا فعلته باذن الزوج جاز، لأن له غرضا في تزينها له وقد اذن لها.

هـ ـ وصل الشعر :

قد يسقط شعر المرأة لمرض أو علة فما تفعل بشعر رأسها القليل! قال الليث بن سعد رحمه الله تعالى ان النهي عن وصل الشعر مختص بالوصل بالشعر، ولا بأس بوصل شعر المرأة بصوف وخرق وغيرها. وقد نقل أبو عبيد قول الليث عن كثير من الفقهاء(٣) وقال الإمام علاء الدين الكاساني من فقهاء الحنفية رحمه الله تعالى ولا بأس بذلك ـ وصل الشعر ـ من شعر البهيمة وصوفها لأنه انتفاع بطريق التزيين بما يحتمل ذلك، ولهذا احتمل الاستعمال في سائر وجوه الانتفاع فكذا في التزين(٤) قال الدكتور محمود

---

١ ـ المجموع في فقه الشافعية ١ ـ ٢٩٠.

٢ ـ عن أحكام الجراحة والتجميل في الفقه الإسلامي د. محمد عثمان شبير ص ٣٢.

٣ ـ فتح الباري ١٠ ـ ٣٧٥ والنووي على مسلم ١٤ ـ ١٠٤.

٤ ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ٥ ـ ١٢٥.

السرطاوي: علاج الشعر جراحياً باجراء عملية تزرع الشعر في الرأس بحيث يكون ناميا جائز إذا لا تدليس فيه، بل معالجة للرجوع إلى الخلقة القويمة التي جبل الإنسان عليها(١).

وقال عبدالرحمن بن الجوزي الحنبلي حديث النامصة محمول على التدليس أو على الفاجرات فيكون المنماص المحرم ما تفعله على وجه التدليس أو بقصد التشبه بالفاجرات / أحكام النساء ص ١٦ / وانظر المنهاج مع نهاية المحتاج ٢ ـ ٢٥ ومغني المحتاج ١ ـ ١٩١.

والباروكة التي تضعها المرأة قليلة الشعر لزوجها تتزين به باذنه لا بأس به، إذ لا تدليس، ولا وصل للشعر، وإنما هو وضع. والله أعلم.

و ـ حديث شريف :

عن عائشة رضي الله عنها أن جارية من الأنصار تزوجت وأنها مرضت فتمرط شعرها ـ أي سقط شعرها ـ فارادو أن يصلوها فسألوا النبي ﷺ فقال (لعن الله الواصلة والمستوصلة) وقال عبدالله ابن مسعود (لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال ام يعقوب وكانت تقرأ القرآن فاتته فقالت ما حديث بلغني عنك: انك لعنت الواشمات والمتوشمات والمتنمصات للحسن المغيرات خلق الله؟ قال عبدالله وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى؟ فقال المرأة لقد قرأت القرآن ما بين لوحي المصحف فما وجدته. فقال لو كنت قرأتية لوجدتيه. قال الله عز وجل (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)، فقالت المرأة فأني أرى شيئا من هذا على امرأتك الآن؟ قال اذهبي فانظري قال فدخلت على امرأة عبدالله فلم تر شيئا. فجاءت إليه فقالت: مارأيت شيئا، فقال اما لو كان ذلك لم نجامعها) مسلم ٧١ ـ ٣٥٦). قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح حديث الباب أما الواصلة فهي التي تصل

---

١ ـ حكم التشريح وجراحة التجميل في الشريعة الإسلامية مجلة دراسات ٣/١٤٩.

شعر المرأة بشعر آخر، والمستوصلة التي تطلب أن يفعل بها ذلك، ويقال لها موصولة وهذه الأحاديث صريحة في تحريم الوصل، ولعن الواصلة والمستوصلة مطلقاً، وهذا هو الظاهر المختار، وقد فصله أصحابنا فقالوا: ان وصلت شعرها بشعر آدمي فهو حرام بلا خلاف، سواء كان شعر رجل أو امرأة ـ سواء شعر المحرم والزوج وغيرهما، بل يدفن شعره وظفره وسائر اجزائه، وان وصلته بشعر غير آدمي فان كان شعرا نجساً وهو شعر الميتة وشعر ما لا يؤكل إذا انفصل في حياته فهو حرام أيضا للحديث، ولأنه حمل نجاسة في صلاته وغيرها عمداً، وسواء في هذين النوعين المتزوجة وغيرها من النساء والرجال. وأما الشعر الطاهر من غير الآدمي فان لم يكن لها زوج ولا سيد فهو حرام أيضا وان كان فثلاثة أوجه احدهما لا يجوز لظاهر الحديث. والثاني لا يحرم واصحها عندهم ان فعلته باذن الزوج او السيد جاز، وإلا فهو حرام قال واما تحمير الوجه والخضاب بالسواد وتطريف الأصابع فان لم يكن لها زوج ولا سيد أو كان وفعلته بغير اذنه فحرام وان اذن جاز على الصحيح. هذا تلخيص كلام أصحابنا في المسألة. وقال القاضي عياض: اختلف العلماء في المسألة، فقال مالك والطبري وكثيرون أو الأكثرون: الوصل ممنوع بكل شيء سواء وصلته بشعر أو صوف وخرق احتجوا بحديث جابر الذي ذكره مسلم بعد هذا ونصه (زجر النبي ﷺ أن تصل المرأة برأسها شيئا) وقال الليث بن سعد: النهي مختص بالوصل بالشعر، ولا بأس بوصله بصوف وخرق وغيرها. وقال بعضهم يجوز جميع ذلك وهو مروي عن عائشة، ولا يصح عنها بل الصحيح عنها قول الجمهور. قال القاضي فأما ربط خيوط الحرير الملونة ونحوها مما لا يشبه الشعر فليس بمنهي عنه، لأنه ليس بوصل، ولا هو في معنى مقصود الوصل، وإنما هو التجميل والتحسين، قال وفي الحديث أن وصل الشعر من المعاصي الكبائر للعن فاعله، وفيه أن المعين على الحرام يشارك فاعله في الأثم ـ كما أن المعاون في الطاعة يشارك في ثوابها. والله أعلم.

قوله (لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات

والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله. أما (الواشمة) بالشين المعجمة ففاعلة الوشم، وهي أن تغرز إبرة أو مسلة أو نحوها في ظهر الكف أو المعصم أو الشفة أو غير ذلك من بدن المرأة حتى يسيل الدم، ثم تحشو ذلك الموضع بالكحل أو النورة فيخضر، وقد يفعل ذلك بذرات ونقوش، وقد تكثره وقد تقلله وفاعلة هذا واشمة، وقد وشمت تشم وشماً ـ والمفعول بها موشومة ـ فان طلبت فعل ذلك فهي مستوشمة، وهو حرام على الفاعلة والمفعول بها باختيارها والطالبة له. وقد يفعل بالبنت وهي طفلة فتأثم الفاعلة، ولا تأثم البنت لعدم تكليفها حيئنذ، قال أصحابنا: هذا الموضع الذي وشم يصير نجساً فان امكن ازالته بالعلاج وجبت إزالته، وان لم يمكن إلا بالجرح فان خاف منه التلف أو فوات عضو أو منفعة عضو أو شيناً فاحشاً في عضو ظاهر لم تجب ازالته فاذا بقي لم يبق عليه اثم، وان لم يخف شيئاً من ذلك ونحوه لزمه إزالته، ويعصي بتأخيره وسواء في هذا الرجل والمرأة. والله أعلم. وأما (النامصة) بالصاد المهملة فهي التي تزيل الشعر من الوجه والمتنمصة: التي تطلب فعل ذلك بها وهذا الفعل حرام إلا إذا نبتت للمرأة لحية أو شوارب فلا تحرم ازالتها، بل يستحب عندنا. وقال ابن جرير لا يجوز حلق لحيتها ولا عنفقتها ولا شاربها ولا تغيير شيء من خلقتها بزيادة ولا نقص. ومذهبنا ما قدمناه من استحباب إزالة اللحية والشارب والعنفقة، وان النهي انما هو في الحواجب وما في أطراف الوجه، ورواه بعضهم (المنتمصة) بتقديم النون، والمشهور تأخيرها، ويقال للمنقاش منماص، بكسر الميم.

وأما (المتفلجات) بالفاء والجيم والمراد مفلجات الأسنان بأن تبرد ما بين أسنانها الثنايا والرباعيات وهو من الفلج بفتح اللام والفاء وهي فرجة بين الثنايا والرباعيات، وتفعل ذلك العجوز ومن قاربتها في السن اظهارا للصغر وحسن الأسنان، لأن هذه الفرجة اللطيفة بين الأسنان تكون للبنات الصغار، فإذا عجزت المرأة كبرت سنها وتوحشت تبردها بالمبرد لتصير لطيفة حسنة المنظر، وتوهم كونها صغيرة، ويقال أيضا الوشر ومنه (لعن الواشرة والمستوشرة) وهذا الفعل حرام على الفاعلة والمفعول بها لهذه الأحاديث، ولأنه

تغيير لخلق الله تعالى، ولانه تزوير، ولأنه تدليس. وأما قوله (والمتفلجات للحسن) فمعناه يفعلن ذلك طلباً للحسن وفيه اشارة إلى ان الحرام هو المفعول لطلب الحسن، أما لو احتاجت إليه لعلاج أو عيب في السن ونحوه. فلا بأس به والله أعلم. قوله (لو كان ذلك لم نجامعها) قال جماهير العلماء معناه: لم نصاحبها ولم تجتمع نحن وهي بل كنا نطلقها ونفارقها قال القاضي: ويحتمل ان معناه لم أطأها، وهذا ضعيف والصحيح ما سبق. فيحتج به في أن من عنده أمرأة مرتكبة معصية كالوصل أو ترك الصلاة أو غيرهما ينبغي له أن يطلقها. والله أعلم(١)، (٢).

٩ ـ خاتمة : انقل إليك صورة من فعل نساء الصحابة عند نزول شيء من القرآن الكريم :

أ ـ قالت عائشة رضي الله عنها (رحم الله نساء المهاجرات الاول لما نزل (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن أزرهن فاختمرن بها. (رواه البخاري) ودخلت على عائشة حفصة بنت أخيها عبدالرحمن رضي الله عنهم وقد اختمرت بشيء يشف عن عنقها وما هنالك فشقته عليها وقالت انما يضرب بالكثيف الذي يستر(٣).

ثم قال الإمام القرطبي الخمر جمع خمار، وهو ما تغطي به رأسها ومنه اختمرت المرأة وتخمرت وهي حسنة الخمرة، والجيوب جمع جيب وهو موضع القطع من الدرع والقميص وهو من الجوب وهو القطع. وقال مقاتل: (على جيوبهن) أي على صدورهن، يعني على مواضع جيوبهن(٤) وقال الإمام ابن حجر عند شرح قول السيدة عائشة رضي الله عنها (يرحم الله نساء

---

١ ـ شرح مسلم للنووي طبع دار أبي حيان / على نفقة سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ٧ ـ ٣٥٩ ـ ٣٦٢.

٢ ـ لعل ذلك بعد ان يستنفدجميع طرق علاجها.

٣ ـ تفسير القرطبي ١٢ ـ ٢٣٠.

٤ ـ تفسير القرطبي ١٢ ـ ٢٣٠.

المهاجرات الأول) لما انزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمرن بها قوله (فاختمرن) أي غطين وجوههن، وصفة ذلك، أن تضع الخمار على رأسها وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر، وهو التقنع. قال الفراء: كانوا في الجاهلية، تسدل المرأة خمارها من ورائها وتكشف ما قدامها فأمرت بالاستتار(١) وقال في كتاب الأشربة من الصحيح عند تعريف الخمر: ومنه خمار المرأة لأنه يستر وجهها(٢) وعلى هذا فالخمار: ما تغطي به المرأة رأسها ووجهها فتستتر به عن أعين الرجال(٣).

وهذه بعض فوائد الحجاب الهامة :

الفائدة الأولى اظهار طاعة الله تعالى والانقياد قلبا وقالبا وظاهرا وباطنا قال تعالى ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾(٤). ولقد ذكر الدكتور البرازي فوائد عديدة للحجاب اذكر عناوين تلك الفوائد خشية الإطالة. فقال حفظه الله تعالى :

طهارة القلوب من الخواطر الشيطانية والهواجس النفسانية.

صيانة النساء من أذى الفاسقين والحفاظ عليهن من تعرض المتسكعين.

اصلاح الظاهر بما يتناسب وما يقصد إليه الشارع من صلاح الباطن ليتم الانسجام التام بين حشمة المظهر وعفة المخبر.

الحجاب مظهر من مظاهر الخفر ودليل على تمكن الحياء والأدب.

من حكمة الحجاب انه يتناسب مع طبيعة المرأة التي فطرها الله تعالى عليها من الإيمان والحياء، لان حالها مبني على الستر(٥).

١ـ فتح الباري ٨ ـ ٤٩. ٢ ـ فتح الباري ١٠ ـ ٤٨.

٣ ـ حجاب المسلمة للدكتور البرازي، ص ٣٧ وانظر للتوثيق / روح المعاني ١٨ ـ ١٢٢ ومفاتيح الغيب الرازي ٢٣ ـ ٢٠٦.

٤ ـ النساء ٦٥. ٥ ـ حجاب المسلمة ١٢١ ـ ١٢٤.

وأخيرا ابين حجاب المرأة المسلمة على مر القرون. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: لم تزل الرجال على مر الزمان مكشوفي الوجوه والنساء يخرجن متنقبات (الاحياء) وقال العلامة ابن تيمية: وكشف النساء وجوههن بحيث يراهن الأجانب غير جائز، وعلى ولي الأمر: الأمر بالمعروف والنهي عن هذا المنكر وغيره، ومن لم يرتدع فانه يعاقب على ذلك بما يزجره. مجموع الفتاوي ٢٢ ـ ١١٧. وحين رأى الخليفة العثماني عبدالحميد الثاني رحمه الله تعالى السفور يجتاح البلاد تأثراً بدعوة اليهود الدونمة وغيرهم اصدر بيانا في ٣ ـ ١٠ ـ ٨٨٣ يقول فيه أن بعض النساء العثمانيات اللاتي يخرجن في الأوقات الأخيرة يرتدين ملابس مخالفة للشرع، وان السلطان قد أبلغ الحكومة بضرورة اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على هذه الظاهرة، كما ابلغ السلطان الحكومة بضرورة عودة النساء إلى ارتداء الحجاب الشرعي الكامل بالنقاب إذا خرجن إلى الشوارع، وبناء على هذا فقد اجتمع مجلس الوزارة. واتخذ القرارات التالية تعطى مهلة شهر واحد يمنع بعده سير النساء في الشوارع إلا إذا ارتدين الحجاب الإسلامي القديم، وينبغي أن يكون هذا الحجاب خاليا من كل زينة ومن كل تطريز ـ ويلغى ارتداء النساء النقاب المصنوع من القماش الخفيف أو الشفاف، وبالتالي ضرورة العودة إلى النقاب الشرعي الذي لا يبين خطوط الوجه وعلى الشرطة بعد مضي شهر من هذا البيان تطبيق ما جاء فيه من قرارات في شكل حاسم، وعلى قوات الضبطية التعاون مع الشرطة في هذا. صدق السلطان على هذا البيان بقراراته الحكومية. ينشر هذا البيان في الصحف ويعلق في الشوارع.

وفي اليوم التالي قالت جريدة «وقت» في استنبول: إن المجتمع العثماني عموماً يصوب هذا القرار ويراه نافعاً(١).

---

١ ـ انظر السلطان عبدالحميد الثاني للدكتور محمد حرب ص ٩٩ ـ ١٠٠.

خطة لتدمير المرأة والمجتمع:

لما كـان الحجـاب ومـا يزال من عـوامل حفظ الدين والاخـلاق، وحفظ الانساب، وطيب العيش والاستقامة، وقيـام الأسرة الصالحة، فقد خرج أولئك الذين دفعهم من دفعهم من الاجانب والاهواء بدعوات كشف المرأة عن وجهها، وإزالة مظاهر التدين، فكانت المقالات والكتب السامة والعياذ بالله.

ثم خـرج بذلك وهو ـ الأنكـي ـ الماسـوني هادم الخلافـة الإسـلاميـة أتاتورك بقـانون يلزم المرأة برفع الحجـاب ثم تبعـه بعد ذلك رضـا بهلوي في إيران وأحمد زوغو في البانيا، والآن تمنع فتيات متحجبات من متابعة الدراسة أو شغل بعض وظـائف الدولة والشركـات في بعض بلاد العـرب والمسلمين وبعض بلاد الغرب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نـــداء:

بنتي المسلمة، إن الحرية الشخصية بل الحيـاة كلها يجب أن توجه وفق أوامـر الله تعالى وشرائعـه. وان الاعراض عن الإسـلام عاقبتـه وخيمة. قـال تعالى: ﴿ومن أعـرض عن ذكري فـان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيـامة أعمى. قـال رب لم حشرتني أعمـى وقـد كنت بصيراً قـال كـذلـك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليـوم تُـنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾(١).

كـوني قدوة صـالحة، فلن تزال البشرية في هبـوط ولن تزال المرأة فتنة الرجل ومتعتـه وأسيرة أهوائه حتـى يراجع الناس دينهم، وتلزم المرأة بالذات دينها وحجابها.

---

١ ـ سورة طه ١٢٤ ـ ١٢٧.

وثقي إن الإسـلام قادم. وان نوره سيشع عن الكون من جـديد فكوني مع أخيك مـن حملة شعلتـه لتضيء على البشرية طريقـه نحـو الحق والخير والهدى والسعـادة، ولقـد قـال الله تعـالى: ﴿يريدون أن يطفئـوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾(١).

ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً....(٢).

المراجع والمصـادر:

١ ـ الجامع لأحكام القرآن. للقرطبي.

٢ ـ تفسير ابن كثير.

٣ ـ تفسير آيات الأحكام. للجصاص.

٤ ـ تفسير آيات الأحكام لأبي بكر بن العربي.

٥ ـ رد المختار على الدر المحتار.

٦ ـ بدائع الصنائع.

٧ ـ المجموع شرح في المهذب

٨ ـ حجاب المسلمة، د. فؤاد البرازي.

٩ ـ لباس المرأة وزينتها في الفقه الإسلامي، مهدية شحادة الزميلي.

١٠ ـ المفصل في أحكام المرأة ـ جـ ٣ للدكتور عبدالكريم زيدان.. وغيرها.

---

١ ـ سورة التوبة ٣٢.

٢ ـ سورة الاسراء ٥١.

المال الحرام وزكاته

د. محمد عبدالغفار الشريف *

١- الإنسان اجتماعي بطبعه:

فهو لا يستطيع أن يعيش وحده، بل لابد له من مخالطة بني جنسه لأن طبيعة خلقه تضطره لذلك. فهو لا يمكن أن يعيش إلا بالغذاء والكساء، ولا يمكن أن يحافظ على بقاء جنسه إلا بالنكاح، وهذا يؤدي إلى تكوين أسرة، وحاجات الأسرة متعددة، لا يمكن توفيرها إلا بالتعاون مع بني جنسه. فحصوله مثلا على رغيف خبز في اليوم يحتاج إلى تعاون أشخاص كثيرين، من زارع وطحان وعجان وخباز.... الخ.

إذن هذا الاجتماع ضرورة للنوع الإنساني، وهو يستوجب التعاون والعمل، وإلا لا يكمل وجودهم، وما أراد الله من اعتمار العالم بهم.

والقرآن الكريم يلفت نظرنا إلى هذا ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(١).

---

* كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت.

(١) الحجرات آية ١٣

وقال عز وجل ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾(١).

قال الإمام القشيري ـ رحمه الله تعالى: لو كانت المقادير متساوية لتعطلت المعايش، ولبقي كل عند حاله، فجعل بعضهم مخصوصين بالرفة والمال، وآخرين مخصوصين بالفقر ورقة الحال .. حتى احتاج الفقير في جبر حاجته إلى أن يعمل للغني، كي يرتفق من جهته بأجرته، فيصلح بذلك أمر الغني والفقير جميعاً(٢).

٢ ـ نظرة الإسلام إلى العمل:

يعدّ الإسلام العمل شرفا وعبادة، عن كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «مر على النبي ـ ﷺ ـ من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم ـ إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان(٣).

وحسب العمل شرفا أن رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى آله وصحبه وسلم ـ قد تفتحت عيناه أول ما تفتحتا على السعي والعمل، فكان يرعى الغنم وهو صغير، بل كان يفاخر بذلك «عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم ـ أنه قال: ـ ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، قالوا: وأنت يا رسول الله! قال وأنا رعيتها لأهل مكة على قراريط(٤).

---

(١) الزخرف آية ٣٢. (٢) لطائف الإشارات.

(٣) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (الترغيب والترهيب ٣/٦٣).

(٤) رواه البخاري (المشكاة ٢٨٩٣)، والقراريط جمع قيراط، والقيراط، معيار في الوزن وفي القياس اختلفت مقاديره باختلاف الأزمنة، وهو اليوم في الوزن أربع قمحات (المعجم الوسيط ٢/٧٣٤).

ولم يكتف الإسلام بهذا التشريف للعمل بالحث عليه فقط بل جعله فرضا على المسلمين. قال ابن تيمية: «قال غير واحد من الفقهاء، من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما كأبي حامد الغزالي وأبي الفرج بن الجوزي وغيرهما إن هذه الصناعات كالفلاحة والنساجة والبناية..إلخ فرض على الكفاية فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بها(١) وقال أيضاً «إن بذل منافع الأبدان يجب عند الحاجة كما يجب عند الحاجة تعليم العلم وإفتاء الناس.. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(٢).

٣ ـ مجالات العمل في الإسلام:ـ

والعمل في الإسلام تتسع دائرته ويمتد إطاره فيشمل كل بناء مثمر وكل سعي لخير البشرية ولحفظ كيان الجماعة الإنسانية وسيادتها.

والعامل المسلم حر طليق يرتاد ميادين العمل جميعها غير مقيد بزمان أو مكان ما دام رائده النفع العام، بشرط أن لا يتعدى حدود الله تعالى.

وكل أنواع الكسب حلال ما عدا قسمين:

أ ـ كل ما جاء من حرفة ممنوعة شرعاً كالبغاء والكهانة.. إلخ، لما فيه من أخذ العوض على أمر باطل، وكذا كل عمل لم يحرم لذاته وإنما حرم لأنه إعانة على المعصية كحمل الخمر لمن يشربها.

ب ـ كل ما جاء من نيابة عن الغير في أداء عمل تتعين فيه المباشرة، كالصلاة والصيام وما أشبهه من الأعمال المشتملة على مصلحة منظور فيها لذات الفاعل. لهذا لا يجوز لحي أن ينوب فيها عن حي إلاّ ما جاء في حالة العجز عن الحج لورود النص بهذا، وما استثناه الفقهاء مما أشبه ذلك(٣).

---

(١) الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية ـ محمد المبارك ١٣٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر قضاء العبادات والنيابة فيها ـ نوح سلمان ٣١٤.

٤ ـ مداخل الحلال والحرام.

الأصل في الأشياء الإباحة لقوله تعالى ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾(١)، ولقوله عز وجل ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾(٢).

قال أبو الفضل الوليدي ـ رحمه الله ـ: قد من الله ـ تعالى ـ علينا بفضله، وأحل لنا جميع الطيبات المستلذات، وحرم علينا ما قامت بعينه صفة تحريم لا يشك فيها كالنجاسة في البول والشدة في الخمر، لأن ذلك مضر بأبداننا أو بعقولنا أو بديننا، وأوسع علينا في مداخل الحلال، فجعلها ستة مداخل، وللحرام صفة واحدة ثابتة، وجعل ترك العلامة للطيبات علامة(٣).

وقال الإمام الغزالي ـ رحمه الله: أخذ المال إما أن يكون باختيار المالك، أو بغير اختياره، فالذي يكون بغير اختياره كالإرث، والذي يكون باختياره إما أن لا يكون من مالك كنيل المعادن، أو يكون من مالك، والذي أخذ من مالك فإما أن يؤخذ قهراً أو يؤخذ تراضيا، والمأخوذ قهرا إما أن يكون لسقوط عصمة المالك كالغنائم أو لاستحقاق الأخذ، كزكاة المتنعين والنفقات الواجبة عليهم، والمأخوذ تراضيا إما أن يؤخذ بعوض كالبيع والصداق والأجرة، وإما أن يؤخذ بغير عوض كالهبة والوصية، فيحصل من هذا السياق ستة أقسام(٤).

الأول: ما يؤخذ من غير مالك كنيل المعادن، وإحياء الموات، والاصطياد، والاحتطاب، والاستقاء من الأنهار، والاحتشاش، فهذا حلال بشرط أن لا

---

(١) البقرة: ٢٩.

(٢) الأعراف: ٣٢

(٣) الحلال والحرام ٦٣ بتصرف يسير.

(٤) إحياء علوم الدين ٢/ ١١٨.

يكون المأخوذ مختصا بذي حرمة من الآدميين، فإذا انفك من الاختصاصات ملكها آخذها. وتفصيل ذلك في كتاب إحياء الموات.

الثاني: المأخوذ قهرا ممن لا حرمة له وهو الفيء والغنيمة وسائر أموال الكفار والمحاربين، وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا منه الخمس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد. وتفصيل هذه الشروط في كتاب السير من كتاب الفيء والغنيمة وكتاب الجزية [illegible]

الثالث: ما يؤخذ قهرا باستحقاق عند امتناع من وجب عليه، فيؤخذ دون رضاه، وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق وتم وصف المستحق الذي به استحقاقه، واقتصر على القدر المستحق، واستوفاه من يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق، وتفصيل ذلك في كتاب تفريق الصدقات وكتاب الوقف وكتاب النفقات، إذ فيها النظر في صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة وغيرها من الحقوق، فإذا استوفيت شرائطها كان المأخوذ حلالا.

الرابع: ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة، وذلك حلال إذا روعي شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط اللفظين: أي الايجاب والقبول، مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة. وبيان ذلك في كتاب البيع والسلم والإجارة والحوالة والضمان والقراض والشركة والمساقاة والشفعة والصلح والخلع والكتابة والصداق وسائر المعاوضات.

الخامس: ما يؤخذ عن رضا من غير عوض، وهو حلال إذا روعي فيه شرط المعقود عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر بوارث أو غيره. وذلك مذكور في كتاب الهبات والوصايا والصدقات.

السادس: ما يحصل بغير اختيار كالميراث، وهو حلال إذا كان المورث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال، ثم كان ذلك بعد

قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة وإخراج الزكاة والحج والكفارة إن كان واجبا، وذلك مذكور في كتاب الوصايا والفرائض(١).

فهذه الستة هي مداخل الحلال من الطيبات ما لم يطرأ على شيء من ذلك خلل في وجه اكتسابه، ومتى طرأ على وجه من المداخل الستة خلل في وجه الاكتساب، صار تناول ذلك والانتفاع به حراما، إلا إن كان ذلك التحريم لعارض يزول وليس ذلك كالشدة في الخمر ولا كالنجاسة في البول، فإذا زال الخلل الذي طرأ على المال بقي المال حلالاً على أصله قبل طرو ذلك الخلل.

والخلل الذي يطرأ على المال الحلال المستطاب المستلذ من مأكول ومشروب ومركوب وملبوس وملموس ومشموم وغير ذلك، ينقسم إلى قسمين:

إما بسبب العقود الفاسدة كعقد الربا ونظائره، وإما بسبب الغصب ونظائره والسرقة والحرابة ونظائر ذلك.

٥ ـ الشبهة وأثرها على الملك:

الشبهة لغة: الاختلاط والالتباس. والمتشابه: ما أشكل تفسيره لمشابهته غيره(٢).

والشبهة اصطلاحا: ما لا ينبيء ظاهره عن مراده.

أو ما لم يتيقن كونه حلالا أو حراماً(٣).

---

(١) انظر «الإحياء ٢/ ١١٩، الحلال والحرام ٦٤، إتحاف السادة المتقين ٦/ ١٩».

(٢) المصباح ٣٠٤، عمدة الحفاظ للحلبي ٢/ ٢٨٤.

(٣) عمدة الحفاظ ٢/ ٢٨٤، التعريفات للجرجاني ١٢٩، قواعد الفقه للبركتي ٣٣٢.

أسباب الاشتباه:

أ ـ تعارض الأدلة ـ ظاهرا.

ب ـ اختلاف العلماء في المسألة ـ وهو متفرع عن الأول.

ج ـ المكروه ـ وهو عائد إلى الأول، لأنه يتجاذبه جانبا الفعل والترك.

د ـ اختلاط الحلال بالحرام وعسر التمييز بينهما ـ وهو عائد إلى الأول أيضا.

ويدل لما قلنا قوله ﷺ «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. الحديث(١).

وقوله ﷺ «لا يعلمهن كثير من الناس» يدل على أن من الناس من يعلم حكمها، وإنما هي مشتبهة على من لم يعلمها، وليست مشتبهة في نفس الأمر، فهذا هو السبب المقتضي لاشتباه بعض الأشياء على كثير من العلماء(٢).

أقسام الشبهات:

قسم العلماء الشبهة إلى ثلاثة أقسام، اتفقوا في اثنين منها، وانفرد الحنفية عنهم في القسم الثالث(٣).

القسم الأول: الشبهة الحكمية: وتسمى شبهة المحل أي الملك.

---

(١) متفق عليه (جامع العلوم والحكم ـ لابن رجب ٥٩).

(٢) جامع العلوم والحكم ٨٩، فتح الباري للعسقلاني ١/ ٧٥٤.

(٣) انظر «الاختيار ٤/ ٩٠، الفروق ٤/ ١٧٢، قواعد الأحكام ٢/ ١٣٧، الأشباه والنظائر لابن نجيم ١٤٢، إيضاح القواعد الفقهية للحجي ٦٢، الموسوعة الفقهية ٢٥/ ٢٤٠.

وسميت حكمية لأن حل المحل ثبت بحكم الشرع. أو شبهة حكم الشرع بحل المحل، لأن نفس حكم الشرع ومحله لم يثبت وإنما الثابت شبهته لكون دليل الحل عارضه مانع، ومن أمثلتها. وطء معتدة الكنايات والوطء في الخلع الخالي عن المال، وسميت هذه الشبهة شبهة الملك لأن الشبهة واردة على كون المحل مملوكاً.

القسم الثاني: هو شبهة الفعل:

وتسمى شبهة اشتباه أي شبهة في حق من حصل له اشتباه، وذلك إذا ظن الحل، لأن الظن هو الشبهة: لعدم دليل قائم تثبت به الشبهة.

والفرق بين شبهة الفعل وشبهة المحل أن الشبهة في شبهة المحل جاءت من دليل حل المحل فلا حاجة فيه إلى ظن الحل.

ومن أمثلة شبهة الفعل: وطء معتدة الثلاث، ووطء معتدة الطلاق على مال، ووطء المختلعة على مال.

أما القسم الثالث عند الجمهور فهو شبهة الطريق، أو شبهة اختلاف الفقهاء، وهي الشبهة الناشئة عن اختلاف الفقهاء بأن يكون أحد المجتهدين قال بالحل، ومثلوا له بالوطء في نكاح بدون ولي.

وانفرد الحنفية بقسم شبهة العقد: وهو ما وجد فيه صورة العقد لا حقيقته، ومثلوا له بمن وطىء محرماً عليه نكاحها بعقد، ولا توجب الحد عند أبي حنيفة، وعند صاحبيه توجبه إن علم الحرمة وعليه الفتوى.

حكم تعاطي الشبهات:

الشبهات على مراتب:

الأولى. ما ينبغي اجتنابه لأن ارتكابه يستلزم ارتكاب الحرام، وهو ما يكون أصله التحريم كالصيد المشكوك في حل اصطياده، فإنه يحرم أكله قبل ذكاته، فإذا شك فيه بقي على أصل التحريم حتى يتيقن الحل.

يدل لهذا حديث عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ﷺ عن المعراض، فقال: «إذا أصاب بحده فكُلْ وإذا أصاب بعرضه فقتل فلا تأكل، فإنه وقيذ، قلت يا رسول الله: «أرسل كلبي وأسمي فأجد معه على الصيد كلباً آخر لم أسم عليه ولا أدري أيهما أخذ، قال: لا تأكل إنما سميت على كلبك ولم تسمّ على الآخر»(١).

الثانية: ما أصله الإباحة كالطهارة إذا استوفيت لا ترفع إلا بتيقن الحدث، يدل له حديث عبد الله بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: «شكى إلى النبي ﷺ الرجل يجد في الصلاة شيئاً أيقطع الصلاة؟ قال: «لا، حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً»(٢).

ومن أمثلته من له زوجة وشك هل طلق فلا عبرة لذلك وهي باقية على عصمته.

الثالثة: ما لا يتحقق أصله ويتردد بين الحظر والإباحة فالأولى تركه، يدل له حديث أنس ـ رضي الله عنه قال: «مر النبي ﷺ بتمرة مسقوطة فقال: لولا أن تكون صدقة لأكلتها»(٣) وإنما ترك ﷺ أكلها تورعاً وليس بواجب، لأن الأصل أن كل شيء في بيت الإنسان على الإباحة حتى يقوم دليل على التحريم.

الرابعة: ما يندب اجتنابه، ومثاله عند بعض الفقهاء اجتناب معاملة من الأقل من ماله حرام.

---

(١) متفق عليه (التلخيص الحبير لابن حجر ٤/ ١٢٥).

(٢) متفق عليه،. ولفظه للبخاري (التلخيص ١/ ١٢٧، فتح الباري رقم ٢٠٥٦).

(٣) متفق عليه (الفتح ٤/ ٣٤٤، موسوعة أطراف الحديث ٦/ ٨٠٢).

قال الحافظ بن حجر، قوله «مسقوطة كذا للأكثر، وفي رواية كريمة «مسقطة» قال ابن التين: مسقوطة بمعنى ساقطة كقوله «حجابا مستورا» أي ساترا (الفتح ٤/ ٣٤٤).

الخامسة: ما يكره اجتنابه ومثاله: اجتناب الرخص الشرعية على سبيل التنطع(١).

مما سبق يتبين لنا أن ما أصله حرام لا يدخل في الملك، ودليل هذا القاعدة المعلومة «ما حرم استعماله حرم اتخاذه(٢)، ويستدل للقاعدة بقوله ﷺ «لعن الله اليهود، إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه»(٣).

وأما بقية الأقسام فيمكن دخولها في الملك، بما في ذلك ما يندب اجتنابه، لأنه مكروه، والمكروه داخل في حيز الجواز(٤).

٦ ـ عدم دخول المال الحرام في الملك:

اتفق الفقهاء على أن ما لا يباح الانتفاع به إلا في حالة الاضطرار، أنه لا يدخل في ملك المسلم، ومثال ذلك الخمر والخنزير والدم.. الخ(٥).

واتفقوا ـ أيضاً ـ على أن المسلم لا يملك مال المسلم باستيلائه عليه أو أخذه منه من غير إذن ـ ويلحق بالمسلم الذمي والمستأمن ـ.

لذا لا يدخل المغصوب ولا المسروق في ملك من حازهما عن هذين الطريقين، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾.. «الآية..»(٦).

---

(١) المنثور للزركشي ٢/٢٢٨، والاختيار ٤/٩٠، مواهب الجليل ٢/٥٢٠، الموسوعة ٢٥/٣٤٢

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ١٠٢، الفوائد الجنية للفاداني ٢/٢٩٣.

(٣) رواه أحمد وأبو داود، وأصله في الصحيحين (الفتح الكبير للنبهاني ٣/١٤، موسوعة الأطراف ٦/٥٩٩).

(٤) الإحياء ٢/١٢١، الحلال والحرام ٧٦، والفوائد الجنيه ٢/٦٠.

(٥) الشرح الكبير للمقدسي ٤/٧، مصادر الحق للسنهوري ٣/٩٣، الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي ٤/٤٤.

(٦) النساء ـ آية ٢٩.

قال القرطبي: من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل، ومن الأكل بالباطل أن يقضي القاضي لك وأنت تعلم أنك مبطل، فالحرام لا يصير حلالاً بقضاء القاضي لأنه إنما يقضي بالظاهر وهذا إجماع في الأموال(١).

وقال أيضاً: اتفق اهل السنة على أن من أخذ ما وقع عليه اسم مال قل أو كثر أنه يفسق بذلك، وأنه محرم عليه أخذه(٢).

وألحق الغزالي المأخوذ حياء بالمغصوب، حيث قال: من طلب من غيره في الملأ، فدفعه إليه بباعث الحياء لم يملكه، ولا يحل له التصرف فيه: وهو من باب أكل أموال الناس بالباطل، فليحذر، ووافقه على ذلك فقهاء الشافعية والحنابلة(٣)

واتفق الفقهاء ـ أيضاً ـ على أن المال المكتسب من طريق غير مشروع محرم ولا يدخل تحت الملك. وذلك كالربا والقمار وأجر البغاء.. الخ، وهو داخل تحت قوله تعالى. ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾(٤).

واتفق العلماء على أن البيع الباطل لا ينقل الملك في العوضين، والإقدام عليه مع العلم به حرام، ويأثم فاعله لعدم امتثاله أمر الشارع، مع استثناء حالة الضرورة.

٧ ـ البيع الباطل والبيع الفاسد:

يفرق الحنفية بين البيع الباطل والبيع الفاسد، بينما الجمهور يجعلونهما شيئاً واحداً.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٣٣٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٢٤٠، وانظر «الزواجر للهيتمي ١/ ٢٢٠، الحلال والحرام ٦٤، كتاب الأموال للداودي ٨٢).

(٣) نهاية المحتاج ٥/ ١٤٤، حاشية الجمل ٣/ ٤٦٩، مطالب أولى النهي ٤/ ٣٨٠ .

(٤) البقرة ـ آية ١٨٨ . انظر (القرطبي ٢/ ٣٣٨، ٥/ ١٥٠، الإحياء ٢/ ١٢٦).

فالبيع الباطل ـ عند الحنفية ـ ما لم يشرع لا بأصله، ولا بوصفه، أما البيع الفاسد ـ عندهم ـ فهو ما شرع بأصله دون وصفه.

والفاسد ـ عند الحنفية ـ يترتب عليه أثره ولكن يطلب التفاسخ ـ شرعا، كما أنه يفيد الملك بالقبض، والباطل لا يفيده ـ أصلاً.

ويشترط الحنفية لإفادة البيع الفاسد الملك قبض المشتري للمبيع بإذن البائع ـ صريحاً أو دلالة.

كما إذا قبضه في المجلس وسكت البائع، فيجوز للمشتري التصرف في المبيع، ببيع أو هبة أو صدقة أو إجارة ونحو ذلك، إلا الانتفاع فلا يجوز.

قال ابن عابدين: إذا ملكه ثبت له كل أحكام الملك إلا خمسة: لا يحل له أكله، ولا لبسه، ولا وطؤها ـ إن كان المبيع أمه ـ ولا أن يتزوجها منه البائع، ولا شفعة لجاره لو عقاراً(١).

واستدل الحنفية لجواز التصرف في المبيع فاسدا بحديث عائشة رضي الله عنها، حيث ذكرت لرسول الله ﷺ أنها أرادت أن تشتري بريرة، فأبى مواليها أن يبيعوها إلا بشرط أن يكون الولاء لهم، فقال لها خذيها واشترطي لهم الولاء فإن الولاء لمن أعتق، فاشترتها مع شرط الولاء لهم(٢). فأجاز العتق مع فساد البيع بالشرط.

ولأن ركن التمليك، وهو قوله: بعت واشتريت، صدر من أهله، وهو

---

(١) البدائع ٥/ ٢٠٤، ابن عابدين ٤/ ١٠٠، ١٢٤، منح الجليل ٢/ ٥٥٠، نهاية المحتاج ٣/ ٤٢٩، منتهى الإرادات ٢/ ١٥٥.

(٢) متفق عليه «المحرر في الحديث/ لابن عبد الهادي رقم ٨٤٢».

المكلف المخاطب مضافا إلى محله وهو المال عن ولاية، إذ الكلام فيهما، فينعقد لكونه وسيلة إلى المصالح، والفساد لمعنى يجاوره، كالبيع وقت النداء، والنهي لا ينفي الانعقاد بل يقرره، لأنه يقتضي تصور المنهي عنه والقدرة عليه، لأن النهي عما لا يتصور، وعن غير المقدور قبيح، إلا أنه يفيد ملكا خبيثاً لمكان النهي(١).

واختلف علماء الحنفية في كيفية حصول الملك والتصرف في المبيع بيعا فاسدا.

قال بعضهم: إن المشتري يملك التصرف فيه باعتبار تسليط البائع له، لا باعتبار تملك العين، ولهذا لا يجوز أكل طعام اشتراه شراء فاسدا

وذهب بعضهم إلى أن جواز التصرف بناء على ملك العين، واستدلوا بما إذا اشترى دارا بشراء فاسد وقبضها، فبيعت بجنبها دار، له أن يأخذها بالشفعة لنفسه، ولو لم يملكها لما استحق الشفعة.

لكن لا تجب فيه شفعة للشفيع وإن كان يفيد الملك، لأن حق البائع لم ينقطع(٢). أي لأن لكل من البائع والمشتري الفسخ.

٨ ـ سبب الخلاف:

وأساس منشأ الخلاف بين الحنفية والجمهور راجع إلى قاعدة أصولية، اختلف الفريقان فيها، وهي: هل النهي يقتضي فساد المنهي عنه مطلقا أو فيه تفصيل»(٣).

---

(١) الاختيار ٢/٢٢، البدائع ٥/٣٠٤ .

(٢) تبيين الحقائق للزيلعي ٤/ ٦٢، حاشية الرامفوري على البناية ٦/ ٣٧٧.

(٣) المستصفى ٢/ ٢٤، فواتح الرحموت ١/ ٣٩٦، الفروق للقرافي ٢/ ٨٢، المنثور للزركشي ٣/ ٢١ الموافقات للشاطبي ١/ ٢٩٢، الملكية ونظرية العقد لأبي زهرة ٤٠٩، التمهيد للكلوذاني ١/ ٣٦٩

فذهب الجمهور من العلماء إلى أن النهي يقتضي فساد المنهي عنه، سواء كان النهي لذات المنهي عنه كالنهي عن بيع المعلوم، او لوصف لازم له كالبيع بشرط عقد آخر وبيع درهم بدرهمين. وأما النهي عن شيء لوصف غير ملازم له كالنهي عن البيع وقت صلاة الجمعة، فلا يوجب فساد العقد إلا عند الحنابلة.

وذهب الحنفية وعامة المتكلمين إلى التفرقة بين النهي المتجه إلى الذات، وبين النهي المتجه إلى الوصف الملازم. فوافقوا الجمهور في أن الأول يقتضي البطلان.

اما الثاني فذهب جمهور المتكلمين إلى انه لا يقتضي الفساد.

قال الآمدي: وهو اختيار المحققين من أصحابنا كالقفال وإمام الحرمين والغزالي وكثير من الحنفية. وبه قال جماعة من المعتزلة كأبي عبدالله البصري، وأبي الحسن الكرخي والقاضي عبدالجبار وأبي الحسين البصري وكثير من مشايخهم(١).

قال الحنفية: إنه يدل على فساد ذلك الوصف، لا فساد المنهي عنه، وهو الأصل لكونه مشروعا بدون الوصف، فلا يلزم من قبح الوصف قبح الأصل، فيكون مشروعا بأصله، غير مشروع بوصفه، فيصير فاسداً، لأن الفساد عبارة عن فائت الوصف دون الأصل، كالفاسد من اللؤلؤ، اذا اصفر وانكدر(٢).

٩ ـ الترجيح:

* والمختار ـ عندي والله أعلم ـ رجحان مذهب الحنفية لقوة أدلتهم،

---

(١) الاحكام في اصول الأحكام ٢ ١٨٨، وانظر «تحقيق المراد للعلاني ٢٨٥، البحر المحيط للزركشي ٢/ ٤٣٩».

(٢) التلويح على التوضيح ١/ ٣٩٤ + المراجع السابقة.

ولأن الجمهور يفرقون بين الباطل والفاسد في الحج(١)، مما يدل على أن هناك فرقا بين الفساد والبطلان.

ونقل الزركشي عن الشافعية أنهم يفرقون بين الباطل والفاسد في الخلع والكتابة والعارية ـ أيضاً ـ وألحق بها الشيخ زين الدين الكتاني ـ أيضاً ـ الوكالة والإجارة وعقد الجزية والعتق(٢).

وكذا فرق الشافعية والحنابلة في الشركات بين العقد والفاسد والباطل.

قال ابن قدامة ـ رحمه الله ـ ومتى اشترط فاسدا يعود بجهالة الربح فسدت المضاربة. لأن الفساد لمعنى في العوض المعقود عليه فأفسد العقد، كما لو جعل رأس المال خمرا أو خنزيرا، ولأن الجهالة تمنع من التسليم فتفضي إلى التنازع والاختلاف ولا يعلم ما يدفعه إلى المضارب. وما عدا ذلك من الشروط الفاسدة فالمنصوص عن أحمد ـ في أظهر الروايتين عنه ـ أن العقد صحيح ـ ذكره عنه الأثرم وغيره ـ لأنه عقد يصح على مجهول فلم تبطله الشروط الفاسدة كالنكاح والعتق والطلاق(٣).

وفرق المالكية والشافعية بين القراض الفاسد والقراض الباطل، فرد المالكية توزيع الأرباح في القراض الفاسد إلى قراض المثل.

قال القرافي: إن أسباب الفساد إذا تأكدت في القراض أو غيره بطلت حقيقة المستثنى بالكلية فتتعين الإجارة، وإذا لم تتأكد اعتبرنا القراض، ثم يبقى النظر بعد ذلك في المفسد هو متأكد أم لا نظراً في تحقيق المناط.

---

(١) المجموع ٧/ ٣٨٨، شرح العمدة ـ ابن تيمية ٢/ ٢٢٧.

(٢) انظر التفصيل في المنثور للزركشي ٣/ ٧، ٨.

(٣) المغني ٥/ ١٨٧، وانظر «الأشباه والنظائر للسيوطي ١٧٨».

ولم يعترض عليه ابن الشاط كعادته، ونقله محمد علي المالكي وأقره(١).

وأما الرد على أدلة الجمهور فمبسوط في كتب الأصول والفقه، ولا داعي لذكره هنا(٢).

* ننتهي من ذلك كله أن المبيع بيعا فاسدا يدخل في الملك إذا تم التقابض بإذن البائع، وكذا إذا تصرف فيه المشتري تصرفا يخرج فيه المبيع عن ملك المشتري كالهبة والوقف وجعله مهرا...إلخ.

وهو مذهب الحنفية(٣)، ووافقهم المالكية في حال التصرف.

قال في تبيين المسالك: فإن فات المبيع فاسدا بيد المشتري، مضى المختلف في منعه بين العلماء ـ ولو خارج المذهب ـ بالثمن، ومضى المتفق على منعه بالقيمة يوم القبض.

والفوات يكون بتغير سوق غير المثلي والعقار، وبطول زمان حيوان كشهر، ونقل لمحل بكلفة، وتغير ذات وإن بسمن أو هزال، وبالوطء، وبالخروج عن اليد كبيع صحيح، أو تعلق حق للغير كرهن أو إجارة(٤).

ومعنى هذا أن عوض المقبوض في بيع فاسد في حال التصرف فيه يدخل في ملك المشتري الأول ـ الذي تصرف في المبيع(٥).

---

(١) انظر «الفروق ٤/ ١٥، تهذيب الفروق ٤/ ٣٣، الأشباه للسيوطي ١٧٨».

(٢) انظر على سبيل المثال «بذل النظر للأسمندي ١٥٢، أصول السرخسي ١/ ٨٧، المستصفى ٢/ ٢٥، التلويح والتوضيح ١/ ٣٩٦، فواتح الرحموت ١/ ٣٩٦، المحصول ٢/ ٤٨٨».

(٣) ابن عابدين ٤/ ١٢٦، تبيين الحقائق ٤/ ٦٤.

(٤) تبيين المسالك ٣/ ٣٥٦ بتصرف، وانظر «الدسوقي ٣/ ٧٢».

(٥) وانظر «مصادر الحق ٤/ ١٦٩».

١٠ ـ حكم الرشوة :

* اتفق العلماء على أن الرشـوة محرمة بالنسبة للـراشي والمرتشي، لقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالبـاطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾(١).

ولما ورد في الحديث «لعن رسول الله ـ ﷺ ـ الراشي والمرتشي» وفي رواية زيادة «والرائش»(٢).

وأجـاز جمهور العلماء للإنســان أن يدفع رشوة للحصــول على حق، أو لدفع ظلم أو ضرر، ويكون الإثم على المرتشي دون الراشي(٣).

ونقل تقي الدين السبكـي في فتـاواه الإجماع على أن المرتشي لا يملك مـا يأخذه من رشــوة. وعُـدَّ من هذا القبيل ما يعطاه الحاكم والقـاضي كهدية ممن لم يتعود إهداءَه من قبل الولاية(٤).

١١ ـ عطايا الحكام :

اختلف العلماء في الأخذ من عطايا الحكام والسلاطين:

فـذهبت طائفـة من السلف إلى أنه حلال ولا بأس بـه، واختارت طائفـة أخرى كراهته لما فيه من شبهة، وذهبت طائفة من العلماء إلى حرمته.

---

(١) البقرة: ١٨٨.

(٢) رواه أحمد وأصحـاب السنن، والزيادة عنـد أحمد في المسند «نيل الأوطار ٨/ ٢٠٠»، والراشي دافع الرشوة، والمرتشي: قابضها، والرائش: الذي يمشي بينهما «المصدر السابق».

(٣) انظر الموسوعة الفقهية ٢٢/ ٢٢٢ والمراجع المذكورة هناك.

(٤) انظر الموضوع بالتفصيل «فتـاوي السبكي ١/ ٢٠٣، الملكية للعبـادي ٢/ ٣، تحقيق القضية للنابلسي ١٧٥».

قال الحارث المحاسبي وهذه الفرقة مخالفة للسنة، وأكثر العلماء نافون لهم لجهلهم(١).

وقال ـ أيضـا ـ : ـ وأما الذين حرموا العطايا من السـلاطين، فقد غلطوا لعلة أنه ليس بحرام كله. فكيف أن يقال: حرام، وفيه درهم حلال(٢)

وقـد فصل الغـزالي ـ رحمه الله ـ في الموضوع تفصيـلا حسنا بين فيـه مداخل هذه الأموال إلى يد السلطان. وصفتهـا، ومقدارها الخ وقد تبعه على هذا التقسيم أكثر العلماء(٣).

وخلاصـة ما في المسالة أن الحكم للأغلب فإن غلـب الحلال على ما في يد السلطان جاز الأخذ منه، وإن غلب الحرام على ما في يده لم يأخذ. إلا إذا علم أن ما يعطاه من الحلال.

قـال الحـارث المحـاسبي ـ رحمه الله ـ . ومـن قصـد ترك أمـوالهم من الجوائز والعطيـات والهدايا والصلات والسـؤال لهم، فقد أتى فضـلا وقربة، يؤديه بلوغ تلـك المراتب إلى أعظم منازل الخواص من المسلمين. والدخـول في مـرتبـة أهل الصفـوة من العمال لأنـا قـد رأينا كثيرا من العلماء ليس معهم السعة في العلم ومعـهم ضـيق في التفـقه في الدين، وقلة رواية في الحديث، إلا أن المرتبـة في الترك جعلت لهم ذكـرا عند الخاصـة والعـامـة على فضلهم، وأورثتـهم هذه المنزلة شدة المبـاينة وعظيم الحذر من مـواقعة الشبهـات، لما ركب في القلوب الخشـية وخـوف السـؤال عند العـرض على الجبـار تبـارك

---

(١) المكاسب ٨٩، وانظـر «الإحيـاء ٢/ ١٧٢، إتحاف السـادة المتقين ٦/ ١٠٩، الحلال والحرام للوليـدي ٢٨٦، غذاء الجلبـاب ١/ ٣٩١، الآداب الشرعية لابن مفلح ١/ ٤٤١، قـوت القلوب للمكي ٢/ ٢٩٠».

(٢) المكاسب ٩٢

(٣) انظر المراجع السابقـة + تحرير المقال للبلاطنسي ٨٦ ومـا بعدها، والموضوع يحتـاج بعد إلى بحث مفصل ـ نرجو الله أن يهيىء لنا ذلك مستقبلاً

وتعالى، وحملهم الحذر على خوف معالجة الموت، لأن أول ما يأكل التراب من ابن آدم لحمه، فلا يكون ذلك في نباته إلا من طيب، فإن الله عز وجل لا يقبل إلا طيبا(١).

١٢ ـ رد الأموال المحرمة إلى أصحابها:

اتفق الفقهاء على وجوب رد الأموال المكتسبة من طرق محرمة إلى أصحابها ـ إن عرفوا ـ أو لورثتهم ـ إن ماتوا ـ وإذا تلفت ضمنوا قيمتها ـ إن كانت قيمية ـ أو مثلها إن كانت مثلية ـ أما إذا جهل ملاكها فمن العلماء من يرى أنه يجب التصدق بها عن أصحابها، أو تصرف في مصالح المسلمين، ومنهم من يرى أنها تستحق لبيت المال، لتصرف في مصالح المسلمين بمعرفة الإمام.

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ:

قال علماؤنا إن سبيل التوبة مما بيده من الأموال الحرام إن كانت من ربا فليردها إلى من أربى عليه، ويطلبه إن لم يكن حاضرا، فان أيس من وجوده فليتصدق بذلك عنه. وإن أخذه من ظلم فليفعل كذلك في أمر من ظلمه. فإن التبس عليه الأمر ولم يدركم الحرام من الحلال مما بيده، فإنه يتحرى قدر ما بيده مما يجب عليه رده، حتى لا يشك أن ما يبقى قد خلص له، فيرد من ذلك الذي أزال عن يده إلى من عرفه ممن ظلمه أو أربى عليه. فإن أيس من وجوده تصدق له عنه. فإن أحاطت المظالم بذمته وعلم أنه وجب عليه من ذلك ما لا يطيق أداءه أبدا لكثرته، فتوبته أن يزيل ما بيده أجمع إما إلى المساكين وإما إلى ما فيه صلاح المسلمين، حتى لا يبقى في يده إلا أقل ما يجزئه في الصلاة من اللباس،، وهو ما يستر العورة وهو من سرته إلى ركبتيه، وقوت يومه، لأنه الذي يجب له أن يأخذه من مال غيره إذا اضطر إليه، وإن كره ذلك من يأخذه

(١) المكاسب ٩١.

منه. وفارق هاهنا المفلس في قول أكثر العلماء، لأن المفلس لم يصر إليه أموال الناس باعتداء، بل هم الذين صيروها إليه، فيترك له ما يواريه وما هو هيئة لباسه. وابو عبيد وغيره يرى ألا يترك للمفلس من اللباس إلا أقل ما يجزئه في الصلاة وهو ما يواريه من سرته إلى ركبته، ثم كلما وقع بيد هذا شيء أخرجه عن يده ولم يمسك منه إلا ما ذكرنا، حتى يعلم هو ومن يعلم حاله أنه أدى ما عليه.(١).

وقال ابن رجب الحنبلي ـ رحمه الله:

من بيده مال أو في ذمته دين يعرف مالكه ولكنه غائب يرجى قدومه، فليس له التصرف فيه دون إذن الحاكم، إلا أن يكون تافها فله الصدقة به عنه، نص عليه في مواضع. وإن كان قد أيس من قدومه بأن مضت مدة يجوز فيها أن تزوج امرأته ويقسم ماله وليس له وارث، فهل يجوز التصرف في ماله بدون إذن الحاكم؟ قد يتخرج على وجهين، أصلهما الروايتان في امرأة المفقود، هل تتزوج بدون إذن الحاكم أم لا؟ في رواية صالح جواز التصدق به، ولم يعين حاكما، وإن لم يعرف مالكه بل جهل جاز التصدق به عنه بشرط الضمان بدون إذن الحاكم قولاً واحداً على أصح الطريقين، وعلى الثانية فيه روايتان، وهي طريقة القاضي في كتاب الروايتين، وفي موضع من المجرد، وجزم في موضع آخر منه بتوقف التصرف على إذن الحاكم، والأولى أصح. (٢).

١٣ ـ أثر التصرف في الأموال المحرمة.

التصرف في ملك الآخرين إما فعلي، وإما قولي بطريق التعاقد.

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ٣/٣٦٦

(٢) القواعد لابن رجب ٢٢٩، ولمزيد من التفصيل انظر (الإحياء ٢/١٦٦، الحلال والحرام ٢١١، قواعد الأحكام ١/ ٧٠، الفتاوي الكبرى لابن تيمية ٤/٢٠٩).

أ ـ فالتصرف الفعلي في ملك الآخرين، بالأخذ أو الاستهلاك، أو الحفر في الأرض ونحو ذلك، دون إذن يعدّ تعدياً، والمتصرف في حكم الغاصب ضامن للضرر.

وقد يكون مصدر الإذن الشرع أو العرف، كما لو ذبح الراعي شاة أصيبت ولا ترجى حياتها، فإنه لا يضمن.

ب ـ وأما التصرف القولي بطريق التعاقد، كبيع مال الآخرين أو هبته أو رهنه أو إجارته او إعارته أو إيداعه أو غير ذلك ففيه تفصيل:

فإن أعقبه من التصرف تنفيذ بالتسليم اصبح تصرفاً فعلياً، وأخذ حكم الغصب، وإن بقى تصرفه في حيز القول كان فضولاً(١).

* وقد بينا في الفقرة «٩» أن المقبوض في البيع الفاسد بإذن البائع، وكذلك إذا تصرف فيه المشتري تصرفاً يخرجه عن يده، فإنهما يدخلان في ملك المشتري.

* أما المقبوض في بيع باطل فلا يدخل في ملك مشتريه.

قال الكاساني: ولا حكم لهذا البيع ـ الباطل ـ أصلا، لأن الحكم للموجود، ولا وجود لهذا البيع إلا من حيث الصورة لأن التصرف الشرعي لا وجود له بدون الأهلية والمحلية شرعاً، كما لا وجود للتصرف الحقيقي إلا من الأهل في المحل حقيقة، وذلك نحو بيع الميتة والدم والعذرة والبول وبيع الملاقيح والمضامين وكل ما ليس بمال، وكذا بيع أم الولد والمدبر والمكاتب والمستسعي، لأن أم الولد حرة من وجه وكذا المدبر فلم يكن مالاً مطلقاً، والمكاتب حر يدا فلم يكن مالا على الإطلاق، والمستسعى عند ابي حنيفة بمنزلة المكاتب وعندهما حر عليه دين، وكذا بيع الخنزير من المسلم، لأنه ليس بمال

(١) شرح المجلة للأتاسي ١/٢٦٢ . شرح القواعد الفقهية للزرقا ٤٦١، المدخل الفقهي العام للزرقا ١٠٣٨/٢.

في حق المسلم، وكذا بيع الخمر لأنها ليست بمتقومة في حق المسلم، لأن الشرع أسقط تقومها في حق المسلمين، حيث أهانها عليهم، فيبطل ولا ينعقد، لأنه لو انعقد، إما أن ينعقد بالمسمى، وإما أن ينعقد بالقيمة، لا سبيل إلى الأول: لأن التسمية لم تصح، ولا سبيل إلى الثاني، لأنه لا قيمة إذ التقويم ينبني على العزة، والشرع أهان المسمى على المسلم فكيف ينعقد بقيمته ولا قيمة له، وإذا لم ينعقد يبطل ضرورة(١).

أما المالكية فإنني أرى أن مذهبهم يحتاج إلى شيء من التفصيل والتوضيح، بعد عرض كلام أئمتهم.

قال ابن رشد الحفيد: اتفق العلماء على أن البيوع الفاسدة إذا وقعت ولم تفت بإحداث عقد فيها أو نماء أو نقصان أو حوالة سوق أن حكمها الرد. أعنى أن يرد البائع الثمن والمشتري المثمون. واختلفوا اذا قبضت وتصرف فيها بعتق أو هبة أو بيع أو رهن أو غير ذلك من سائر التصرفات، هل ذلك فوت يوجب القيمة؟ وكذلك إذا نمت أو نقصت.

قال الشافعي: ليس ذلك كله فوتا، ولا شبهة ملك في البيع الفاسد، وأن الواجب الرد.

وقال مالك كل ذلك فوت يوجب القيمة، إلا ما روى عنه ابن وهب في الربا أنه ليس بفوت. ومثل ذلك قال أبو حنيفة.

والبيوع الفاسدة عند مالك تنقسم إلى محرمة والى مكروهة.

فأما المحرمة فإنها إذا فاتت مضت بالقيمة.

وأما المكروهة فإنها إذا فاتت صحت عنده، وربما صح عنده بعض البيوع الفاسدة بالقبض لخفة الكراهة عنده في ذلك.

---

(١) البدائع ٥/ ١٣٥، وانظر شرح المجلة للاتاسي ٢/ ٣٥٨

فالشافعيـة تشبه البيع الفاسد لمكان الربا والغرر بالفاسد لمكان تحريم عينه كبيع الخمر والخنزير، فليس عندهم فيه فوت، فإذا فـاتت السلعة فالعدل فيها هو الرجوع.

ومالك يرى أن النهي في هذه الأمور إنما هو لمكان عـدم العدل فيها، أعني بيوع الربا والغرر، فإذا فاتت السلعة فالعدل فيها هو الرجوع بالقيمة، لأنه قد تقبض السلعـة وهي تسـاوي ألفـا وترد وهي تسـاوي خمسمائـة أو بالعكس.(١).

وظاهر عبـارات المصنفين في الفقـه المالكي أنه يستـوي في الحكم ـ هنا ـ البيع الفاسد، الذي اختل ركن من أركانه، والذي اختلت صفة من صفاته، وكذا فهم بعض المعاصرين(٢).

ولكنني وقفـت على نص من المدونـة يفهم منه أن المقصـود مـن البيع الفاسد الذي يصحح بالفوات، هو البيع الذي اختلت صفة من صفاته.

قال سحنون ـ رحمه الله ـ (قلت) فبما فـرق مالك بين البيع الفـاسد إذا حـالت عنـد المشـتري بنقصـان بدن أو بزيـادة بـدن أو زيـادة سـوق أو نقصـان سـوق أو ولادة، لم يـكن له أن يردها ويرجع على بائعهـا بالثمن إلا أن يرضـى البـائع والمشتري بالرد، وبين الذي اشترى بيعاً صحيحاً وقـد نقصـت بسوق تغير بزيـادة أو نقصـان، أو أصـابها عيب غير مفسد كان له أن يرد في قـول مـالك ولا شـيء على المشـتري في ذلك. (قلت) فبم فـرق مالك بين هذين؟

(قال) لأن البيع الحرام هو بيع وإن كانا قـد أخطآ فيه وجه العمل، فهو ضامن، وقد باعـه البائع ولم يدلس له عيباً وأخذ للجـارية ثمنا، فلما كان ذلك

---

(١) بداية المجتهد ٧/ ٢٧٠، وانظر فقرة «٩».

(٢) انظر «مصادر الحق ٤/ ١٣٤، الموسوعة الفقهية ٩/ ٥٧».

البيع مردوداً إن أصاب الجارية بحال مـا أخذت منه ردت عليه، فأما إن تغيرت فليس له أن يرد، لأنه ليس له أن يأخـذ منه جارية صحيحـة ويردها معيبة، أو يأخذها وقيمتهـا ثلاثون ديناراً فتحول سوقهـا فيردها وقيمتها عشرة دنانير، فيذهب من مـال البائع بعشرين ديناراً، أو تنمو في بدنها وقد كـان لها ضامنا، فيأخـذ البائع من المشتري زيادة قيمتهـا عشرين ديناراً أو ثلاثين ديناراً، وإنما كانت الزيادة في ضمان غيره، وإنما أخطأ في العمل فلزمتـه قيمتها يوم قبضها، وإنما العيب أمـر كان سببـه من البائـع ولم يكن سببه من قبل المبتـاع، فلذلك ردها، وكان ما أصـابها من عيب يسير من حمى أو رمد أو ضرر جسم أو عيب يسير لا يكون مفسداً، فليس على المشتري فيه شيء إلا أن يكون كبيراً فاحشاً أو عيباً مفسدا مثل العور والقطع والصمم وما أشبهها، فذلك حينئذ يكون المبتاع بالخيـار إن شاء ردها ومـا نقص العيب منهـا، وإن شاء امسكهـا وأخذ قيمـة العيب من الثمن، إلا أن يقول البائع أنا آخذها ناقصة وأدفع إليك الثمن كله، فلا يكون للمبتاع ههنا حجة في حبسهـا، إلا أن يحبسها ولا يرجع على البائع بشيء أو يردها ولا شيء له عليه (قلت) وكل هذا قول مالك قال: نعم(١).

فقـول ابن القـاسم ـ رحمـه الله ـ «لأن البيـع الحرام هو بيع ـ وإن كـانا أخطأا وجـه العمل». يـدل على أن العـقد مستكمل الأركـان، ولكن العـاقديـن قد أخطأا وجـه العمل فيه. أما العقـد الذي اختـل أحد أركانـه فلا وجود له.

وكـذا من تتبع تمثيل المالكيـة في البيـوع الفـاسـدة يمكننا أن نرجح أن المقصود بالبيع الفاسـد، الذي يصح بالفوت قريب من مفهـومه عند الحنفية ـ والله أعلم.(٢).

---

(١) المدونة ٤/١٤٧.

(٢) انظر الشرح الصغير ٤/١١١ وما بعدها، كفاية الطالب الرباني ٣/٢١٠ ومـا بعدها، المدونة ٤/١٤٥ وما بعدها.

وبعد هذا الفهم قول ابن رشد السابق «ومثل ذلك قال أبو حنيفة» أي مثل قول مالك.

١٤ ـ تصرفات الفضولي:

الفضولي ـ بضم الفاء ـ وهو لغة: المشتغل بما لا يعنيه.

وفي اصطلاح الفقهاء: من يتصرف في حق غيره بغير إذن شرعي، كالأجنبي يزوج أو يبيع(١).

ويجب أن يلحظ ـ في هذا المقام ـ أن الفضول لا يكون إلا في حدود التصرف القولي، أما اذا أعقب التصرف القولي ـ بطريق الفضول ـ تنفيذ فعلي، كما لو باع شخص ملك غيره وسلمه إلى المشتري، فإنه عندئذ يصير غاصباً، ويأخذ عمله حكم الغصب(٢).

وبيع الفضولي حرَ. لأنه تصرف في مال الآخرين، يعدّ تعدياً على حقوق الآخرين. جاء في المجلة العدلية «ولا يجوز لأحد أن يتصرف في ملك الآخرين بلا إذنه».

وصرح المالكية بأن بيع الفضولي بلا مصلحة للمالك حرام، أما إن باع للمصلحة كخوف تلف أو ضياع فغير حرام، بل ربما كان مندوباً إليه.

وهو تفريق حسن، وهو موافق لما عند الجمهور في الوديعة عند خوف تلفها ـ والله أعلم(٣).

---

(١) المغرب للمطرزي ٢/١٤٢، الكليات لأبي البقاء ٣/٣٣٢، الشلبي على تبيين الحقائق ٤/١٠٣

(٢) شرح القواعد للزرقا ٤٦٢ ، المدخل الفقهي العام للزرقا ١/٤٢٥.

(٣) درر الحكام لحيدر ١/٨٥، شرح المجلة للأتاسي ١/٢٦٢، مواهب الجليل ٤/٢٧٠، التاج والإكليل ٤/٢٦٩، تحفة المحتاج للهيتمي ٤/٢٤٦، كشاف القناع للبهوتي ٣/١٥٧، الإنصاف للمرداوي ٤/٢٨٣.

ويصح بيع الفضولي ـ باتفاق ـ إذا كان المالك حاضرا، وأجاز البيع: ويصير حكمه حكم بيع الوكيل. كما اتفقوا على أنه لا يصح بيعه إذا كان المالك غير أهل للإجازة، كالصبي والمجنون(١).

واختلفوا في حكم بيع الفضولي إذا كان المالك أهلاً للتصرف، وبيع ماله وهو غائب، أو كان حاضراً وبيع ما له وهو ساكت.

فمذهب الحنفية والمالكية، والشافعي في القديم وإحدى الروايتين في الجديد، وأحمد في إحدى الروايتين، أن البيع صحيح، إلا أنه موقف على إجازة المالك.

والمذهب عند الشافعية والحنابلة أن البيع باطل.(٢).

هذا من حيث الجملة، وللفقهاء شروط تنظر في مظانها(٣).

والراجح عندي ـ والله أعلم ـ مذهب الحنفية والمالكية، وهو أن بيع الفضولي يصح، ويتوقف نفاذه على إذن المالك ـ ودليله حديث عروة البارقي «أن رسول الله ﷺ بعث معه بدينار يشتري له أضحية، وقال مرة: أو شاة، فاشترى له اثنتين، فباع واحدة بدينار، وأتاه بالأخرى، فدعا له بالبركة في بيعه، فكان لو اشترى التراب لربح فيه».(٤).

قال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ إن صح الحديث قلت به.(٥)

وقد صح الحديث، لأنه من رواية البخاري.

---

(١) المراجع السابقة + الموسوعة الفقهية ٩/١١٧.

(٢) المراجع السابقة + ابن عابدين ٤/١٢٦..

(٣) المراجع السابقة.

(٤) رواه البخاري وغيره «المحرر في الحديث رقم ٩٠٦»، وانظر شرحه في «فتح الباري ٦/٧٣٣، عمدة القاري ١٦/١٦٥، إعلاء السنن ١٤/١٥٢.

(٥) الفتح ٦/٧٢٣

قال الحافظ ابن حجر: وهذا بحث قوي يقف به الاستدلال بهذا الحديث عن تصرف الفضولي ـ والله أعلم.

ووجه الاستدلال بالحديث أن رسول الله ﷺ أجاز هذا البيع، ولو كان باطلاً لرده، وأنكر على من صدر منه(١).

ويستدل له ـ أيضاً ـ بحديث الثلاثة النفر الذين حبسوا في الغار(٢)، وترجم له البخاري «إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي(٣).

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله :

هذه الترجمة معقودة لبيع الفضولي، وقد مال البخاري فيها إلى الجواز ـ وأورد فيه حديث ابن عمر في قصة الثلاثة الذين انحطت عليهم الصخرة في الغار، وموضع الترجمة منه قول أحدهم «إني استأجرت أجيراً بفرق من ذرة فأعطيته فأبى، فعمدت إلى الفرق فزرعته حتى اشتريت منه بقرا وراعيها» فإن فيه تصرف الرجل في مال الأجير بغير إذنه، ولكنه لما ثمره له ونماه وأعطاه أخذه ورضي، وطريق الاستدلال به ينبني على أن شرع من قبلنا شرع لنا، والجمهور على خلافه والخلاف فيه شهير، لكن يتقرر بأن النبي ﷺ ساقه مساق المدح والثناء على فاعله وأقره على ذلك، ولو كان لا يجوز لبينه؛ فبهذا الطريق يصح الاستدلال به لا بمجرد كونه شرع من قبلنا(٤).

وأما ما استدل به الشافعية والحنابلة من قوله ﷺ «لا تبع ما ليس عندك» فمردود عليه بأن معناه: لا تبع ما ليس عندك أصلاً، أي لا تملكه لا

---

(١) المراجع السابقة + تبيين الحقائق ٤/١٠٣

(٢) متفق عليه «رياض الصالحين رقم ١٢».

(٣) فتح الباري ٤/٤٧٧ .

(٤) فتح الباري ٤/٤٧٧ .

أصالة ولا يدا، وليس معناه لا تبع ما لا تملكه أصالة، وإن كان بيدك وكالة، فلا يصح استدلالهم به على بطلان. بيع الفضولي، والدليل عليه أنه لا يدخل فيه بيع الوكيل إجماعاً(١).

ويترتب على القول بصحة بيع الفضولي دخول العوضين في ملك كل من البائع والمشتري ـ والله أعلم.

١٥ ـ قاعدة :

وهنا نذكر قاعدة تفيدنا في البحث وغيره، وهي:

إن البيع المختلف في بطلانه بين المذاهب بأن كان باطلاً في مذهب وغير باطل في مذهب آخر. كبيع الفضولي، وبيع المعطاة، وبيع الكلب المأذون في اتخاذه، فإن المقدم عليه إن كان مجتهداً قد بلغ رتبة الاجتهاد فلا يعدّ البيع باطلاً في حقه، ولا إثم عليه، لأنه تحري قصد الشارع ببذل الجهد، حتى وصل إلى دليل يرشده، بحيث لو ظهر له خلاف ما رآه بدليل أقوى لرجع إليه، والمخطئ في اجتهاده لا يعاقب، بل يكون معذوراً ومأجوراً، إلا أنه يستحب الخروج من الخلاف، بمعنى أن من يعتقد جواز الشيء، فإنه يستحب له تركه إن كان غيره يعتقده حراماً.

والمقلد كذلك يأخذ حكم المجتهد في سقوط الإثم عنه، ما دام مقلدا لإمامه تقليدا سائغاً.

والعامي ينبغي له أن يستفتي من غلب على ظنه أنه من أهل العلم والدين والورع، وإن اختلف عليه العلماء أخذ بقول أعلمهم وأورعهم وأغلبهم صوابا في قلبه، ولا يتخير ما يميل إليه هواه، لأن ذلك يؤدي إلى تتبع رخص المذاهب من غير استناد إلى دليل، وقال قوم: لا يجب ذلك عليه، لأن الكل طرق إلى الله.

---

(١) انظر (إعلاء السنن للتهانوي ١٤/ ١٥١، إيثار الإنصاف لسبط ابن الجوزي ٣٠٨)

وكذا إذا حكم الحاكم بصحته صح العقد قضاء ـ حتى عند من يقول ببطلانه؛ لأن حكم الحاكم يرفع الخلاف(١).

١٦ ـ أثر التصرفات الفعلية في الأموال المحرمة :

أ ـ بينا في الفقرة «١٣» أن أي تصرف فعلي في ملك الآخرين دون إذن شرعي مسبق يعدّ تعديا، والمتصرف في حكم الغاصب ضامن للضرر.

واختلف العلماء في ملكية الغاصب الشيء المضمون:

فذهب الحنفية إلى أن الغاصب يملك المغصوب بعد ضمانه من وقت الغصب، حتى لا يجتمع البدل والمبدل في ملك واحد دفعاً للضرر عنه. وينتج عن ذلك نفاذ تصرفات الغاصب في المغصوب، ولو قبل أداء الضمان.

قال الكاساني:

وأما صفة الملك الثابت للغاصب في المضمون فلا خلاف بين أصحابنا في أن الملك الثابت له يظهر في حق نفاذ التصرفات، حتى لو باعه أو وهبه أو تصدق به قبل أداء الضمان ينفذ، كما تنفذ هذه التصرفات في المشتري شراء فاسداً، واختلفوا في أنه هل يباح له الانتفاع به بأن يأكله بنفسه أو يطعمه غيره قبل أداء الضمان، فإذا حصل فيه فضل هل يتصدق بالفضل.

قال أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ ومحمد ـ رحمه الله ـ لا يحل له الانتفاع حتى يرضي صاحبه، وإن كان فيه فضل يتصدق بالفضل.

---

(١) الموافقات للشاطبي ٤/ ٢٢٠، المنثور للزركشي ٢/ ١٤٠، التقرير والتحبير ٣/ ٣٤٩، الذخيرة للقرافي ١/ ١٣٩، ابن عابدين ٤/ ٧، منح الجليل لعليش ٢/ ٥٧٢، نهاية المحتاج مع الشبراملسي ٣/ ٣٩٠ كشاف القناع ٣/ ١٥٨.

وقـال أبويوسف ـ رحمه اللـه ـ يحل له الانتفـاع ولا يلزمـه التصـدق بالفضل إن كـان فيـه فضل. وهـو قـول الحسن وزفـر ـ رحمهـا الله ـ وهو القياس. وقول أبي حنيفة ومحمد ـ رحمهما الله ـ استحسان(١).

وعـند المالكية لا يملـك الغـاصب المغصوب إلا بشرائـه من ربه أو إرثه عنه أو أن يغـرم له قيمته، إلا أن يفـوت على مـالكه بما ذكرناه من مفـوتات في الفقرة «٩»(٢).

قال الدردير ـ رحمه الله ـ. وملكه الغاصب أي ملك المغصوب إن اشتراه من ربه، أو ورثه عنه، أو غـرم له قيمته لتلف أو ضياع ثـم وجده، أو نقص في ذاته.

والمراد: إن حكم عليه بالغرم، ولو لم يغرم بالفعل(٣).

وجاء في حاشية كنون: ـ

قال في النكت: لو غصب شاة وضحى بها، وأخـذ ربها منه القيمة أجزاته عن ضحيته.

قـال أبو علي: وفي ذلك دلالة واضحة على فـواتها بالذبح، وإن كان عبد الحق قال: وأخذ ربها قيمتها ووجه الدلالة منه أنها لو لم تفت بالذبح لم تجزه، لأنه وقتـه لم يملكـها، وإنما ملكـها بعـده، وبعـد تخـيير ربهـا واختيـاره القيمـة. فإجـزاؤها مـناف لتخـيير ربهـا، ودال على فـواتهـا بالذبـح كما قال أبو علي(٤).

---

(١) البدائع ٧/١٥٢، وانظر (الاختيار ٣/٦٠، ابن عابدين ٥/١٢٨، مجمع الأنهر ٢/٤٦٠).

(٢) الشرح الصغير/٧٨، الشرح الكبير ٣/٤٥٥، الخرشي ٦/١٤٤.

(٣) الشرح الصغير ٥/٧٨.

(٤) حاشية كنون على الزرقاني ٦/٢١٢ (وانظر مواهب الجليل ٥/٢٧٦).

وقال الشافعية والحنابلة: لا يملك الغاصب الشيء المغصوب بأداء الضمان،لأن الغصب عدوان محض، فلا يصلح سبباً للملك(١).

قال الزركشي:

عندنا أن ضمان اليد في مقابلة فوات يد المالك والملك باق لحاله، لأنه لم يجر ناقل عن ملكه والفائت عليه هو اليد والتصرف، فيكون الضمان في مقابلة ما فات.

وعند الحنفية أن الضمان في مقابلة العين المغصوبة، لأنه التي وجب ردها، فالضمان بدل عنها وبنوا عليه فروعا:

منها: إذا غصب حنطة فطحنها أو ثوبا فخاطه أو شاة فذبحها، لا يملك المغصوب بذلك، وعندهم يملك العين، وينتقل حق المالك إلى المثل أو القيمة.

ومنها: إذا ضمن بدل المغصوب ثم ظفر به المالك، كان له ويرد إلى الغاصب ما أخذه عندنا، وعندهم يملك المغصوب بأداء الضمان حتى لو كان قريبه عتق عليه.

ومنها: إن الجناية الموجبة لقيمة العبد كقطع يديه ورجليه لا تقتضي ملك الجاني للعبد، وعندهم تقتضي ذلك(٢).

والراجح عندي ـ والله أعلم ـ مذهب المالكية، لوضوح حجتهم وقوة أدلتهم.

أما دليلنا على الشافعية والحنابلة ومن وافقهم. فما روي عن رجل من الأنصار ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) روضة الطالبين ٤/١١٦، ١٤٠، قلائد الخرائد ١/٥١٦، المغني ٥/٤٠٣، نظرية الضمان للزحيلي ٢٢٠.

(٢) المنثور للزركشي ٢/٢٢٥ ، وانظر (المختصر من قواعد العلائي ١/٢٦٢).

قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فرأيت رسول الله ﷺ على القبر يوصي الحافر أوسع من قبل رجليه، أوسع من قبل رأسه. فلما رجع استقبله داعي امرأة، فجاء وجيء بالطعام، فوضع يده ثم وضع القوم فأكلوا، فنظر آباؤنا إلى رسول الله ﷺ يلوك لقمته في فمه ثم قال: أجد هذا لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها، فأرسلت المرأة: يا رسول الله: إني أرسلت إلى البقيع يشتري لي شاة فلم أجد، فأرسلت إلى جار لي قد اشترى شاة أن أرسل إليَّ بها بثمنها، فلم يوجد، فأرسلت إلى امرأته فأرسلت إليَّ بها، فقال رسول الله ﷺ أطعميه الأسارى(١).

ومن طريق الطحاوي ـ عن رجل ـ قال حسبته من الأنصار ـ أنه كان مع رسول الله ﷺ فلقيه رسول امرأة من قريش تدعوه إلى طعام، فجلسنا مجلس الغلمان من آبائهم فنظر آباؤنا إلى رسول الله ﷺ ـ وفي يده أكلة فقال: إن هذا لحم شاة يخبرني أنها أخذت بغير حلها، فقامت المرأة فقالت: يا رسول الله لم يزل يعجبني أن تأكل في بيتي، وأني أرسلت إلى البقيع فلم يوجد فيه شاة، وكان أخي اشترى شاة بالأمس فأرسلت إلى أهله بالثمن، فقال: أطعموه الأسارى(٢).

قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني ـ رحمه الله ـ: ولو كان اللحم على حاله الأول لما أمر النبي ﷺ أن يطعمه الأسارى، ولكنه رآه قد خرج عن ملك الأول، وكره أكله، لأنه لم يضمن قيمته لصاحبه الذي أخذت شاته، ومن ضمن شيئاً فصار له من وجه غصب، فأحب إلينا أن يتصدق به ولا يأكله،

---

(١) رواه أبو داود وأحمد والدار قطني ومحمد بن الحسن في الآثار. قال الزيلعي وهذا سند الصحيح ـ عن رواية أحمد ـ إلا أن كليب بن شهاب لم يخرجا له في الصحيح، وقال فيه ابن سعد، ثقة: ووثقه ابن حبان (نصب الراية ٤/١٦٨، اللباب للمنبجي ٢/٥٦٨).

(٢) شرح المعاني الآثار ٤/٢٠٨.

وكذلك ربحــه، والأسارى عندنا أهل السجن المحتاجون، وهذا كله قيـاس قول أبي حنيفة رحمه الله تعالى(١).

ويمكن أن يستدل لهم ـ أيضاً ـ بما رواه مـالك عن زيد بن أسلم عن أبيه ـ : أنه خرج عبـد الله وعبيد الله ابنا عمـر بن الخطاب في جيش إلى العراق، فلما قفلا مـرا على أبي موسى الأشعري وهـو أمير البصرة فرحب بهما وسهل، ثم قال: لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به، ثم قال: بلى ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين، فأسلفكماه فتبتـاعان به متـاعاً من متاع العـراق، ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين، ويكون لكما الربح، فقالا: وددنا ذلك ففعل، وكتب إلى عمـر بن الخطاب أن تأخـذ منهما المال، فلما قدمـا باعا فأربحـا، فلما دفعا ذلك إلى عمر قال: أكل الجيش أسلفـه مثل ما أسلفكما؟ قال: لا، فقـال عمر بن الخطاب: ابنا أمير المؤمنين فـأسلفكما، أديا المال وربحه، فأما عبد الله فسكت، وأما عبيـد الله فقال: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا، لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه، فقال عمر أدياه، فسكت عبـد الله وراجعه عبيد الله، فقال رجل من جلســاء عمر: يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضـا، فقال عمر: قد جعلتـه قراضا، فأخذ عمـر رأس المال ونصف ربحه، وأخذ عبـد الله وعبيد الله ابنا عمر نصف ربح المال(٢).

فلولا أن عمـر ـ رضي الله عنه ـ قد عــدَّ أن المال يدخل بالفـوات في ملك الغاصب لما جعل لهما حقا في الربح ـ والله أعلم ـ (٣).

وأما أخـذ عمـر ـ رضي الله عنه ـ لشـطر الربح فهـو من بـاب حق الأب على الأبناء.

---

(١) كتـاب الآثار للشيبـاني ١٩٥، وانظر (شرح معـاني الآثار ٤/٢٠٨، إيثـار الإنصـاف ٢٥٨، نصب الراية ٤/١٦٨)

(٢) الموطأ مع شرح الزرقاني ٤/٢١٨، البيهقي ٦/١١٠.

(٣) انظر (مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٠/٣٢٣، ٣٢٩).

قال المزني: سألهما لبره الواجب عليهما أن يجعلا ربحه كله للمسلمين، فلم يجيباه، فلما طلب النصف أجاباه عن طيب أنفسهما(١).

وقال الطحاوي: ويحتمل أن عمر عاقبهما بذلك، كما شاطر عماله أموالهم(٢).

وإثبات الملك للغاصب في المغصوب بعد ضمانه هو القياس ـ أيضا ـ، وذلك بإثبات الملك له في المضمون ليقوم مقامه، فوجب القول بإثبات الملك في الجانبين، دفعاً للضرر عنهما قدر الإمكان(٣).

وروي عن الشافعي أنه إذا خلط المغصوب بغيره ولم يمكن تمييزه فإنه يدخل في ملك الغاصب(٤).

وروى محمد بن الحكم عن أحمد ما يدلّ على أن الغاصب يملك المغصوب بالقيمة(٥).

وأما ردّنا على الحنفية فهو ما ورد في حديث الشاة المغصوبة من أمر رسول الله ﷺ بإطعامها للأسرى.

قال الكاساني: أمر عليه الصلاة والسلام بأن يطعموها الأسارى ولم ينتفع بها ولا أطلق لأصحابه الانتفاع بها، ولو كان حلالا طيباً لأطلق مع خصاصتهم وشدة حاجتهم إلى الأكل، ولأن الطيب لا يثبت إلا بالملك المطلق، وفي هذا الملك شبهة العدم، لأنه يثبت من وقت الغصب بطريق الاستناد، والمستند يظهر من وجه، ويقتصر على الحل من وجه، فكان في وجوده من وقت

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٦/١١٣ .

(٢) الجوهر النقي لابن التركماني ٦/١١١ .

(٣) طريقة الخلاف للأسمندي ٢٦١ .

(٤) قلائد الخرائد لبافشير ١/٥١٧.

(٥) المغني ٥/٤٠٢ .

الغصب شبهة العدم، فلا يثبت به الحل والطيب، ولأن الملك من وجه حصل بسبب محظور، أو وقع محظور بابتدائه فلا يخلو من خبث، ولأن إباحة الانتفاع قبل الإرضاء يؤدي إلى تسليط السفهاء على أكل أموال الناس بالباطل، وفتح باب الظلم على الظلمة، وهذا لا يجوز، وعلى هذا يخرج ما إذا غصب حنطة فطحنها أنه لا يحل له الانتفاع بالدقيق حتى يرضي صاحبه، ولو غصب حنطة فزرعها قال أبو حنيفة ومحمد يكره له أن ينتفع به حتى يرضي صاحبه، ويتصدق بالفضل.

وقال أبو يوسف لا يكره له الانتفاع به قبل أداء الضمان، ولا يلزمه التصدق بالفضل. فظاهر هذا الإطلاق يدل على أنه عندهما يكره الانتفاع به حتى يرضي صاحبه بأداء الضمان(١). وهو ـ أيضا ـ اختيار بعض محققي الحنفي.

قال المحقق داماد أفندي: لكن حكي عن الإمام مفتي الثقلين أن الصحيح عند المحققين ومشايخنا على قضية مذهب أصحابنا، انه لا يملك إلا عند تراضي الخصمين بالضمان، أو قضاء القاضي به، أو أداء البدل، كما في القهستاني عن الذخيرة(٢).

ب ـ تغير العين المغصوبة عند الغاصب.

وهذا التغير إما أن يكون بنفسه ـ بتأثير سبب سماوي ـ، وإما أن يكون بفعل الغاصب.

---

(١) البدائع ٧/١٥٢ .

(٢) مجمع الأنهر ٢/٤٦٠، وانظر البدر المنتقي ٢/٤٦٠ .

١ ـ تغير المغصوب بنفسه :

اتفق الفقهاء على أن المغصوب لو تغير إلى مالا مالية له أنه فوات يستوجب الضمان ـ كما لو غصب عصيراً فانقلب خمرا، أو غصب حيوانا فمات(١).

أما لو تغير المغصوب إلى شيء له ما لية، كما لو غصب عصيراً فصار خلا، أو لبنا حليباً فصار مخيضاً، أو عنباً فصار زبيبا، فاختلف العلماء في ذلك.

فذهب الحنفية والمالكية إلى أن المالك بالخيار بين استرداد عين المغصوب، وبين تضمين الغاصب بدله.

وذهب الشافعية والحنابلة إلى أن المالك يسترد ماله، وإن ظهر فيه نقص يغرم الغاصب أرشه(٢).

والذي نختاره ـ والله أعلم ـ هو رأي الحنفية والمالكية، لأن هذا التغير فوات للمال، وقد لا تكون للمالك حاجة بالشيء الجديد، لأن الخل غير العصير، والزبيب غير العنب. فإن اختار المالك استرجاعه حكمنا له بذلك لبقاء حق الملك.. وفي حالة اختيار المالك البدل، فإن الغاصب يملك المغصوب(٣).

٢ ـ تغير المغصوب بفعل الغاصب :

وقسم الفقهاء هذا إلى تغير ذات المغصوب والى تغير صفاته:

---

(١) مجمع الضمانات للبغدادي ١٣٣، البدائع ٧/ ١٥٥، الدسوقي على الدردير ٢/ ٤٥٣، المهذب للشيرازي ١/ ٤٨٧، الفروع لابن مفلح ٤/ ٥٠٩، المقنع لابن قدامة ٢/ ٢٤٨.

(٢) المراجع السابقة

(٣) انظر ١٤ من البحث.

أ ـ تغير ذات المغصوب

ذهب الحنفية والمالكية إلى أنه لو تغير ذات المغصوب واسمه بفعل الغاصب بحيث زال أكثر منافعه المقصودة، كما لو غصب شاه فذبحها وشواها، أو طبخها، أو غصب حنطة فطحنها دقيقاً، أو حديداً فاتخذه سيفاً.. إلخ، فإنه يزول ملك المغصوب منه عن المغصوب، ويملكه الغاصب، ويضمن بديله.

وذهب الشافعية والحنابلة إلى أن ملك المالك الأصلي لا ينقطع وله ان يأخذه وأرش نقصه إن نقص، ولا شيء للغاصب في زيادته(١).

والذي أختاره ـ والله أعلم ـ مذهب الحنفية والمالكية، لما مر معنا(٢) في حديث الشاة المغصوبة، ولحديث ابني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه(٣).

ووجه الرأي الذي اخترناه من القياس أن الغاصب أحدث صنعة متقومة صيرت حق المالك بها هالكاً من وجه، ولهذا تبدل الاسم، وفات معظم المقاصد، وحق الغاصب في الصنعة قائم من كل وجه، فيترجح على الأصل، الذي هو فائت من وجه. وفيما قلنا رعاية للجانبين، فإن حق المالك ينجبر بأخذ البدل، وحق الغاصب ينجبر بتمليكه المغصوب(٤).

ب ـ تغير صفات المغصوب

تغير صفات المغصوب التي تحصل بفعل الغاصب، إما أن تكون بالزيادة أو بالنقصان.

---

(١) البدائع ٧/ ١٦٠، مجمع الضمانات ١٢٥، الشرح الكبير ٣/ ٤٥٤، المدونة ٥/ ٣٦٣، الوجيز للغزالي ١/ ٢١١، المهذب ١/ ٤٨٧، المقنع ٢/ ٢٢٥ ـ المحرر لأبي البركات ١/ ٣٦١.

(٢) انظر ص ١٥ من البحث.

(٣) انظر ص ١٥ من البحث.

(٤) الغرة المنيفة للغزنوي ١١٣ بتصرف، وانظر (عقود الجواهر للزبيدي ٢/ ١٠١).

١ ـ التغير بالزيادة

ويكون ذلك بإضافة شيء إلى المغصوب، كما لو صبغ الثوب المغصوب، أو لَتَّ(١) السويق(٢) بسَمْنٍ.

مذهب الحنفية والمالكية في ذلك أن المالك بالخيار إن شاء ضمن الغاصب قيمة المغصوب قبل تغيره، وإن شاء أخذه وأعطى الغاصب قيمة الزيادة التي أضافها الغاصب، مثل ما زاد من الصبغ في الثوب، أو السمن في السويق، لأن في التخيير رعاية لحق الاثنين.

أما الشافعية فقالوا: إن أمكن فصل الزيادة من صبغ ونحوه أجبر الغاصب عليه، وإن خسر كثيرا، ولو أدى ذلك إلى نقص قيمة الثوب، لأنه يغرم أرش(٣) النقص. أما إن لم يمكن فصل الزيادة، كأن انعقد الصبغ بالثوب، فإن لم تزد قيمة المغصوب ولم تنقص، فلا شيء للغاصب فيه ولا عليه، إذ غصبه كالمعلوم حينئذ، وإن نقصت قيمة المغصوب لزمه الأرش، وإن زادت قيمته بسبب العمل والصنعة اشتركا فيه، هذا بصبغة وهذا بثوبه. أما إذا زاد سعر أحدهما ـ فقط ـ بارتفاعه، فالزيادة لصاحبه. ومذهب الحنابلة ـ إجمالاً ـ كالشافعية، إلا أنهم قالوا لا يجبر الغاصب على قلع الصبغ من الثوب، لأن فيه اتلافاً لملكه، والنبي ﷺ يقول «لا ضرر ولا ضرار»(٤).

---

(١) أولَتَّ السويق ونحوه: خلطه بسمن أو غيره، ولتَّ العجين. بله بشيء من الماء (المصباح ٥٤٩، المعجم الوجيز ٥٥١).

(٢) السويق طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير (المصباح ٢٩٦، المعجم الوجيز ٣٣٠).

(٣) الأرش، قسط ما بين الصحيح والمعيب من الثمن (الدار النقي لابن المبرد ١/٤٦٦، النهاية لابن الأثير ١/٣٥).

(٤) رواه مالك وابن ماجه وأحمد وغيرهم، قال أبوداود، هو أحد الأحاديث التي يدور عليها الفقه (نصب الراية ٤/٣٨٤، فتح الغفار للرباعي ٣/٦٢)

وإن حصل نقص في المغصوب ضمنه الغاصب، أما إن حصلت زيادة فالمالك والغاصب شريكان بقدر ملكيهما(١).

والذي نختاره مذهب الحنفية والمالكية لما مر سابقا ـ والله أعلم.

٢ ـ التغير بالنقصان:

والنقصان في الأوصاف يكون إما بسبب هبوط الأسعار، أو بفوات وصف مرغوب فيه.

أ ـ إذا حدث النقص بسبب هبوط الأسعار في السوق فجمهور العلماء يرون أن هذا لا يكون مضمونا إذا رد العين في مكان الغصب، لأن هذا النقص حدث بسبب فتور الرغبات، لا لفوات جزء من العين.

أما الظاهرية فيرون إلزام الغاصب بدفع أرش النقص الحادث بسبب هبوط الأسعار.

قال ابن حزم: وأما الزيادة في الثمن، فإنه حين زاد ثمنه كان فرضاً عليه رده إلى صاحبه بجميع صفاته، فكان لازماً له أن يرده إليه وهو يساوي تلك القيمة، فإذا لزمه ذلك، ثم نقصت قيمته فإنه لا يسقط رد ما لزمه رده(٢).

والذي أختاره رأي الجمهور لما يلي:

١ ـ لأن العين باقية على حالها، والفائت رغبات الناس، ولا حق للمغصوب منه في القيمة مع بقاء العين، إنما حقه في العين، وهي باقية كلها كما كانت.

---

(١) الاختيار ٣/٦٣، الدسوقي ٢/٤٥٤، نهاية المحتاج ٥/١٨٢، المحرر ١/٣٦١.

(٢) البدائع ٧/١٥٥، مجمع الضمانات ١٢٣، المدونة ٥/٢٤٥، نهاية المحتاج ٥/١٧٢، مغني المحتاج ٢/٢٨٧، الإنصاف للمرداوي ٦/١٥٥ الإقناع للحجاوي ٢/٢٤٥، المحلى ٨/٥٧٢.

٢ ـ لأن الغاصب يضمن ما غصب، والقيمة لا تدخل في الغصب(١).

ب ـ إذا كان النقص بسبب فوات وصف مرغوب فيه، كضعف الحيوان، وزوال سمعه أو بصره وكحدوث العرج وما شابه ذلك، فقد اتفق الفقهاء في هذه الحالة أن النقص مضمون، وعلى الغاصب أن يدفع للمالك أرش النقص مع استرجاع العين المغصوبة جبرا للضرر(٢).

قال العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ:

وأما صفات الأموال فليست من ذوات الأمثال، والطريق إلى جبرها إذا فاتت بسبب مضمن، أو فاتت تحت الأيدي الضامنة أن تقوم العين على أوصاف كمالها، ثم تقوم على أوصاف نقصانها، فيجبر التفاوت بين الصفتين بما بين القيمتين، مثل إن غصب شابة حسنة فصارت عنده عجوزاً شوهاء، فيجبر ما فات من صفة شبابها ونضارتها بما بين قيمتيها، وكذلك لو عيب شيئاً من الأموال فإنه يجبره بما بين قيمته سليماً ومعيباً، وكذلك لو هدم دارا فإنه يجبر تاليفها بما بين قيمتها في حالتي البناء والانهدام، لأن تاليفها ليس من ذوات الأمثال(٣).

وللبحث تتمة في العدد القادم إن شاء الله

---

(١) انظر (المغني ٥/٤٠٠، الغاية القصوى للبيضاوي ١/٥٧٥).

(٢) البدائع ٧/١٥٥، البهجة للتسولي ٢/٢٥٤، الغاية القصوى ١/٥٧٦، منتهى الإرادات ١/٥١٢

(٣) قواعد الأحكام ١/١٥٣.

من أخبار الكلية

١ـ حفلة تخريج الطالبات :

تحت رعاية حرم رئيس مجلس الأمناء السيد جمعة الماجد الموقر احتفلت الكلية في صباح يوم الأربعاء ٨ شعبان ١٤١٧ هـ ـ الموافق ١٨/١٢/١٩٩٦م بتخريج الدفعة الخامسة من طالباتها البالغ عددهن (٥٠) طالبة، ابتدأ الحفل في الساعة العاشرة والنصف صباحا بتلاوة آيات عطرات من الذكر الحكيم تلتها إحدى الطالبات الخريجات، ثم أعقب ذلك فقرات الحفل. فألقيت كلمات طيبة معبرة عن المشاعر الفياضة والفرح الغامر الذي ملأ القلوب بهذه المناسبة السعيدة.

ألقت كلمة رئيس مجلس الأمناء كريمته الفاضلة، ثم ألقت كلمة السيد عميد الكلية أ. د. إبراهيم سلقيني إحدى المدرسات، ثم ألقت طالبة خريجة كلمة عبرت عن مشاعر الغبطة والسرور بهذا التخرج، وبعد ذلك قامت راعية الحفل بتوزيع الشهادات والجوائز على الخريجات، وقد نالت واحدة منهن درجة الامتياز. ونحب أن ننوّه أن بعض الخريجات رُحْن يتابعن دراستهن في قسم الدراسات العليا في الكلية ليأخذن دورهن ـ إن شاء الله ـ كاملاً في بناء الحياة والمجتمع. وعرفاناً بالجميل قدمت الخريجات هدية متواضعة للسيدة الفاضلة راعية الحفل، كما قدمت الكلية هدية رمزية للسيدة الفاضلة.

حضر الاحتفال السيدة المربية الموقرة والدة رئيس مجلس الأمناء وحرم صاحب السمو الشيخ راشد بن أحمد المعلا، وحرم صاحب السمو الشيخ سعود بن صقر القاسمي، وحرم الشيخ حشر بن مكتوم آل مكتوم مدير دائرة إعلام دبي، وحرم الشيخ بطي آل مكتوم، وحرم السيد سيف بن أحمد الغرير

أحد أعضاء مجلس الأمناء، وعدد من زوجات القناصل ورجال السلك الدبلوماسي ورجال الأعمال وزوجات أعضاء الهيئة التدريسية في الكلية وأهالي الخريجات وعدد كثير من المدعوات والطالبات.

وفيما يلي الكلمات التي ألقيت :

كلمة رئيس مجلس الأمناء

أحمد الله حمد الشاكرين وأصلي وأسلم على نبيه سيد المرسلين.

أيها الحفل الكريم :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

باسم مجلس أمناء كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي وباسم السيد الوالد أرفع أسمى آيات الشكر وأخلص الولاء إلى صاحب السمو رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان وإلى أخيه صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي

نحن اليوم نحتفل بتخريج الدفعة الخامسة من طالبات هذه الكلية ولكن احتفالنا وفرحتنا الكبرى بعودة صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة وقد منّ الله عليه بالشفاء.. الحاكم والأب الذي نكنّ له في نفوسنا أخلص آيات العرفان والتقدير، مؤسس حضارة هذه الدولة ورافع شعبها إلى مصاف أرقى شعوب العالم عامة.. وقد أولى هذه الكلية عناية خاصة ومتابعة شخصية لمستواها وسيرها.

ومن منارة العلم المباركة هذه التي تحفها الملائكة نرفع أيدينا إلى الله تعالى أن يديم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكما وراعياً وأن يمد الله في

عمره ويغمره بوافر الصحة والعافية.. ويبارك في نائبه صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم وإخوانه الشيوخ الكرام ويرفع شأن هذه الدولة عاليا في مسارات الدول المتقدمة.

كما نقدم وافر الشكر والتقدير لسمو الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان معالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي لعنايته السامية بهذه الكلية وزميلاتها الكليات الجامعية.

أيتها السيدات الفاضلات :

باسم السيد الوالد رئيس مجلس الأمناء أحييكن أطيب تحية، وأشكر كل أم حضرت حفلتنا، وكل سيدة لبت دعوتنا، وأقبلت تشاركنا فرحتنا بتخريج الدفعة الخامسة من طالبات الكلية. وأهنئُ أحر التهنئة خريجات هذه الدفعة بعد وصولهن إلى يومهن الموعود هذا بفضل الله وتوفيقه، وهو يوم الحصاد واقتطاف الثمر من الغرس الخير بعد العمل الجاد.

أيتها السيدات الفاضلات :

من فضل الله على هذه الكلية أن يجيء احتفالنا بتخريج الدفعة الخامسة من طالبات الكلية خاتمة طيبة لاحتفال البلاد أميراً وحكومة وشعبا بعيد الاتحاد الخامس والعشرين، ليكون أحد الأيام السعيدة في هذه المناسبة المجيدة. وأي عيد أولى بالاحتفال من عيد الاتحاد؟

وإذا كان كل قطاع من قطاعات المجتمع قد احتفل بعيد الاتحاد الوطني على طريقته فإن احتفال كليتنا جاء على الطريقة التي تخيرها السيد الوالد، وهي أن ينفح الوطن بكوكبة من المربيات والداعيات المثقفات بالثقافتين الإسلامية والعربية، المعدات خير إعداد بالعلم والإيمان، والمستعدات أحسن استعداد لنشر العلم الذي حملنه، وترسيخ الإيمان الذي اعتقدنه في عقول الناشئة وقلوبهم، والعمل الدؤوب على بناء هذا الوطن المعطاء، ورفع مستواه الحضاري والثقافي.

إنه ليطيب لنا أن نعبر عن سعادتنا واعتزازنا بهذا الصرح العلمي الذي نستظل بظله الآن، ونجتمع في حماه بعد عشر سنوات من عمره المثمر الذي نرجو أن يطول ويمتد، ويفيض من علمه وفضله على الأجيال الآتية، كما يطيب لنا أن نرفع أكف الضراعة إلى الله عز وجل أن يكلأ هذا الصرح بعنايته، وأن يسدد سيره على صراطه المستقيم بعد أن خطا خطوتين واثقتين في طريق التقدم: أولاهما إنشاء فرع للطالبات الراغبات في التخصص بدراسة اللغة العربية، والثانية افتتاح قسم للدراسات العليا في قسم الشريعة.

وإنا لواثقون كل الثقة بأن الخريجات من قسم اللغة العربية سوف يحملن جانبا هاماً من الرسالة العلمية والتعليمية في هذا الوطن، وأن خريجات الدراسات العليا سينهضن مستقبلا بالغرسات التي يشرف على رعايتها الآن أساتذة أفاضل ليحققوا تربة خصبة لغراسهم العلمي.

أخواتي الخريجات :

في الختام أحييكن باسم الوالد تحية الحب الأبوي الذي يلتمس الأجر من الله تعالى وأدعو الله أن يتم نعمته عليكم بالعمل بما تعلمتن وبتبليغ ما تلقَّيْتنّ والاستزادة من العلم والزيادة المستمرة في العطاء.

إن أصدق ما قيل في الأديان السماوية أنها رسالات إلهية. وديننا الإسلامي أعظم رسالة وأوسعها، ولا تقاس السعة في هذه الرسالة بامتداد المكان ولا بكثرة العدد لأنها أوسع ما تكون إذا غرست في داخل النفس الإنسانية وكانت القوة الدافعة من داخل الضمير.. هذا الضمير إذا وثب في سبيل حق يؤمن به لا يرجع عنه، قاصداً وجه الله تعالى، جاعله رقيبا على سريرته قبل كل رقيب، إن اتصافكن بهذا النوع من الضمير يرضي الله تعالى أولاً ويحقق ما يهدف إليه الوالد من هذه الكلية، وتسدين به إلى الوطن كل ما يطمح إلى تحقيقه.

سدد الله خطانا جميعاً وجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه

﴿والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته﴾

كلمة عميد الكلية

إن الحمد لله حمدا يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد معلم الناس الخير، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه شموس المعرفة، ومصابيح الهداية، وعزة الإنسانية قاطبة وبعد.

السيدة الفاضلة حرم معالي السيد جمعة الماجد الموقر. ضيفاتنا الكريمات.

أخواتنا الطالبات أحييكن بتحية الإسلام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

إنني - باسم السيد عميد الكلية ومجلسها الموقر وأعضاء هيئتها التدريسية والعاملين فيها - أرحب بكنّ أجمل ترحيب وأطيبه وأشكر لكن تلبيتكن الدعوة، ومشاركتكن حفلنا هذا الذي عطر الأجواء أنسا وبهجة.

ضيفاتنا الكريمات :

كيف لا نأنس وهذا الصرح الشامخ قد صار ملء السمع والبصر، والحمد لله الذي أنعم به علينا وأتم، أجل أصبح الحلم الكبير حقيقة ملموسة، وها هو ذا يستقبل كل عام عشرات بل مئات الطلبة، يقبلون على مناهله العذبة يرتوون منها، ثم يصدرون عنها ليرووا العطاش من أبناء هذا البلد المعطاء، ويأخذوا دورهم في التربية والتعليم، والدعوة إلى الله تعالى بالحال والقال.

إن الكلية اليوم تحتفل بتخريج الدفعة الخامسة من طالباتها وهي نخبة طيبة من الخريجات اللائي مضى عليهن خمس سنوات كانت عامرة بالنفع والعطاء.

وقد وفق الله تعالى رجالا من هذا البلد الحبيب فأقاموا هذه الكلية الخيرة، وابتغوا بذلك أن يقرب المنهل من ورّاده، وما أروع الاستجابة عبر

السنوات السابقة. وهذه السنة بلغ عدد الطلاب فيها أكثر من ثلاثمئة طالب وأما الطالبات فقد بلغ عددهن ألفا وستمئة طالبة مما يدل على أن الكلية تنمو وتتكامل كدوحة شامخة، ومنارة سامقة. على أن المسؤولين عن الكلية إشرافا وإدارة ومتابعة وهيئة تدريسية يرون دائما أن الاعتناء بالكيف مقدم على الرغبة في تكثير أعداد الطلبة فالجهود منصبة على بناء الشخصية سواء في ذلك الطلاب والطالبات.

ومن جهة أخرى فقد افتتحت الكلية قسم اللغة العربية إلى جانب قسم الدراسات الإسلامية انطلاقا من الحاجة الماسة لهذا التخصص، ووضعت من المناهج ما يكفل للدارسين والدارسات مستوى علمياً جيداً.

كذلك كانت الكلية قد أنشأت في بداية العام الدراسي الماضي ـ بفضل الله ـ قسماً للدراسات العليا (الماجستير) وقد التحق به عدد من الطالبات، ونجحن إلى السنة الثانية. كما التحق عدد آخر في هذا العام.

وسعت الكلية لإقامة علاقات واشجة بينها وبين المجتمع وبينها وبين الجامعات ولاسيما جامعة الإمارات وعملت على تقوية أسس الترابط عبر لقاءات علمية وثقافية، كما أقامت موسما ثقافيا تستضيف إليه نخبة من ذوي الاختصاصات والمؤهلات العلمية العالية من خارج الدولة ومن داخلها، ويحاضر فيه أساتذة الكلية. إضافة لتبادل الزيارات المتكررة مع جامعة الإمارات وغيرها.

أخواتنا الكريمات :

ونحن في صدد توديع طالباتنا اللواتي ما قصرن في التعليم، على أمل أن تكون كل واحدة منهن منارة تربية وعلم في بيتها أولا، وفي حيها ثانيا، وفي بلدها الطيب ثالثا تدعو بالحجة والحكمة والموعظة الحسنة والقدوة الصالحة، وكلنا أمل في أنها ستكون خير نموذج صالح يمثل الكلية التي تعلمت منها، ونهلت من معينها. فهنيئا لكن هذا العلم، ووفقكن الله لكل خير وسداد.

ولا يسعنا هنا إلا أن نتوجه بالشكر لله عز وجل أولا ثم للقائمين على هذه الكلية إمدادا وإشرافا وإدارة وتدريسا وعلى رأسهم معالي السيد جمعة الماجد حفظه الله تعالى، طالبين من الله تعالى أن تكون شمس هذا الصرح دائمة الإشراق..

وختاماً لكن من الكلية عميدا وهيئة تدريس الشكر كله وللخريجات أبهى التهاني والتبريكات.

﴿والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته﴾

***

كلمة الخريجات

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه الأصفياء الأخيار، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

راعية هذا الحفل الفاضلة، حرم رئيس مجلس الأمناء السيد جمعة الماجد، حفظه الله تعالى.. أيتها الحاضرات الكريمات :

أرفع إلى الجميع أنبل التحيات وأسماها، وهي تحية الإسلام العظيم : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إنه ليطيب لي أن أقف بين أيديكن هذا الموقف الجليل، وأنا ممتلئة بالغبطة، لأتحدث باسمي واسم زميلاتي خريجات الدفعة الخامسة، عن سعادتنا الغامرة، ونشوتنا الفياضة، بتخرجنا في هذه الكلية المباركة، ولنعبر عن فرحنا وشكرنا وتقديرنا. فرحنا بما منَّ الله به علينا من نعمة العلم، خير النعم، وشكرنا وتقديرنا لكل من كان له فضل علينا في هذه النعمة، وعلى رأس الجميع منشئ هذه الكلية، ورافع صرحها، ومؤسس بنيانها على تقوى من الله وخير، وهو السيد جمعة الماجد، نَسَأ الله في أجله، وبسط له في رزقه، وبارك

له في أهله ومـاله، ولإخـوانه أعضـاء مجلس الأمناء الأفـاضل، ولأسـاتذتنا وأشياخنا الـذين علمونا وأرشدونـا، وغرسوا في نفـوسنا حب العلم، وعشق المعرفة، والسعي الدائم إلى التحصيل والدرس.

وإن حصـولنا على الشهادة لهو خطوة أولى في درب التعلم، وقـد فتحت الكلية ـ مشكورة ـ أبوابها لمن أراد المضي في الدرب وبلوغ المزيد.

أيها الحفل الكريم :

لقد صارت هذه الكلية معلما شامخاً يسعى إليه الكثيرون، وآية ذلك هذه الأعداد الكثيرة التي تزداد يوما بعد يوم، وقد أقبلت متعطشة إلى العلم الشريف الذي تقدمـه الكلية، علم الشريعة الإسـلامية، وعلم العـربية، لهفى إلى أن تنهل من ينابيعه ما استطاعت. وإذا كان فضل الله على هذا الجيل عظيما، إذ هيأ له ـ على أيدي الصفـوة البررة من أبنـاء هذه الأمـة ـ سبل العلم، وذلـل له طرق المعـرفة، فأصبحت سهلة ميسـورة، فإن أقل الواجبات عليـه أن يكون أهلا لما تهيأ له، فيبـذل في سبيل التحصيل جهـده، وينكب على العلم انكبـابا حـارا لا يعـرف الفتـور ولا القصـور، فإن من معـالم شكر العلم وأهله الإخـلاص في تحصيله، والاجتهـاد في تبليغه، وذلك كله مـن خير الصدقـة كما أخبرنا النبي صلى الله عليـه وسلم بقـوله : (أفضل الصـدقـة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم).

أيها الحفل الكريم :

إن ما يعصف بأمتنا العـربية الإسـلامية اليوم من مـآس وويلات، وما تتعـرض له مـن ابتـلاء ومحن، لجدير أن يحرك مشـاعـر الجميع، وأن يهم الجميع وكما قال عليه السـلام: (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)، وإن دور المرأة في هذه المعركة الحضارية لجد خطير، فهي مربية الأجيال، وصانعة النشء، ومدرسـة أبناء المستقبل، فكن يا أخـواتي على مستـوى المسـؤوليـة، ومـارسن دور المرأة المسلمة المتعلمـة، مسترشدات بما تعلمتن من كتـاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

أهنىء أخواتي الخريجات. وأكرر الشكر والتقدير لرعاة هذه الكلية والقائمين عليها، وأسال الله أن يجزل لهم الثواب، وأن يجعل ذلك في صحائفهم عملا طيبا مبتغى به وجه الله الكريم.

﴿والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته﴾

***

٢ـ الموسم الثقافي :

نظمت الكلية ـ كعادتها كل عام ـ موسما ثقافيا ألقيت فيه المحاضرات التالية :

اليوم والتاريخ	عنوان المحاضرة	المحاضر
الاحد ٢/ ١٠/ ٩٦	مسؤوليات الطالبة الجامعية	د. إبراهيم سلقيني
الأحد ٦/ ١٠/ ٩٦	معا نحو التجديد	د. محمد عقلة
الاحد ١٣/ ١٠/ ٩٦	صرخة استغاثة من الاقصى	د. رجب شهوان
الاحد ٢٠/ ١٠/ ٩٦	مكانة المرأة في الإسلام	د. إبراهيم سلقيني
الاحد ٢٧/ ١٠/ ٩٦	أي لذة بعد العودة	شمس البارودي
الأحد ٣/ ١١/ ٩٦	إلى أمهات المستقبل	الأستاذ عبدالله حمود
الاحد ١٠/ ١١/ ٩٦	نماذج من جهود المحجبات	د. عيادة الكبيسي
الأحد ٨ / ٣ / ٩٧	ديمومة الخير في أمة محمد ﷺ	د. عبدالله المصلح
الأحد ١٦/ ٣/ ٩٧	الربـــا	د. رفيق يونس المصري
الأحد ١١/ ٣/ ٩٧	الإسلام إيمان وعمل	د. محمد الزحيلي

٣- إصدارات لأعضاء هيئة التدريس :

- عن دار طلاس في دمشق صدر مؤخراً كتابان للدكتور غازي مختار طليمات. الأول (نكتة الإعراب) صدر سنة ١٩٩٦م وهو رسالة في النحو لابن هشام الأنصاري. والثاني (عين جالوت) صدر سنة ١٩٩٧م وهو مسرحية شعرية تاريخية فازت بمسابقة أبها الثقافية.

- وعن دار العلوم في الشارقة ودار ابن حزم في بيروت صدرت عام ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م قصتان للدكتورة زينب بيره جكلي وهما تضمان قصصاً قصيرة تاريخية وواقعية.

٤- وفاة أحد أعضاء الهيئة التدريسية في الكلية :

في الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٤١٧ هـ الموافق ٢/٢/١٩٩٧ ودعت كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي أحد أعضاء الهيئة التدريسية المرموقين فيها وهو الدكتور فتحي شحاتة، الذي توفي على إثر حادث سيارة أليم على طريق أبوظبي، وتم دفنه في مقبرته بالمرج في القاهرة.

كان - رحمه الله - حافظاً للقرآن منذ التاسعة من عمره، ثم اشترك مع شيخه في تحفيظ أولاد القرية القرآن الكريم، ثم كان المقرئ الأول في دائرته للقرآن الكريم حتى انتقل إلى القاهرة ودخل معهد القرآن في سنة ١٩٦٥ ثم واصل دراسته فيه بامتياز حتى حصل منه على أعلى الشهادات في قراءات القرآن وعلومه سنة ١٩٧٣م وهو العالم الفاضل الذي ملأ جنبات الدنيا علماً، وانتفع بعلمه وفتاواه الكثير الكثير بعد أن تخرج في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة سنة ١٩٧٧.

وواصل مسيرته في طلب العلم حتى حصل من كلية الشريعة بالأزهر على الماجستير في سنة ١٩٨٤ بتقدير ممتاز ثم الدكتوراه بتقدير ممتاز مع

مرتبـة الشرف الأولى في الفقه المقـارن في سنة ١٩٨٨. ثم عين مدرسـا في كلية الدراسات الإسـلامية والعربية بالقـاهرة في سنة ١٩٨٩ واستمر بها بها حتى أعير إلى كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي ١٩٩٢م.

والكلية إذ تنعي هذا العالم الجليل، وتأسـى لفقده، لتسأل الله له المغفرة والرضـوان، وأن يلهم أهله وذويه وأصـدقـاءه الصبر والسلوان. رحمه الله رحمة عامة، وأسكنه فسيح جناته.

وقد رثى المرحوم الدكتور فتحي شحاتة بقصيدتين اثنان من زملائه في الكليـة، هما الدكتـور وليـد قصـاب، والدكتـور حمودة سند، وفيما يلي نص القصيدتين :

مرثاة في الراحل الباقي

الدكتور / فتحي شحاتة (رحمه الله)

د. وليد إبراهيم قصاب

صـديقٌ عـزيزٌ طواه السفـر ... وهل مثلُ هذا السفار سفرْ؟

رحيلٌ، وما بعده من رجوعٍ ... وورْدٌ وما بعده من صَدَرْ

أتاه على غفلة من صباحٍ ... وما جاء يوماً على مُنتظرْ

لقد كان يغفو بحضن الأمانِ ... وكان مكيناً هنا ذا خطرْ

وكان يُشنّف سمعَ الزمانَ ... بآي الكتاب وهدي السورْ

وكان فقيهاً، حفيظاً، يجدُّ ... إذا كان في الجدّ يوماً وطرْ

ويُلفى ظريفاً إذا كان أنسٌ ... وفاض بعذب الحديث السَّمرْ

جليلٌ، وقورٌ، بشوشٌ، ضحوكٌ ... أليفٌ، ويألفه من حضرْ

هو الشيخ «فتحي» الذي قد فقدنا ... كما غاب ليل الظلام قمرْ

***

وفي مثل ومضة برق مضى ... بعيداً، كأن ما أتى أو عبرْ

بكيتك والدمعُ سحٌّ غزيرٌ ... يفيض على الخد مثلَ النهرْ

وما كان إلا عليّ البكا ... على نفسيَ الدمع مني انهمرْ

سأمضي كما قد مضيت، وما من ... سبيل لفَوْت، فأين المقرّ؟

وكلٌّ سيهجرُ ما يقتنيه ... وإنْ مدّ حبلٌ له فانبهرْ

وإن ظنّ أن البقاء طويلٌ ... وأذهل منه التمني البصرْ

وفي الموتِ ذكرٌ لذي غفلةٍ ... وفيه اتعاظ لذي مُعتبرْ

***

مضيتَ حميداً للقيا الكريم ... وخلّفت فينا جليل الأثرْ

تركتَ القلوب على فَجْعَة ... وأورثت حزنا يفُتّ الحجرْ

ولكنْ يعزّي فؤاد المحبِّ ... ختامٌ حميدٌ كفوح الزهرْ

صيامٌ، وذكرٌ، وعشرٌ كرامٌ ... ستلقى بها الله يوم الحشرْ

غبطنا ـ وفي القلب حزنٌ دفينٌ ـ ... صديقاً، تقياً، حفيظاً، أبرْ

أتاه اليقينُ على حالة ... من الخير تُنبي بنيل الظفرْ

هنيئاً لك الخلدُ دار التقاةْ ... وطبْ يا أخَي بخير مقرْ

إذا كان موتٌ يزور حميداً ... فقد زار «فتحي» بأمرِ القدر

* * *

النجم الذي هوى

في رثاء الدكتور / فتحي شحاتة (رحمه الله)

د. حمودة محمد داود سند*

زين النجوم هوى من منزل القمر ... وصار في لحظة من أضرب الخبر

ليس انكدارا ليوم الحشر بل سمعت ... روح الفقيد نداء الله في السفر

لبت سريعا وطارت للقاء به ... شوقا إلى الخلد بالفردوس والنهر

لم تنتظر من حبيب من يودعها ... كأن صاحبها قد فر من سقر

أو أن زخرف دنيانا وزينتها ... سجن كما قال خير الخلق في الأثر

إنا لنبكيه لا أنا بنا جزعٌ ... من الفراق فهذي شيمة البشر

لكن فقدنا عزيزا كان سيدنا ... بأصدق القول والترتيل للسور

وكان بالود فينا والسماع له ... ملء القلوب وملء السمع والبصر

وحين غاب لذيذ العيش ودعنا ... وغص بالماء من تلقاه بالخبر

لم يبعد النفسَ عن عصيان خالقها ... لفقد فتحي سوى الإيمان بالقدر

وأن موتته في شهر مغفرة ... أحيا لياليه بالذكر والسهر

يؤم فيها تقاة بالقيام وما ... ينسى يذكر في الترويح بالدرر

---

* أستاذ التفسير والحديث في كلية الدراسات العربية والإسلامية.

ويطلب العتـق من رب العبـــاد له — والمصلين في بيــــــد وفي حضر
حتى منيتـــه كـــانت لنـا عظة — تذكـــر اللـه من يحتـــاج للعبر
إني لأحسبـــه ممن تغمـــــدهم — ربي برحمتـــه والفـــوز بـالنظر
فأهل قـــرآنه والعلم خـــاصتـــه — وأهل نجـــواه في منأى مـن الخطر
إن كـــان يغفـر للعـــاصي يجالسهم — فكيف يخذل من يدعـوه في السحر؟

***

آمنت باللـه مـــا الدنيـــا بباقيـــة — ولا لـذائـــذها تخلـو من الكـدر
[فما المعـزى بباق بعـد ميِّـــته] — ولا المعـــزي وإن شـــابا من الكبر
ولا يعمـــــر ذو طَول لقـــوته — ولا صـغير يعيش الـدهر للصغـــر
يسَّـــــابقون ومن يسبق أحبتـــه — فـــالكل يتبعـــه مـــاض على الأثر
يـارب لا تفتننـــا بعــــــده أبـدا — وامنن لنا ولـه بالفـــوز والظفــــر
بما وعـــــــدت جميع المتقين بـه — جنات عـــدن وزدنا فيهـــا بالنظر

***

UNITED ARAB EMIRATES - DUBAI
COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

JOURNAL OF COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

"A REFERRED ACADEMIC PUBLICATION"

ISSUE NO 14 - 1418 - 1997

UNITED ARAB EMIRATES - DUBAI
COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

JOURNAL OF COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

"A REFEREED ACADEMIC PUBLICATION"

ISSUE NO 14 - 1418 - 1997





UNITED ARAB EMIRATES - DUBAI
COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

JOURNAL OF COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

"A REFEREED ACADEMIC PUBLICATION"

ISSUE NO 14 - 1418 - 1997